

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنسروان ، ويافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا^(١) .

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام ، وروى أحمد عن العرياض بن سارية ما يقارب ذلك^(٢) .

وقد روي أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخدمت النار التي يعبدتها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت ، روى ذلك البهقي^(٣) ولا يقره محمد الغزالي^(٤) .

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكراً له ، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفاً في العرب - وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون^(٥) .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ٦٢/١ ، رحمة للعالمين ٣٨/١ ، ٣٩ واختلافهم في تعين تاريخ أبريل فرع للخلاف في التقويمات الميلادية .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ١٢ وابن سعد ٦٣/١ .

(٣) نفس المصدر الأول .

(٤) انظر فقه السيرة لحمد الغزالي ص ٤٦ .

(٥) ابن هشام ١٥٩/١ ، ١٦٠ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ٦٢/١ وقيل إنه ولد مختوناً ، انظر =

وأول من أرضعته من المراضع - بعد أمه عليها السلام - ثوبية مولاة أبي هب بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ^(١) .

في بني سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يتسموا المراضع لأولادهم ، ابتعاداً لهم عن أمراض المعاشر ؛ لتقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتنفسوا اللسان العربي في مهدهم ، فلتتس عبد المطلب لرسول الله عليه السلام الرضعاء ، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر - وهي حليمة بنت أبي ذؤيب - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكى بأبي كبشة ، من نفس القبيلة .

وإختوته عليها السلام هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء - لقب غالب على اسمها -) وكانت تحضن رسول الله عليه السلام وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله عليه السلام .

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضاً في بني سعد بن بكر ، فأرضعت أمه رسول الله عليه السلام يوماً وهو عند أمه حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله عليه السلام من وجهين ، من جهة ثوبية ومن جهة السعدية ^(٢) .

ورأت حليمة من بركته عليها السلام ما قصّت منه العجب ، ولنتركها تروي ذلك مفصلاً :

قال ابن إسحق : كانت حليمة تحدث : أنها خرجت من بلدتها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتسم الرضعاء قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً ، قالت : فخرجت على أثان لي قراء ، معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ن GAM ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغبنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أثانى تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجافاً ، حتى قدمنا مكة نلتسم الرضعاء ، فما من امرأة إلا وقد عرض

= تلقيع فهو أهل الأثر ص ٤ ، وقال ابن القمي : ليس فيه حديث ثابت . انظر زاد المعاذ ١٨/١ .

(١) تلقيع فهو أهل الأثر ص ٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٣ .

(٢) زاد المعاذ ١٩/١ .

عليها رسول الله ﷺ فتاباه ، إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيئاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبها : والله إني لأكرهه أن أرجع من بين صواحبها ولم آخذ رضيئاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا أخذنه . قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنا لم أجده غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخيه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بغير ليلة ، قالت : يقول صاحبها حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة ! لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أثاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حرمهم ، حتى إن صواحبها ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ! أربعين علينا ، أليس هذه أثانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول هن : بلى والله ! إنها لمي هي ، فيقلن : والله إن لها شأنها ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلادبني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً ، فتحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاياهم : ويلكم اسرعوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، قتروح أغناهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت ستة وفصلاته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ، قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحقرص على مكته فيما ، لما كنا نرى من بركه ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغفل ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته علينا^(١) .

وهكذا بقي رسول الله ﷺ في بني سعد ، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة^(٢) من

(١) ابن هشام ١٦٢ / ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) هنا ما ذهب إليه عامة أهل السير ، وبقى في سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع في السنة الثالثة ، انظر ابن هشام ١٦٥ ، ١٦٤ / ١ .

مولده وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمن ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمن يسعون إلى أمه - يعني ظهره - فقالوا : إن محمدًا قد قتل ، فاستقبلوه وهو متყع اللون^(١) .

إلى أمه الحنون :

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة حتى ردته إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين^(٢) .

ورأت آمنة وفاة لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيترب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمساً كيلو متراً ، ومعها ولدها البَيْتِيْم - محمد ﷺ - وخدمتها أم أيمن ، وقيمتها عبد المطلب ، فمكثت شهراً ، ثم قفت ، وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض ، ويلمع عليها في أوائل الطريق ، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة^(٣) .

إلى جده العطوف :

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنون في قواده تربو نحو حفيده البَيْتِيْم ، الذي أصيب بمصاب جديد نكاً الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع عبد المطلب فاثـ في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذنه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني هذا فوالله إن له لشاناً ،

(١) صحيح مسلم ، باب الإسراء ٩٢/١ .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١٦٨/١ .

(٣) ابن هشام ١٦٨/١ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٦٣/١ ، فقه السيرة للغزالى ص ٥٠ .

ثم مجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع^(١) .
ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره توفي جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل
وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه^(٢) .

إلى عمه الشقيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضمه إلى ولده ، وقدمه عليهم ،
واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبها . ويوسط عليه حمايته ،
ويصادق ويخاخص من أجله ، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت
قريش : يا أبو طالب ! أقحط الوادي ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه
غلام ، كأنه شمس دجن ، تحلت عنه سحابة قناء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب ، فالصلق
ظهره بالكتيبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ه هنا وه هنا ،
وأغدق وأغدو دق ، وانفجر الوادي وأخضب النادي والبادي ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين
قال :

وأيضاً يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامي عصمة للأرامل^(٣)

بحيرا الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ أثنتي عشرة سنة – قيل وشهرين وعشرة أيام^(٤) – ارتحل به أبو طالب
تاجراً إلى الشام ، حتى وصل إلى بصرى – وهي معدودة من الشام وقصبة لحوران ، وكانت في
ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان – وكان في هذه البلد راهب

(١) ابن هشام ١/٦٨ .

(٢) تلقيع فهوم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١/٦٩ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥ ، ١٦ .

(٤) قاله ابن الجوزي في تلقيع فهوم أهل الأثر ص ٧ .

عرف بيعيرا واسمه جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم ، وأكرمهم بالضيافة ، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته ، فقال وهوأخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرقت من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا ساجدا ، ولا تسجد إلا لنبي ، وإنني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإننا نجده في كتابنا ، وسأل أبو طالب أن يرده ، ولا يقدم به إلى الشام ، خوفاً عليه من اليهود ، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة^(١) .

حرب الفجار:

ولخمس عشرة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان ، وكان قائداً قريشاً وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفًا ، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكتانة على قيس . وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها ، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ ، وكان ينبل على عمومته ، أي يجهز لهم النيل للرمي^(٢) .

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام ، تداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيمن بن مرة ، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التميمي لسننه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاماً معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت في

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ٦ ، وابن هشام ١٨٠ / ١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ووقع في كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلا بلا (تحفة الأحوذى) وهو من الغلط الواضح ، فإن بلا إلا إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر . زاد المعاد ١٧ / ١ .

(٢) ابن هشام ١٨٤ / ١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، قلب جزيرة العرب ص ٢٦٠ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٦٣ / ١ .

دار عبد الله بن جدعان خلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجت (^١) .

وهذا الخلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها ، ويقال في سبب هذا الخلف إن رجلاً من زيد قدم مكة بضاعة ، واشترتها منه العاص بن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجحشاً ، وسهماً ، وعدياً ، فلم يكتثروا له ، فعلا جبل أبي قبيس ، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته ، فمشي في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول ، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزيدى بعد ما أبرموا الخلف (^٢) .

حياة الكندح:

ولم يكن له عليه السلام عمل معين في أول شبابه ، إلا أن الروايات تواترت أنه كان يرعى غنماً ، رعاها في بني سعد (^٣) ، وفي مكة لأهلها على قراريط (^٤) وفي الخامسة والعشرين من سنّه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها ، قال ابن إسحق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياها بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارةً فلما بلغها عن رسول الله عليه السلام ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله عليه السلام منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام (^٥) .

زواج خديجة:

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا ، وأخبرها

(١) ابن هشام ١١٣ / ١ ، ١٣٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) نفس المصدر الأخير ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) ابن هشام ١٦٦ / ١ .

(٤) فقه السيرة لحمد الغزالى ص ٥٢ .

(٥) ابن هشام ١٨٧ / ١ ، ١٨٨ .

غلامها ميسرة بما رأى فيه من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفکر راجع ، ومنطق صادق ، ونوح أمين . وجدت ضالتها المنشودة – وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجهما ، فلأن عليهم ذلك – فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه تفاصحه أن يتزوج خديجة ، فرضي بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبواها إليه ، وعلى أثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مصر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة ، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعلقاً ، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت^(١) .

وكل أولاده عليهم السلام منها سوى إبراهيم ، ولدت له أولاً القاسم - وبه كان يكتنى - ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم في صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركتن الإسلام فأسلمن وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياتهم عليهم السلام ، سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ، ثم لحقت به ^(٢) .

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده عليه السلام قامت قريش ببناء الكعبة ، وذلك لأن الكعبة كانت رضماً فوق القامة ، ارتفاعها تسعه أذرع من عهد إسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثراً قد يها - للعواودي التي أوهت ببنائها ، وصدعت جدرانها ، وقبل بعثته عليه السلام بخمس سنين جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطررت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها ، واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها إلا طيباً ، فلا يدخلوا فيها مهر بغي ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها ، فابتداً بها الوليد ابن المغيرة المخزومي ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء ، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد

(١) ابن هشام ١٨٩، ١٩٠، فقه المسيرة محمد الغزالى ص ٥٩ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ .

(٢) نفس المصدر الأول / ١٩٠١ ، ١٩١٠ ، والثاني ص ٦٠ ، وفتح الباري ٧/٥٧ و بين المصادر اختلاف يسر
أخذنا ما هو الراجح عندنا .

إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ في البناء ، فجزأوا الكعبة ، وخصصوا لكل قبيلة جزء منها ، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة ، وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بناء رومي اسمه باقون ، ولما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلقو فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه ، واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً ، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم ، إلا أن أبو أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضيئاه ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء ، فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا أصلوه إلى موضعه أخذه بيده ، فوضعه في مكانه ، وهذا حل حصيف رضي به القوم .

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع ، وهي التي تسمى بالحجر والخطم ، ورفعوا بها من الأرض ؛ لعلها يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهائهما ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً ، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م ، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ م من أرضية المطاف . والضلوع الذي في الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين على الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها ، متوسط ارتفاعها ٢٥ م ومتوسط عرضها ٣٠,٣٠ م وتسمى بالشاذروان ، وهي من أصل البيت لكن قريشاً تركتها^(١) .

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خيراً ما في طبقات الناس من ميزات ، وكان طرزاً رفيعاً من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف ، وكان يستعين بصحته الطويل على طول التأمل وإدeman الفكرة واستكناه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطنته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ،

(١) انظر في تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٩٢/١٢ إلى ١٩٧ ، وفقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤/١ ، وصحبي البخاري باب فضل مكة وبناتها ٢١٥/١ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١

فعاف ما سواها من خرافه ، ونأى عنها ، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسنا شارك فيه ، وإنما عاد إلى عزلته العتيدة ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيداً ، ولا احتفالاً ، بل كان من أول نشاته نافراً من هذه العبودات الباطلة ، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصر على سماع الحلف باللات والعزى^(١) .

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضي باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، روى ابن الأثير قال رسول الله ﷺ : « ما همت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيبي وبينه ، ثم ما همت به حتى أكرمني برسالته ، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمى حتى أدخل مكة وأسر بها كما يسرم الشباب ! فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفأ ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع . فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبى فسألنى ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة .. ثم ما همت بسوء »^(٢) .

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس بنقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : أجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزارى ، إزارى ، فشد عليه إزاره^(٣) وفي رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك^(٤) .

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروعة ، وأحسنهم خلقاً ، وأعزهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وألينهم

(١) يدل عليه كلامه مع بحيرا . انظر ابن هشام ١/١٢٨ .

(٢) اختلفوا في صحة هذا الحديث فصححه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢٨٧ .

(٣) صحيح البخاري باب بناء الكعبة ١/٥٤٠ .

(٤) نفس المصدر مع شرح القسطلاني .

عربيكة ، وأعفهم نفساً ، وأكرمهم خيراً ، وأبرهم عهداً ، وآمنهم أمانة ، حتى
سماه قومه « الأمين » ؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم
المؤمنين خديجة رضي الله عنها : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ويعين على
نواب الحق^(١) .

(١) صحيح البخاري ٢/١

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء :

ولما تقارب سنه بِيَعْلَمُ الْأَرْبَعِينَ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السوق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور، على مبعدة نحو ميلين من مكة — وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد — ومعه أهله قريباً منه، فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضى وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهللة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهاج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه^(١).

وكان اختياره بِيَعْلَمُ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم. ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى.. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

وهكذا دبر الله محمد بِيَعْلَمُ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبّر ما وراء الوجود من غيب مكتون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله^(٢).

(١) رحمة للعلميين ٤٧/١، وابن هشام ٢٣٥/١، ٢٣٦، في ظلال القرآن الجزء ١٦٦/٢٩.

(٢) نفس المصدر الأخير ١٦٦/٢٩، ١٦٧.

جبريل ينزل بالوحى:

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال ، وقيل : ولها تبعث الرسل - بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة ، وتلك الآثار هي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاثة عشر سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته عليه عليه السلام بحرا شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة ، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن ^(١) .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا ، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م ، وكان عمره عليه السلام إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و ١٢ يوماً ، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و ٢٢ يوماً ^(٢) .

(١) قال ابن حجر : وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحي البقطة في رمضان (فتح الباري ٢٧/١) .

(٢) اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهب طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهب طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل هو شهر رجب (انظر ختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٥) ورجحنا الثاني - أي أنه شهر رمضان - لقوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (٢ : ١٨٥) ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٩٧ : ١) ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان ، وهي المرادبة يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مَبَارِكَةٍ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (٤٤ : ٣) ولأن جواره عليه السلام بحرا كان في رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم ، فقيل : هو اليوم السابع ، وقيل : السابع عشر ، وقيل الثامن عشر (انظر ختصر سيرة الرسول المذكور ص ٧٥ ، ورحلة للعلميين ٤٩/١) وقد أصر الحضرى في محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ٦٩/١) . وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون مع أنها لم نر من قال به لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متبعون على أن مبعثه عليه السلام كان يوم الإثنين ، وبيهيدهم ما رواه آئمة الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله عليه السلام سئل عن صوم يوم الإثنين ، فقال : فيه ولدت فيه أنت علي ، وفي لفظ : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنتل على فيه (صحيح مسلم ٣٦٨/١ ، ٢٩٧/٥ ، ٢٩٩ ، البهقي ٤/٢٨٦ ، ٣٠٠) .

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الواقعة التي كانت شعلة من نور اللاهوت ، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال ، حتى غيرت مجرى الحياة ، وعدلت خط التاريخ . قالت عائشة رضي الله عنها :

أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فتحت فيه - وهو التبعد - الليلي ذوات العدد قبل أن يتزدَّ إلى أهله ، ويترُدَّ لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيترُدَّ لملئها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : أقرأ : فقلت : ما أنا بقاريء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : أقرأ يا سيريك الذي خلقك ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَلِيقٍ﴾ أقرأ ورِبِّكَ الْأَكْرَمُ ﴾^(۱)﴿ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف قواه ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال خديجة ، مالي ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيتك على نفسي ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل بالرحم ، وتتحمل الكل ، وتكتسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرِجُهُمْ ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ،

= الحكم ۶۰۲ / ۰۲) يوم الإثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادي والعشرين ، والثامن والعشرين ، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليلي العشر الأوامر من رمضان وأنها تتخلق فيها بين هذه الليلي ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ، وبين رواية أبي قحافة أن مبعثه ﷺ كان يوم الإثنين وبين حساب التقويم العلمي في وقوع يوم الإثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلة .

(۱) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى : ﴿عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١) .

وروى الطبرى وابن هشام ما يفيد أنه خرج من غار حراء بعدما فوجيء بالوحى ثم رجع وأتم جواره ، وبعد ذلك رجع إلى مكة ، ورواية الطبرى تلقي ضوءاً على سبب خروجه وهكذا نصها :

قال رسول الله ﷺ بعد ذكر مجيء الوحي : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد - يعني نفسه - شاعر أو مجنون إلا تحدث بها عنى قريش أبداً ! لأعمدن إلى حالي من الجبل فلا طرحن نفسى منه فلا قتلتها ، فلا ستر يخون ! قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد !! أنت رسول الله ، وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قد미ه في أفق السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدمن وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدمن أمامي ، ولا أرجع ورأي ، حتى بعثت خديجة رسلاها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعاً إلى أهلي^(٢) حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيناً إليها (ملتصقاً بها مائلاً إليها) فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكوننبي هذه الأمة^(٣) ، ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته . فقال : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت ، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة ، وقال بعد أن سمع منه خبره : والذي نفسى بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى^(٤) .

(١) صحيح البخاري ٢/١ ، ٣ ، وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا .

(٢) نص الطبرى ٢٠٧/٢ .

(٣) نص ابن هشام ١/٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٤) ملخص من ابن هشام ١/٢٣٨ .

فترة الوحي:

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً^(١) وهذا الذي يتراجع بل يتغير بعد إدارة النظر في جميع الجوانب . وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاثة سنين أو ستين ونصف فلا يصح بحال ، وليس هذا موضع التفصيل في رده .

وقد بقى رسول الله ﷺ في أيام الفترة كبيباً محزوناً ، تعزيره الحيرة والدهشة ، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه :

وقررت الوحي فتره حتى حزن النبي ﷺ فيها بلغنا حزناً عدداً^(٢) منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال ، فكلما أوف بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جائشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً مثل ذلك ، فإذا أوف بذروة الجبل تبدي له جبريل فقال له مثل ذلك^(٣) .

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية:

قال ابن حجر : وكان ذلك (أن انقطاع الوحي أياماً) ، ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع ، وليحصل له التشوف إلى العود^(٤) ، فلما تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف ﷺ معرفة اليقين أنه أضحي نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينصل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتقاءه بمحبي الوحي سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل للمرة الثانية . روى البخاري عن حابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، قال :

فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرني قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراً قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهل قفت : زملوني زملوني ، فزملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر إلى قوله : فاهجر ، ثم

(١) فتح الباري ١/٢٧ ، ٣٦٠.

(٢) بالعين المهمة من العدو ، وهو الذهاب بسرعة ، وفي بعض النسخ « غداً » بالمعنى المعجمة .

(٣) صحح البخاري كتاب التعبير باب أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٢/٣٤٠ .

(٤) فتح الباري ١/٢٧ .

حمي الوحي وتنابع^(١).

استطراد في بيان أقسام الوحي:

قبل أن نأخذ في تفصيل حياة الرسالة والنبوة ، نرى أن نتعرف أقسام الوحي الذي هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة . قال ابن القيم – وهو يذكر مراتب الوحي :
إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي ﷺ : إن روح القدس نفت في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الحرس ، وكان أشدّه عليه فيلبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فشققت عليه حتى كادت ترضاها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلام الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثبتتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير في بيان المرتبة الأولى والثانية^(٢) ، والحق أن هذه الأخيرة ليست ثابتة .

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٧٣٣/٢ .

(٢) انظر زاد المعاد ١٨/١ .

أمر القيام بالدعوة إلى الله، وموادها

تلقي النبي ﷺ أوامر عديدة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدْرِسُونَ قُرْآنَدِرْ ۝ وَرَبَكَ فَكِيرْ ۝ وَشَابَكَ فَطَهِرْ ۝ وَالرُّحْزَفَاهْ جَرْ ۝ وَلَا تَمْنَنَ سَتَكِيرْ ۝ وَلِرَبِكَ فَأَصِيرْ ۝﴾ أوامر بسيطة ساذجة في الظاهر ، بعيدة المدى والغاية ، قوية الأثر والفعل في الحقيقة ونفس الأمر .

- ١ - فغاية القيام بالإذنار أن لا يترك أحداً من يخالف مرضاه الله في عالم الوجود إلا وينذره بعواقبه الخيمة حتى تقع رجفة وزلزال في قلبه وروقه .
- ٢ - غاية تكبير الرب أن لا يترك لأحد كبرياته في الأرض إلا وتكسر شوكتها ، وتقلب ظهراً لبطن ، حتى لا يقى في الأرض إلا كبريات الله تعالى .
- ٣ - غاية تطهير الثياب وهجران الرجز أن يبلغ في تطهير الظاهر والباطن وفي تركية النفس من جميع الشوائب والألواث إلى أقصى حد وكاليمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلئه وهدايته ونوره ، حتى يكون أعلى مثل في المجتمع البشري ، تجتذب إليه القلوب السليمة ، وتحس بهيبيته وفخامته القلوب الزائفة ، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقاً أو خلافاً .
- ٤ - غاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة ، بل لا يزال يجتهد في عمل بعد عمل ، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والفداء ، ثم ينسى كل ذلك ، بل يغنى في الشعور بالله بحيث لا يحس ولا يشعر بما بذل وقدم .
- ٥ - وفي الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفه والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهد في قتله وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين ، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة ، لا لينال حظاً من حظوظ نفسه ، بل مجرد مرضاه ربه .

الله أكيرا ما أبسط هذه الأوامر في صورتها الظاهرة. وما أروعها في إيقاعاتها الهدئة الخلابة، ولكن ما أكبرها وأفحشها وأشدتها في العمل، وما أعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم كله، وتركتها يتلاحم بعضها في بعض.

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبلیغ، فالإنذار نفسه يقتضي أن هناك أعمالاً لها عاقبة سواءً يلقاها أصحابها، ونظرأً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يعمل الناس، بل ربما لا يمكن المجازاة بجميع الأعمال. فالإنذار يقتضي يوماً للمجازاة غير أيام الدنيا، وهو الذي يسمى يوم القيمة ويوم الجزاء والدين، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التي نعيشها في الدنيا.

وسائل الآيات تطلب من العباد التوحيد الصريح، وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى، وترك مرضاه النفس، ومرضاه العباد إلى مرضاه الله تعالى.

فإذن تتلخص هذه المواد في:

(أ) التوحيد.

(ب) الإيمان يوم الآخرة.

(ج) القيام بمتزكية النفس بأن تنتهي عن المنكرات والفواحش التي تفضي إلى سوء العاقبة، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير.

(د) تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى.

(هـ) وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد ﷺ وتحت قيادته النبيلة وتوجيهاته الرشيدة.

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى — في صوت الكبير المتعال — بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزעה من النوم والتذرر والدفء إلى الجهال والكافح والمشقة: ﴿هَيَايَهَا الْمُتَّهِرُ فَرَّ فَانِذْرَ﴾ كأنه قيل: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفرش الدافئ؟ والعيش الهدى؟ والنام المريح! قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهاد والنصب، والكد والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل، والجهاد الطويل الشاق. قم فتهياً لهذا الأمر واستعد.

إنها لكلمة عظيمة رهيبة، تنزعه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من دفء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائير الناس وفي واقع الحياة سواء.

وقام رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً! لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام وظل قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العباء الثقيل الباهظ ولا ينوه به، عباء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عباء البشرية كلها، عباء العقيدة كلها، وعباء الكفاح والجهاد في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً. لا يلهمه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد. منذ أن سمع النداء العلوي الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب... جزاء الله عنه وعن البشرية كلها خير الجزاء^(١).

وليست الأوراق الآتية إلى صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهد الطويل الشاق الذي قام به رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ خلال هذا الأمد.

(١) في ظلال القرآن تفسير سوري المزمل والمذر، ج ٢٩/١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢.

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة الحمدية – على صاحبها الصلاة والسلام والتضحية – إلى دورين ممتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهو :

- (١) الدور المكي ، ثلاث عشرة سنة تقريباً .
- (٢) الدور المدني ، عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص ممتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جلياً بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال الدورين .

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنين .

٢ - مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة .

٣ - مرحلة الدعوة خارج مكة ، وفسوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته صلوات الله عليه إلى المدينة .

أما مراحل الدور المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه .

المرحلة الأولى

جهاز الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب ، وكان بها سدنة الكعبة ، والقائم على الأوثان والأصنام المقدسة عندسائر العرب ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عملاً ، كان بعيداً عنها . فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزل لها المصائب والكوارث ، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية ، لئلا يفاجأ أهل مكة بما يبيحهم .

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على الصدق الناس به وأآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه خيراً من يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الله الحق والخير ، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالطهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي^(١) وابن عميه علي بن أبي طالب - وكان صبياً يعيش في كفالة الرسول - وصديقه الحمي أبو بكر الصديق . أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة^(٢) .

(١) كان قد أسر ورق ، فملكه خديجة ، ووهبته لرسول الله ﷺ ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبوا به إلى قومه وعشائره ، فاختار عليهما رسول الله ﷺ ، فبنياه حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد بن محمد ، حتى جاء الإسلام فأبطل النبي .

(٢) رحمة للعاملين ٥٠ / ١ .

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلاً مالقاً محباً سهلاً ، ذا خلق ومحظوظ ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعى من يشق به من قومه من يفشاو ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان ، وطلحة بن عبد الله التميمي . فكان هؤلاء التفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطلبيعة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين بلال بن رياح الحبشي ، ثم تلامهم أمين هذه الأمة^(١) أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة عبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعید بن زيد العدوي ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعددهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً^(٢) . وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسلاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به^(٣) .

أسلم هؤلاء سراً ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدتهم إلى الدين متخفياً ، لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تابع وحمى نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسب مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تركيبة النقوس ، وتقييع تلوينها برغام الدنيا ، تصف المخنة والنار كأنهما رأي عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آذاك .

الصلوة:

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلوة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام

(١) انظر لسماته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١/٥٣٠.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٤٥ إلى ٢٦٢ .

(٣) نفس المصدر ١/٢٦٢ .

الصلاه ركعتين بالغداه وركعتين بالعشري ، لقوله تعالى : ﴿وَسَيِّدُنَا مُحَمَّدُ رَبُّكَ يَا لِلْعَشِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٤٠ : ٥٥) وقال ابن حجر : كان عليهما قبل الإسراء يصلى قطعاً ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن هبعة موصولاً عن زيد بن حارثة : أن رسول الله عليهما السلام في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل ، فعلمتهوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه . وقد روى ابن ماجة بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس ، وكان ذلك من أول الفريضة^(١) .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي عليهما السلام وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي عليهما السلام وعليه يصليان مرة ، فكلمهمما في ذلك ، ولما عرف جليه الأمر أمرهما بالثبات^(٢) .

الخبر يبلغ إلى قريش إجمالاً:

يبدو بعد النظر في نواح شتى من الواقع أن الدعوة – في هذه المرحلة – وإن كانت سرية وفردية ، لكن بلغت أنباءها إلى قريش ، بيد أنها لم تكترث بها .

قال محمد الغزالى : وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً ، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين ، الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته^(٣) .

مرت ثلاثة سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبلیغ الرسالة وتمكينها من مقامها، ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله عليهما السلام بمعالته قومه ، ومحاباه باطلهم ومحاجمة أصنامهم .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٨٨ .

(٢) ابن هشام ١/٢٤٧ .

(٣) فقه السيرة ص ٧٦ .

المرحلة الثانية الدعوة جهارا

أول أمر بإظهار الدعوة:

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَينَ﴾ (٢٦ : ٢١٤) والsurah التي وقعت فيها الآية - وهي سورة الشعرا - ذكرت فيها أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل ، ونجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .

أرى أن هذا التفصيل إنما جاء به حين أمر الرسول ﷺ بدعاة قومه إلى الله ، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، ولزيكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة - علاوة على ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب ، وليرى المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين .

الدعوة في الأقربين:

وأول ما فعل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أنه دعا بني هاشم فحضروا ، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكأنوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره أبو هب وقال : وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباء . واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق

من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قريش ، وتمdem العرب ، فما رأيت أحداً جاء علىبني أبيه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : « الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله تقوتون كما تنامون ، ولتبغضن كما تستيقظون ، ولتحاسين بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً » . فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهو لاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنني أسرعهم إلى ما تحب ، فampus لما أمرت به . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطأعني على فراق دين عبد المطلب .

قال أبو هب : هذه والله السواة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب : والله لنفعه ما بقينا^(١) .

على جبل الصفا:

وبعدما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته ، وهو يبلغ عن ربه ، قام يوماً على الصفا فصرخ : يا صدّاحاه : فاجتمع إليه بطون قريش ، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وبال يوم الآخر . وقد روى البخاري طرفاً من هذه القصة عن ابن عباس . قال : لما نزلت **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَينَ﴾** صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي بابني فهر ! يابني عدي ! لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسوله لينظر ما هو ؟ فجاء أبو هب وقريش . فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكتم مصدق؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقًا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو هب : تبا لك سائر اليوم . لهذا جمعتنا ؟ فنزلت **﴿هَبَّتْ يَدَآ أَبَى لَهَبٍ﴾**^(٢) .

(١) ابن الأثير ، فقه السيرة ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٢ ، ٧٤٣ ، والرواية مخرجة في صحيح مسلم أيضاً ١١٤/١ .

وروى مسلم طرفاً آخر من هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخاص. فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا عشربني كعباً أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمدًا أنقذني نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحمة سأبلها بيلالها^(١).

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم. وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

الصدع بالحق وردود فعل المشركين:

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى ﴿فَاصْنَعْ إِيمَانُهُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤:١٥) فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبيانات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين.

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتاً يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لجسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها.

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان ببني الألوهية عما سوى الله، ومعنى الإيمان بالرسالة وبال يوم الآخر هو الانقياد العام والتغويض المطلق، بحيث لا يبقى لهم خيار في أنفسهم وأموالهم، فضلاً عن غيرهم. ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم وكبرياتهم على العرب، التي كانت بالصبغة الدينية، وامتناعهم عن تنفيذ مرضياتهم أمام مرضاعة الله ورسوله، وامتناعهم عن المظالم التي كانوا يفترونها على الأوساط السافلة، وعن السيئات التي كانوا

(١) صحيح مسلم ١١٤/١ ، صحيح البخاري ٣٨٥/١ ، ٧٠٢/٢ ، مشكاة المصايح ٤٦٠/٢

يجترحونها صباح ومساء. عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع «المخزي» لا لكرامة وخير **﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ﴾** (٥٧٥).

عرفوا كل ذلك جيداً، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل للقيم البشرية ولكرام الأخلاق، لم يعرفوا له نظيراً ولا مثيلاً خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون؟ تغيروا في ذلك، حتى لهم أن يتغيروا.

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلاً إلا أن يأتوا إلى عمه أبي طالب، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه، ورأوا لإلباس طلبهم لباس الحمد والحقيقة أن يقولوا: إن الدعوة إلى ترك آلهتهم، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها، وفيه تسفيه وتضليل لأبائهم الذين كانوا على هذا الدين، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها.

وفد قريش إلى أبي طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا فاما أن تكتفه عنا، وإنما أن تخلي بيتنا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيك. فقال لهم أبو طالب قوله رقيقة، وردهم ردأ جميلأ فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعوه^(١).

المجلس الاستشاري لكتف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشاً أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأوا أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم ببعض، ويرد قولكم بعضه ببعض، قالوا: فأنت فقل، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو

(١) ابن هشام ٢٦٥/١.

بِرْمَةُ الْكَاهِنِ وَلَا سَجْعَهُ . قَالُوا : فَنَقُولُ : جَنُونٌ . قَالَ : مَا هُوَ بِجَنُونٍ ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجَنُونَ وَعَرَفْنَاهُ ، مَا هُوَ بِخَنْقَهُ وَلَا تَخَالِجَهُ وَلَا وَسُوْسَتَهُ . قَالُوا : فَنَقُولُ : شَاعِرٌ . قَالَ : مَا هُوَ بِشَاعِرٍ ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ رِجْزَهُ وَهَزْجَهُ وَقَرِيبَتْهُ وَمَقْبُوضَتْهُ وَمَبْسُوطَتْهُ ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ ، قَالُوا : فَنَقُولُ : سَاحِرٌ . قَالَ : مَا هُوَ بِسَاحِرٍ ، لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَارَ وَسَحْرَهُمْ ، فَمَا هُوَ بِنَفْثَمِهِ وَلَا عَقْدَهُمْ . قَالُوا : فَمَا نَقُولُ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ لَقُولَهُ لَحَلَاوَةٌ ، وَإِنْ أَصْلَهُ لَعَذْقٌ ، وَإِنْ فَرَعَهُ لَحَنَّةٌ ، وَمَا أَنْتُ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئاً إِلَّا عَرَفْتُ أَنَّهُ باطِلٌ ، وَإِنْ أَقْرَبَ الْقَوْلَ فِيهِ لَأَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ . جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ سَحْرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءَ وَأَهْلِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءَ وَأَخْيَهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءَ وَزَوْجَتِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءَ وَعَشِيرَتِهِ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ^(١) .

وَتَفَيَّدَ بَعْضُ الرَّوَايَاتِ أَنَّ الْوَلِيدَ لَمْ يَرُدْ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا عَرَضُوا لَهُ ، قَالُوا : أَرَنَا رَأْيَكَ الَّذِي لَا غَضَاضَةَ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَمْهَلُونِي حَتَّى أَفْكُرَ فِي ذَلِكَ ، فَظَلَّ الْوَلِيدُ يَفْكُرُ وَيَفْكُرُ ، حَتَّى أَبْدَى لَهُمْ رَأْيَهُ الَّذِي ذَكَرَ آنَفَأَنَّهُ^(٢) .

وَفِي الْوَلِيدِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَتْ عَشْرَ آيَةً مِنْ سُورَةِ الْمَدْثُرِ (مِنْ ١١ إِلَى ٢٦) وَفِي خَلَالِهَا صُورٌ كَيْفِيَّةٌ لِتَفْكِيرِهِ ، فَقَالَ : ﴿إِنَّمَا فَكَرَ وَقَدَرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ وَأَسْتَكَبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّهُمْ إِلَّا سَعْرٌ يَوْمَئِذٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُمْ إِلَّا هُوَ أَهْوَأُ الْبَشَرِ﴾ .

وَبَعْدَ أَنْ اتَّفَقَ الْمَحْلِسُ عَلَى هَذَا الْقَرْرَارِ أَخْذَهُ فِي تَنْفِيذِهِ ، فَجَلَسُوا بِسَبِيلِ النَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ ، لَا يَمْرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا حَذَرُوهُ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا لَهُمْ أَمْرَهُ^(٣) .

وَالَّذِي تَوَلَّ كَيْرَ ذَلِكَ هُوَ أَبُو لَهْبَ ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّبِعُ النَّاسَ إِذَا وَافَ الْمَوْسِمَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَفِي عَكَاظِ وَمَجْنَةِ وَذِي الْمَحَازِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَأَبُو لَهْبَ وَرَاءُهُ يَقُولُ : لَا تَطِيعُوهُ فَإِنَّهُ صَاحِبُ الْكَذَابِ^(٤) .

(١) نفس المصدر ١/٢٧١.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢٩، ١٨٨.

(٣) ابن هشام ١/٢٧١.

(٤) روى فعله هذا الترمذى عن نزير بن رومان و .. عن طارق بن عبد الله المخارقى ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٤٩٢/٣، ٤٤١/٤.

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما رأت قريش أن محمداً ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك . فكروا مرة أخرى ، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تلخص فيما يأتي :

١ - السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكميل والتضليل ، قصدوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بهم هازلة وشتائم سفهية ، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الْدِرْكُ إِنَّكَ لِمَجْنُونٌ ﴾ (٦:١٥) ويصمونه بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ ﴾ (٤:٣٨) وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة ، وعواطف منفعلة هائجة ﴿ وَإِنْ يَكُادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْفَنُوكَ إِبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الْذِكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لِمَجْنُونٌ ﴾ (٦٨:٥١) وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساً ملائكة ﴿ مَنْ أَلَّهُ عَلَيْهِمْ مَّنْ بَيْنَنَا ﴾ (٦:٥٣) قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِالشَّكَرِينَ ﴾ (٦:٥٣) وكانوا كما قص الله علينا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢١) و﴿ إِذَا مَرُوا بِهِمْ يَغَامِرُونَ ﴾ (٢٠) و﴿ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَيْهِمْ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِنَ ﴾ (٢٣) و﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّهُمْ هُؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ (٢٤) و﴿ وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَفَظِينَ ﴾ (٢٩:٨٣) .

٢ - تشويه تعاليه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢٥:٥) ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أَفْتَرَهُ وَأَعْنَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ أَخْرُوتَ ﴾ (٢٥:٤) وكانوا يقولون ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٦:١٠٣) وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الْطَّعَامَ وَيَمْسِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (٢٥:٧) وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ - معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . فقد ذكروا أن النضر بن

الحارث قال مرة لقريش : يا معاشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتتكم له بمحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حدثياً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم عقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعوا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعوا أصنافه كلها هزجه ورجره ، وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معاشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، ثم يخلدتهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : لماذا محمد أحسن حديثاً مني^(١) .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشتري قينات ، فكان لا يسمع ب الرجل مال إلى النبي ﷺ إلا سلط عليه واحدة منها ، تطعمه وتسقيه ، وتغفي له ، حتى لا يبقى له ميل إلى الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشَرِّي لَهُوا الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) .

٤ - مساومات حاولوا بها أن يلتقي الإسلام والماهليه في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه ﴿وَدُوَا لَوْدِهِنْ فَيُؤْدِهِنْ﴾^(٣) (٦٨ : ٩) فهناك رواية ابن جرير والطبراني تفيد أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أن يبعد آهتمام عاماً ، ويعبدون ربهم عاماً . ورواية أخرى لعبد بن حميد تفيد أنهم قالوا : لو قبلت آهتنا نعبد إلهك^(٤) .

وروى ابن إسحاق بسنده ، قال : اعرض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالکعبه -

(١) ابن هشام ١/٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ ، ٤/٨ ، ٩ ، وتفہم القرآن ٤/٨ ، ٩ ، ختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) تفہم القرآن ٤/٩ .

(٣) تفہم القرآن ٦/٥٠١ ، ٢٠٥ .

الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان في قومهم - فقالوا يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بمحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ السورة كلها^(١) .

وحسن الله مفاوضتهم المضحك بهذه المفاصلة الحازمة .

ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المسماومة مرة بعد أخرى .

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئاً فشيئاً لكتف الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب ، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعديب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تجدي لهم نفعاً في كف الدعوة الإسلامية ؛ اجتمعوا مرة أخرى ، وكونوا منهملجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلاً من سادات قريش ، رئيسها أبو هب عم رسول الله ﷺ ، وبعد التشاور والتفكير اتخذت هذه اللجنة قراراً حاسماً ضد رسول الله ﷺ ، ضد أصحابه . فقررت أن لا تألوا جهداً في محاربة الإسلام ، وإيذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، وال تعرض لهم بالوان من النكال والإيلام^(٢) .

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه . أما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما المستضعفين منهم - فكان ذلك سهلاً جداً . وأما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهماً وقوياً ذو شخصية فذة ، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ، بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف ، ولا يجرؤ على اقتراف الدنيا والرذائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم ، ومع ذلك كان في منعة أبي طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين ، كان معظمها في أصله ، معظماً بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته ، إن هذا الوضع أفلق قريشاً

(١) ابن هشام ١/٣٦٢ .

(٢) رحمة للعلميين ١/٥٩ ، ٦٠ .

وأقامهم وأقعدهم ، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعوة تتشرف إلى القضاء على زعامتهم الدينية ، وصدارتهم الدنيوية .

وببدأوا الاعتداءات ضد النبي ﷺ ، وعلى رأسهم أبو هب ، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك . وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلسبني هاشم ، وما فعل على الصفا ، وقد ورد في بعض الروايات أنه – حينما كان على الصفا – أخذ حجراً ليضرب به النبي ﷺ^(١) .

وكان أبو هب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببني رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبلبعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة ، حتى طلقاهما^(٢) .

ولما مات عبد الله – الابن الثاني لرسول الله ﷺ – استبشر أبو هب ، وهرول إلى رفاته يبشرهم بأنّ محمداً صار أبتر^(٣) .

وقد أسلفنا أنّ أبي هب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكميله ، وقد روى طارق بن عبد الله الحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكميل ، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه^(٤) .

وكانت امرأة أبي هب – أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان – لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً ، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ ، ولذلك وصفها القرآن بحملة الخطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبي بكر ، فقالت : يا أبي بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما

(١) روى ذلك الترمذى .

(٢) في ظلال القرآن ٢٨٢/٣٠ ، تفهم القرآن ٥٢٢/٦ .

(٣) تفهم القرآن ٤٩٠/٦ .

(٤) جامع الترمذى .

والله إني لشاعرة . ثم قالت :

مذمماً عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأته ، لقد أخذ الله بصرها عنـي ^(١) .

وروى أبو بكر البزار هذه القصة . وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت : « أبا بكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يتغوه به ، قالت : إنك لمصدق » .

كان أبو هب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره ، كان بيته ملصقاً بيته ، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته .

قال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبو هب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمراء الشفقي ، وابن الأصداء الهذلي - و كانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص ^(٢) ، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها في برمه إذا نسبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق ^(٣) .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحابه له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض أياكم يجيء بسلاماً جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد . فانبعث أشقي القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) ^(٤) فجاء به فنظر ، حتى إذا سجد النبي الله وضع على ظهره بين كفيه ، وأنا أنظر ، لا أغنى شيئاً ، لو كانت لي منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) هو أبو الخليفة الأموي مروان بن الحكم .

(٣) ابن هشام ١/٤١٦ .

(٤) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣ .

ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطراً)، ورسول الله ﷺ مساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمع اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط — وعد السابع فلم يحفظه — فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذي عدا رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر^(١).

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولزه. وفيه نزل: **﴿وَيُؤْلِمُ كُلَّ هُمَزَةٍ لَّمَّا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ هَمْزَةٌ الَّذِي يَشْتَمُ الرَّجُلُ عَلَانِيَةً وَيَكْسِرُ عَيْنِيهِ وَيَغْمُزُ بَهُ وَاللَّمَزَةُ الَّذِي يَعِيبُ النَّاسَ سَرًا وَيَؤَذِّيْهِمْ﴾**^(٢).
 أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبياً آتبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل. وأبي بن خلف نفسه فت عظيماً رميماً ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ^(٣).

وكان الأحسن بن شرير الثقفي من ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ **﴿١٠﴾** هَذَا زَوْجٌ مَّشَّلَعٌ
يَنْمِيْرٌ **﴿١١﴾** مَنَاعٌ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدِلٌ أَشِيمٌ **﴿١٢﴾** عُتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنْبِيرٌ **﴿٤﴾**. (٦٨: ١٠ - ١٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على المصلى قنطر أو جينة ٣٧/١

(۲) ابن هشام ۱/۳۰۶، ۳۰۷.

(٣) نفس المصدر ٣٦١/٣٦٢.

(٤) في ظلال القرآن ٢٩/٢١٢

والله إني لأكثـر هذا الوادي نادياً. فأنزل **﴿وَلِيَنْعُمُ نَادِيَةٌ﴾**^(١). وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه، وهزه، وهو يقول له: **﴿فَأَوْكَ لَكَ فَأَوْكَ لَكَ فَأَوْكَ لَكَ فَأَوْكَ لَكَ﴾** ثم قال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، واني لأعز من مشى بين جبليها^(٢).

ولم يكن أبو جهل ليقيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يغفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزي، لعن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلـي، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقيبه ويتفقـي بيديه، فقالـوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيـني وبينـه خندقاً من نار وهؤلاء أجنة، فقالـ رسول الله ﷺ: لو دـنا منـي لاختطفـته الملائـكة عـضـواً عـضـواً^(٣).

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي ﷺ مع ما لشخصـيه الفـذـة من وقار وجلال في نفـوسـ العامةـ والـخـاصـةـ، وـمعـ ماـ لـهـ منـ منـعةـ أبيـ طـالـبـ أعـظـمـ رـجـلـ محـترـمـ فيـ مـكـةـ، أـمـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـمـسـلـمـينـ –ـ وـلـاـ سـيـماـ الـضـعـفـاءـ مـنـهـمـ –ـ فـإـنـ الـإـجـرـاءـاتـ كـانـتـ أـقـسـىـ مـنـ ذـلـكـ وـأـمـرـ، فـقـيـ نفسـ الـوقـتـ قـامـتـ كـلـ قـبـيلـةـ تـعـذـبـ مـنـ دـانـ مـنـهـاـ بـالـإـسـلـامـ أـنـوـاعـاـ مـنـ التـعـذـيبـ، وـمـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـ قـبـيلـةـ فـأـجـرـتـ عـلـيـهـمـ الـأـوـبـاشـ وـالـسـادـاتـ الـأـوـانـاـ مـنـ الـاضـطـهـادـ، يـفـرعـ مـنـ ذـكـرـهـاـ قـلـبـ الـحـلـيمـ.

كان أبو جهل إذا سمع بـرـجـلـ قدـ أـسـلـمـ لـهـ شـرـفـ وـمـنـعـ أـنـهـ وـأـخـزـاهـ، وـأـوـعـدـهـ يـبـلـاغـ الخـسـارـةـ الـفـادـحةـ فـيـ الـمـالـ، وـالـجـاهـ، وـإـنـ كـانـ ضـعـيفـاـ ضـرـبـهـ وـأـغـرـىـ بـهـ^(٤). وكان عم عثمان بن عفان يلفـهـ فـيـ حـصـيرـ مـنـ أـورـاقـ النـخـيلـ ثـمـ يـدـخـنهـ مـنـ تـحـتهـ^(٥). ولـماـ عـلـمـتـ أـمـ مـصـعـبـ بنـ عـمـيرـ يـاسـلـامـهـ أـجـاعـتـهـ وـأـخـرـجـتـهـ مـنـ بـيـتـهـ، وـكـانـ مـنـ أـنـعـمـ النـاسـ عـيـشاـ، فـتـخـشـفـ جـلـدـهـ تـخـشـفـ الـحـيـةـ^(٦).

(١) نفس المصدر .٢٠٨/٣٠

(٢) نفس المصدر .٣١٢/٢٩

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) ابن هشام ١/٣٢٠.

(٥) رحمة للعلمـينـ ١/٥٧.

(٦) نفس المصدر ١/٥٨، وتلقيـعـ فـهـومـ أـهـلـ الـأـثـرـ صـ ٦٠.

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحى ، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به في جبال مكة ، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه ، وكان أمية يشده شدًا ثم يضره بالعصا ، وكان يلجه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجموع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول – وهو في ذلك – أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به ، فاشتراه بغلام أسود ، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقد^(١) .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون – وعلى رأسهم أبو جهل – يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضان ، فيعدبونهم بحرها . ومر بهم النبي ﷺ وهم يعدبونه فقال : صبراً آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية – أم عمار – في قلبها بحربة فماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى ، وبالتعريق أخرى . وقالوا : لا تتركك حتى تسب محمداً ، أو تقول : في اللات والعزى خيراً ، فوافقهم على ذكر مكرها ، وجاء باكيًا معتذراً إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله ﷺ *مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ حَلَّ لَمَنْ أُكْثِرَهُ وَقَلْبُهُ مُطَمَّئِنٌ بِالْإِيمَانِ* ﴿١٦﴾ (٢) .

وكان أبو فكية – واسمه أفلح – مولى لبني عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ، ثم يحررونه على الأرض^(٣) .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم ثمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التشكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة ، ثم وضعوا عليه حجراً ؛ حتى لا يستطيع أن يقوم^(٤) .

(١) رحمة للعلميين ٥٧/١ ، تلقيح الفهوم ص ٦١ ، ابن هشام ٣١٧/١ ، ٣١٨ .

(٢) ابن هشام ١/٣١٩ ، ٣٢٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٨٢ وروى بعض ذلك العوفي عن ابن عباس ، انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩٢ .

(٣) رحمة للعلميين ٥٧/١ ، من إعجاز التنزيل ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر ١/٥٧ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠ .

وكان زنيرة والهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن ، وكان المشركون يسمونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا . وأسلمت جارية لبني مؤمل – وهم حي من بني عدي – فكان عمر بن الخطاب – وهو يومئذ مشرك – يضر بها ، حتى إذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملالة^(١) .

وابتاع أبو بكر هذه الجواري فأعتقهن ، كما أعتق بلاً وعامر بن فهيرة^(٢) .

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر ، ثم يلقونه في حر الرمضاء ، ويلبسون بعضاً آخر درعاً من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة^(٣) .

وقائمة المعذبين في الله طولية ومؤلمة جداً ، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وأذوه .

دار الأرق:

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولاً أو فعلاً ، وأن لا يجتمع بهم إلا سراً ؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وربما يفضي ذلك إلى مصادمة الفريقين ، بل وقع ذلك فعلاً في السنة الرابعة من النبوة ، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب ، فيصلون فيها سراً ، فرأهم نفر من كفار قريش ، فسبوهم وقاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه ، وكان أول دم أهريق في الإسلام^(٤) .

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم ، فكان من الحكمة الاحتفاء ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم ، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين ، لا يصرفه عن ذلك شيء ، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سراً ؛ نظراً لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرق بن

(١) رحمة للعلميين ٥٧/١ ، ابن هشام ٣١٩/١ .

(٢) ابن هشام ٣١٨/١ ، ٣١٩ .

(٣) رحمة للعلميين ٥٨/١ .

(٤) ابن هشام ٢٦٣/١ ، مختصر سيرة الرسول محمد بن عبد الوهاب ص ٦٠ .

أبي الأرقم المخزومي على الصفا . وكانت بعزل عن أعين الطغاة ومحالسيم ، فكان أن اخذها مركزاً للدعوة ، ولاجتاعه المسلمين من السنة الخامسة من النبوة^(١) .

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة ، بدأت ضعيفة ، ثم لم تزل يوماً وشهراً فشراً حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة ، حتى نبا بهم المقام في مكة ، وأوزعتهم أن يفكروا في حيلة تنجوهم من هذا العذاب الأليم ، وفي هذه الساعة الضنكـة الحالـكة نـزلـت سـورـةـ الـكـهـفـ ، ردـودـاً عـلـىـ أـسـلـةـ أـدـلـىـ بـهـاـ المـشـرـكـونـ إـلـىـ النـبـيـ عـلـيـهـ السـلـطـةـ ، ولـكـنـهاـ اـشـتـملـتـ عـلـىـ ثـلـاثـ قـصـصـ ، فـيـهاـ إـشـارـاتـ بـلـيـغـةـ مـنـ اللهـ تـعـالـىـ إـلـىـ عـبـادـهـ الـمـؤـمـنـينـ ، فـقـصـةـ أـصـحـابـ الـكـهـفـ تـرـشـدـ إـلـىـ الـهـجـرـةـ مـنـ مـرـاكـزـ الـكـفـرـ وـالـعـدـوـانـ حـيـنـ مـخـافـةـ الـفـتـنـةـ عـلـىـ الـدـيـنـ ، مـتـوكـلاـ عـلـىـ اللهـ هـوـ رـوـاـيـةـ مـوـاـبـيـدـ وـمـاـيـعـبـدـوـنـ إـلـاـ اللـهـ فـأـوـرـ إـلـىـ الـكـهـفـ يـنـشـرـلـكـرـيـكـمـ مـنـ رـحـمـتـهـ، وـيـهـيـئـ لـكـمـ مـنـ أـمـرـكـرـمـ فـرـقـاـ هـوـ (١٨ : ١٦) .

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتفع حسب الظاهر دائماً ، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر . ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستتعكس تماماً ، وسيتصادر هؤلاء الطغاة المشركون – إن لم يؤمنوا – أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين .

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض الله يورثها من عباده من يشاء . وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده – بين آونة وأخرى – من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان وأرجووجه ، وأن الأحق يارث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون . ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة ، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة هـ لـلـذـيـنـ أـحـسـنـوـاـ فـيـ هـذـهـ الـذـيـنـ حـسـنـةـ وـأـرـضـ اللـهـ وـأـسـعـةـ إـنـمـاـيـوـقـيـ الـصـنـيـرـوـنـ أـجـرـهـمـ يـقـرـيـ حـسـابـ هـ (٣٩ : ١٠) وكان رسول الله عـلـيـهـ السـلـطـةـ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتنة .

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكوناً من

(١) نفس المصدر الأخير ص ٦١ .

اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال النبي ﷺ فيهما : إنما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام^(١) .

كان رحيل هؤلاء تسللاً في ظلمة الليل – حتى لا تقطن لهم قريش – خرجوا إلى البحر ، ويسموا ميناء شعيبة ، وقيضت لهم الأقدار سفيتين تجاريتن أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وقطنوا لهم قريش ، فخرجت في آثارهم ، لكن لما بلغت إلى الشاطيء كانوا قد انطلقوا آمنين ، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار^(٢) .

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم ، وهناك جمع كبير من قريش ، كان فيه ساداتها وكبارها ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم بعنة ، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضاً ، من قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنَ وَالْغُوَافِيْهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٤١ : ٢٦) فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب – لا يحيط بروعته وجلالته البيان – تفانوا عما هم فيه ، وبقي كل واحد مصرياً إليه ، لا يخطر بباله شيء سواه ، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٥٣ : ٦٢) ثم سجد ، لم يتكلّك أحد نفسه حتى خر ساجداً ، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكيرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين^(٣) .

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم ، فارتکبوا عين ما كانوا يذلون قصارى جدهم في معوه وإفائه ، وقد توالي عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ، من لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ واقتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها « تلك الغرانيق العلي ، وإن شفاعتها لترتجى » ، جاءوا بهذا الإفك المبين ، ليعتذرلوا عن سجودهم مع النبي ﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٩٢ ، ٩٣ ، زاد المعاد ٢٤/١ ، رحمة للعالمين ٦١/١ .

(٢) رحمة للعالمين ٦١/١ ، زاد المعاد ٢٤/١ .

(٣) روى البخاري قصة السجود مختصرأ عن ابن مسعود وابن عباس ، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركين ١٤٦/١ ، وباب ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمحكة ٥٤٣/١ .

يُؤلفون الكذب ، ويطيلون الدس والاقراء^(١) .

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقة ، بلغهم أن قريشاً أسلمت ، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جلية الأمر ، رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً ، أو في جوار رجل من قريش^(٢) .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشارتهم ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن المخوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كانوا فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة^(٣) . وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصورفوري^(٤) .

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، فاختاروا رجلين جليدين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة – قبل أن يسلما – وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقة ، وبعد أن ساق الرجالان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهما بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمين ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بياقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدموا له الهدايا ثم كلاماً ، فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من

(١) تفهم القرآن / ٥١٨٨ وإلى هذا التوجيه جنح المحققون في حديث الغرائب .

(٢) نفس المصدر / ٥١٨٨ . زاد المعاد / ١٢٤ ، ٢٤ / ٢ ، ٤٤ / ٢ ، وابن هشام / ١٣٦٤ .

(٣) انظر زاد المعاد / ١٢٤ ، رحمة للعالمين / ١٦١ .

(٤) انظر المصدر الأخير .

آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

وقالت البطارقة : صدق أئتها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وبладهم .

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحیص القضية ، وسماع أطرافها جمیعاً ، فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضرها ، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في دیني ولا دین أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو التتكلم عن المسلمين - : أئها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ونأكل منا القوي الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبة وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونبعده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقدف المحسنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلوة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه ، وأمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتونا عن ديننا ، ليروننا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واحتزناك على من سواك ، ورغبتنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أئها الملك .

قال له النجاشي : هل ملك ما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأ عليه صدرأ من **كَهِيَعَصْ** **فَبَكَى وَاللهُ النجاشي** حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلّمهم إليكما ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبـه - فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن

ريعة: والله لآتينهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قوله عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان، فلما دخلوا عليه، وسألهم قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هو عبد الله رسوله وروحه وكلمة ألقاها إلى مريم العذراء البتوء.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتاخترت بطارقته، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوخ بأرضي — والشيوخ: الآمنون بلسان الحبشة — من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي ديراً من ذهب وأنني آذيت رجالاً منكم — والدبر الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطاعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجوا من عنده مقيوين مردوداً عليهما ما جاعوا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار^(١).

هذه رواية ابن إسحق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين^(٢) لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكرها أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحق تقريراً، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مرافعة قدمت إلى النجاشي.

أخفقت حيلة المشركين، وفشل مكيدتهم، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغبيتهم إلا في حدود سلطانهم، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة. رأوا أن التفصي عن هذه «الدائمية» لا يمكن إلا بکف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوته تماماً، ولا فباءً عدامه، ولكن كيف السبيل إلى

(١) ابن هشام ملخصاً ٣٣٤/١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، وفي تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة.

ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم ؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب في هذا الصدد .

قريش يهددون أبا طالب :

جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفاً ومنزلة فينا . وإنما قد استبهناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنما والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسيفيه أحلامنا ، وعيّب آهتنا ، حتى تكتفه عنا ، أو نناظره وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقى على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته ، ثم استعر وبكي ، وقام ، فلما ولّ ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١) .

وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر وقر بذلك منك عيونا^(٢)

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله ؛ وعرفت أن أبا طالب قد ألى حذلان رسول الله ﷺ ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهى فتي قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله ليس ما تسمونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبداً . فقال المطعم بن

(١) ابن هشام ١/٢٦٥، ٢٦٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجاشي ص ٦٨ .

عدي بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال : والله ما أنصفتني ، ولكن قد أجمعنا خذلاني ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك^(١) .

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين ، لكن يبدو بعد التأمل في القرائن والشاهد أنها كانتا في أواسط السنة السادسة من النبوة ، وأن الفصل بين الوفادتين لم يكن إلا يسيراً .

فكرة الطغاة في إعدام النبي - ﷺ -

بعد فشل قريش وخبيتهم في الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم بأشد مما كان قبل ذلك ، وخلال هذه الأيام نشأت في طغاتهم فكرة إعدامه ﷺ بطريق أخرى ، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هي التي سببت في تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة ، وهما : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم .

فمن تلك الضراوة أن عتبية بن أبي هب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أُكفر بـ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ وـ ﴿وَبِالذِّي دَنَّا فَدَنَّ﴾ ثم تسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه ، إلا أن البزاق لم يقع عليه ، وحيثند دعا عليه النبي ﷺ وقال : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » ، وقد استجيب دعاؤه ﷺ ، فقد خرج عتبية مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتبية يقول : يا ويل أخي ، هو والله أكلني كما دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه^(٢) .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان^(٣) .

(١) ابن هشام ١/٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) تفهم القرآن ٦/٥٢٢ ، من الاستيعاب ، والإصابة ، ودلائل النبوة ، والروض الأنف ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٣٥ .

(٣) نفس المصدر الأخير ص ١١٣ .

وَمَا يَدْلِيْ أَنْ طَغَاهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ قَتْلَهُ عَلَيْهِ الْكَلَّابُ مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ ،
قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ :

يَا مُعْشِرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ أَبَى إِلَّا مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْبٍ دِينَنَا ، وَشَتَّمْ آبَائِنَا ، وَتَسْفِيهِ
أَحْلَامِنَا ، وَشَتَّمْ آهَاتِنَا ، وَإِنِّي أَعاهَدُ اللَّهَ لِأَجْلِسَنَ لَهُ بِحَجْرٍ مَا أَطْيَقَ حَمْلَهُ ، فَإِذَا سَجَدَ فِي صَلَاتِهِ
فَضَخَّتْ بِهِ رَأْسَهُ ، فَأَسْلَمْتُنِي عِنْدَ ذَلِكَ أَوْ امْتَعْنَى ، فَلَيَصْنَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بْنُ عَبْدِ مَنَافَ مَا بَدَا
لَهُمْ ، قَالُوا : وَاللَّهِ لَا نَسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبْدَأْ ، فَامْضِ لِمَا تَرِيدُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو جَهْلٍ ، أَخْذَ حِجْرًا كَمَا وَصَفَ ، ثُمَّ جَلَسَ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْتَظِرُهُ ، وَغَدَّا
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا كَانَ يَغْدُو ، فَقَامَ يَصْلِي ، وَقَدْ عَدْتَ قُرَيْشًا فَجَلَسُوا فِي أَنْدِيَتِهِمْ ، يَنْتَظِرُونَ
مَا أَبُو جَهْلٍ فَاعِلٌ ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، احْتَمَلَ أَبُو جَهْلٍ الْحِجْرَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ ، حَتَّى
إِذَا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لَوْنَهُ ، مَرْعُوبًا قَدْ يَسْتَيْرِيْدَ يَدَاهُ عَلَى حِجْرِهِ ، حَتَّى قَذَفَ الْحِجْرَ مِنْ
يَدِهِ ، وَقَامَتْ إِلَيْهِ رِجَالُ قُرَيْشٍ فَقَالُوا لَهُ : مَالِكٌ يَا أَبَا الْحَكْمِ؟ قَالَ : قَمْتُ إِلَيْهِ لِأَفْعُلَ بِهِ مَا قَلَّتْ
لَكُمُ الْبَارِحةُ ، فَلَمَّا دَنَوْتَ مِنْهُ عَرَضَ لِي دُونَهُ فَحْلٌ مِنَ الْإِبْلِ ، لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتْهُ ،
وَلَا مِثْلَ قَصْرَتْهُ وَلَا أَنْيَابَهُ لَفَحْلٌ قَطُّ ، فَهُمْ بِي أَنْ يَأْكُلُنِي .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ذَلِكَ جَبَرِيلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ دَنَ
لَأَنْجَدَهُ^(۱) .

وَبَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَ أَبُو جَهْلٍ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مَا أَدَى إِلَى إِسْلَامِ حَمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَسِيَّانِي .

أَمَّا طَغَاهُ قُرَيْشٌ فَلَمْ تَزُلْ فَكْرَةُ الْإِعْدَامِ تَنْضَحُ فِي قُلُوبِهِمْ ، رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ : حَضَرُوهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالُوا :
مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ ، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ
إِذَا طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرَّكْنَ ، ثُمَّ مَرَ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ ، فَغَمَزوْهُ
بِيَعْضِ الْقَوْلِ ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا مَرَ بِهِمْ الثَّانِيَةُ غَمَزوْهُ بِمَثَلِهَا ، فَعَرَفَتْ
ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَرَ بِهِمْ الثَّالِثَةُ فَغَمَزوْهُ بِمَثَلِهَا ، فَوَقَفَ ثُمَّ قَالَ : أَتَسْمَعُونَ يَا مُعْشِرَ قُرَيْشٍ ، أَمَا

(۱) ابْنُ هَشَامٍ ۲۹۸ - ۲۹۹ .

والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفوه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جميلاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يسكي ويقول : أقتلون رجلاً أن يقول رب الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط^(١) . انتهى ملخصاً .

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : يسا النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فاختنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ منكبيه ، ودفعه عن النبي ، وقال : أقتلون رجلاً أن يقول رب الله ؟^(٢) .

وفي حديث أسماء : فأتي الصرىخ إلى أبي بكر ، فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أقتلون رجلاً أن يقول : رب الله ؟ فلهموا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا ننس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا^(٣) .

إسلام حمزة بن عبد المطلب:

خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق نور للمقهورين طريقهم ، إلا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه أن أبو جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا ، فآذاه ونال منه ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه ، حتى نزف منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاه لعبد الله بن

(١) ابن هشام ١/٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) صحيح البخاري - باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٤ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التحددي ص ١١٣ .

جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القنص متوضحاً قوسه ، فأخبرته المولا بما رأت من أبي جهل ، فغضب حمزة – وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة – فخرج يسعى ، لم يقف لأحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يا مصفر استه ، تشم ابن أخي وأنا على دينه ؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة ، فثار رجال من بني مخروم – حي أبي جهل – وثار بنو هاشم – حي حمزة – فقال : أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني سببت ابن أخيه سبباً قبيحاً^(١) .

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل ألى أن يهان مولاه . ثم شرح الله صدره ، فاستمسك بالعروة الونقى^(٢) ، واعتز به المسلمين أياً اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق آخر أشد بريقاً وإضاءة من الأول ، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة^(٣) . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه^(٤) . وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه ، فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ، وصححه ، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبي ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجالين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام » فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه^(٥) .

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التي رويت في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً ، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضي الله عنه من العواطف المشاعر .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٦ ، رحمة للعالمين ١/٦٨ ، ابن هشام ١/٢٩١ .

. ٢٩٢

(٢) تدل عليه رواية ذكرها الشيخ عبد الله النجدي في مختصر السيرة ص ١٠١ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١١ .

(٤) سئاني رواية في ذلك .

(٥) الترمذى ، أبواب المناقب ، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ٢/٢٠٩ .

كان رضي الله تعالى معرفاً بحدة الطبع وقوه الشكيمة ، وطالما لقي المسلمين منه ألوان الأذى ، والظاهر أنه كانت تصرط في نفسه مشاعر متناقضة ، احترامه للتقاليد التي سنتها الآباء والأجداد ، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها ، ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي كانت تساوره - كأي عقل - في أن ما يدعوه إليه الإسلام قد يكون أجل وأذكى من غيره ، وهذا ما إن يثور حتى ينحور . قاله محمد الغزالى^(١) .

وخلال هذه الروايات مع الجموع بينها - في إسلامه رضي الله عنه - أنه التجأ ليلة إلى بيته خارج بيته ، فجاء إلى الحرم ، ودخل في ستر الكعبة ، والنبي ﷺ قائم يصلّي وقد استفتح سورة «الحاقة» فجعل عمر يستمع إلى القرآن ، ويعجب من تأليفه ، قال : فقلت - أي في نفسي - هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ ﴿إِنَّمَا لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(٢) وما هؤلئك شاعر قليلاً مَا ثُوِّمُونَ^(٣) (٦٩ : ٤٠ ، ٤١) قال : قلت : كاهن . قال : ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا لِمَنْ ذَرَوْنَ^(٤) نَزَّلْنَا مِنْ رَبِّ الْعَالَمَيْنَ﴾^(٥) إلى آخر السورة . قال فوق الإسلام في قلبي^(٦) .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه ، لكن كانت قشرة التزعزعات الجاهلية ، والعصبية التقليدية ، والتعاظم بدين الآباء هي غالبة على غمض الحقيقة التي كان يتمس بها قلبه ، فبني معداً في عمله ضد الإسلام ، غير مكترت بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة .

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوماً متوضحاً سيفه ، يريد القضاء على النبي ﷺ ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدو^(٧) ، أو رجل من بني زهرة^(٨) ، أو رجل من بني مخزوم^(٩) . فقال : أين تعمد يا عمر؟ قال : أريد أن أقتل محمداً . قال : كيف تأمن من

(١) فقه السيرة ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦ ، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد . لكن في آخره ما يخالف ذلك . انظر ابن هشام ١ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، أو رجل من بني زهرة^(٩) ، أو جابر ، وفي آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠-٩ .

(٣) وهذا على رواية ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٣٤٤ .

(٤) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه . انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١ ، ومحضر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجاشي ص ١٠٣ .

(٥) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٢ .

بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي كنت عليه ، قال أفلأ كذلك على العجب يا عمر ! إن أختك وختنك قد صبوا ، وتركا دينك الذي أنت عليه ، فمشى عمر دامراً حتى أتاها وعندما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها **(طه)** يقرئهما إياها - وكان مختلفاً إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت ، وستر فاطمة - أخت عمر - الصحيفة ، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب **إليهما** ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهيئة التي سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : فلعلكم قد صبوما . فقال له ختبته : يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختبته فوطنه وطاً شديداً . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفخها نفحة بيده ، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت - وهي غضبي - : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما يس عمر ، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحي ، وقال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه ، فقالت أخته : إنك رجل ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ **(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ **(طه)** حتى انتهى إلى قوله **(إِنَّمَا الْمُلْكُ لِلَّهِ إِلَّا إِنَّمَا فَاعْبُدُنِي وَأَقِمُ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)** فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلوني على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوسحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرأه متوضحاً السيف ، فأخبر رسول الله ﷺ ، واستجمعت القوم ، فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر ، فقال : عمر ، افتحوا له الباب ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه ، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، ثم جبده جبدة شديدة فقال : أما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنکال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم ! هذا

عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، فقال عمر ،أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . وأسلم فكير أهل الدار تكيرة سمعها أهل المسجد^(١) .

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام ، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة ، والهوان ، وكسا المسلمين عزةً وشرفًا وسربوراً .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة ، قال : قلت : أبو جهل ، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إليَّ ، وقال : أهلاً وسهلاً ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب في وجهي ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به^(٢) .

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال ، فيضربونه ويضربهم ، فجئت - أي حين أسلمت - إلى خالي - وهو العاصي بن هاشم - فأعلمه فدخل البيت ، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمه فدخل البيت^(٣) .

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزي مختصرًا ، أنه لما أسلم أتى إلى جميل بن معمر الجمحى - وكان أنقل قريش للحديث - فأخيره أنه أسلم ، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صباً . فقال عمر : - وهو خلفه - كذب ، ولكنني قد أسلمت ، فثاروا إليه ، مما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، وطلع ، أي أعيَا عمر ، فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلنوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلات مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا^(٤) .

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . روى البخاري عن عبد الله بن عمر

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ابن هشام ٣٤٣/١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٢) المصدر الأخير ٣٤٩/١ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٨ وابن هشام ٣٤٨/١ .

قال : بينما هو - أى عمر - في الدار خاتقاً ، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو ، وعليه حلة سترة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بني سهم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : مالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوني أن أسلمت ، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص ، فلقي الناس قد سال بهم الوادي ، فقال أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صبا ، قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس^(١) وفي لفظ ، في رواية ابن إسحاق : والله لكانوا كانوا ثواباً كشط عنه^(٢) .

هذا بالنسبة إلى المشركين ، أما بالنسبة إلى المسلمين ؛ فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب ، لأي شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبل ثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه وقال في آخره - قلت : - أى حين أسلمت - يا رسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : « بلى ! والذى نفسي بيده ، إنكم على الحق وإن متم وإن حيتم » ، قال : قلت : ففيما الارتفاع ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه في صفين ، حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر ، له كديد كديد الطحين ، حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلى قريش وإلى حمزة ، فأصابتهم كابة لم يصبهم مثلها ، فسماني رسول الله ﷺ « الفاروق » يومئذ^(٣) .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر^(٤) .

وعن صحيب بن سنان الرومي رضي الله عنه ، قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا من غلظ علينا ، وردنا عليه بعض ما يأتي به^(٥) .

(١) صحيح البخاري ، باب إسلام عمر بن الخطاب ١/٥٤٥ .

(٢) ابن هشام ١/٣٤٩ .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦ ، ٧ .

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٣ .

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٢ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : ما زلنا أعزه منذ أسلم عمر^(١) .

ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ :

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما - أخذت السحائب تتشقّع ، وأفاق المشركون عن سكرهم في إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين ، وحاولوا مساومة مع النبي ﷺ بإغراق كل ما هو ممكن أن يكون مطلوباً له ؛ ليكتفوه عن دعوته . ولم يكن يدرى هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دعوته ، فخابوا وفشلوا فيها أرادوا .

قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً ، وهو في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معاشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فتعطيه أيها شاء ، ويكتف عننا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يكترون ويزيدون ، فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السلطة^(٢) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعابت به آهاتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تزيد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تزيد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تزيد به ملكاً ملتناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيساً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه : قال : « أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ » قال : نعم ، قال : « فاسمع مني » ، قال : أفعل ،

(١) صحيح البخاري ، باب إسلام عمر بن الخطاب ٥٤٥/١ .

(٢) هي المزلة الرفيعة المهيبة .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ حَمٌ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۚ ۚ كَتَبْ فُصِّلَتْ هَايَتُمُ
 قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ ۚ بَشِّرَأَوْنَذِيرًا فَأَغَرَّهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ ۚ وَقَالُوا قُلُوبُنَا
 فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ ۚ ۚ ثُمَّ ماضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة
 أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . فقام عتبة إلى
 أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .
 فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأي أني سمعت قوله قولاً والله ما سمعت مثله
 قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا عشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ،
 وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ،
 فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ،
 وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأي فيه ،
 فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ﷺ ، إلى قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا
 فَقُلْ أَنذِرْنِكُمْ صَعِقَةً مِّثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ ۚ ۚ فقام مذعوراً ، فوضع يده على فم
 رسول الله ﷺ ، يقول : أنسدك الله والرحم ! وذلك مخافة أن يقع النذير ، وقام إلى القوم فقال
 ما قال^(٢) .

أبو طالب يجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب :

تغير مجرى الظروف وتبدل الأوضاع والأحوال ، ولكن أبا طالب لم يزل يتوجس من المشركين خيفة على ابن أخيه ، إنه كان ينظر في الحوادث الماضية – إن المشركين هددوه بالمنازلة ، ثم حاولوا مساومة ابن أخيه بعمارة بن الوليد ليقتلواه ، وإن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بحجر يرضخه ، وإن عقبة بن أبي معيط خنق ابن أخيه بردائه وكاد يقتله ، وإن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقضي على ابن أخيه – كان أبو طالب يتذمر في هذه الحوادث ، ويشم منها

(١) ابن هشام ١/٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦/١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

رائحة شر يرجف له فواده ، وتأكد عنده أن المشركين عازمون على إخفار ذمته ، عازمون على قتل ابن أخيه ، وما يعني حمزة أو عمر أو غيرهما إن انقض أحد من المشركين على ابن أخيه بغتة .

تأكد ذلك عند أبي طالب ، ولم يكن إلا حقاً ، فإنهم كانوا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانة ، وإلى هذا الإجماع إشارة في قوله تعالى ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَرِيضًا فَإِنَّا مُنْذِرٌ﴾ (٤٣ : ٧٩) فماذا يفعل أبو طالب إذن .

إنه لما رأى تألف قريش على ابن أخيه قام في أهل بيته من بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف ، ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم ، حمية للجوار العربي ، إلا ما كان من أخيه أبي هب ، فإنه فارقهم ، وكان مع قريش^(١) .

(١) ابن هشام ٢٦٩/١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدي ص ١٠٦ .

المقاطعة العامة

وَقَعَتْ أَرْبَعْ حَوَادِثْ ضَخْمَةَ – بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ – خَلَالْ أَرْبَعَةَ أَسَايِعَ ، أَوْ فِي أَقْلَ مَدَةَ ، مِنْهَا : أَسْلَمَ حَمْزَةَ ، ثُمَّ أَسْلَمَ عُمَرَ ، ثُمَّ رَفَضَ مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسَاوِمَتَهُمْ ، ثُمَّ تَوَاثَقَ بْنُو الْمُطَلَّبِ ، وَبْنُو هَاشِمَ كُلَّهُمْ مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، عَلَى حِيَاةِ مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُنْعِهِ ، حَارَ الْمُشْرِكُونَ ، وَحَقَّتْ لَهُمُ الْحِيرَةَ ، إِنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَوْ قَامُوا بِقَتْلِ مُحَمَّدَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُسَيِّلُ وَادِيَّ مَكَّةَ دُونَهُ بِدَمَائِهِمْ ، بَلْ رِيمَا يَفْضِي إِلَى اسْتِصْاصَهُمْ . عَرَفُوا ذَلِكَ فَانْخَرَفُوا إِلَى ظُلْمٍ آخَرَ دُونَ القَتْلِ ، لَكِنْ مُضَاضَةً عَمَّا فَعَلُوا بَعْدَ .

مِيَثَاقُ الظُّلْمِ وَالْعُدُوَانِ :

اجْتَمَعُوا فِي خَيْفَ بْنِ كَنَانَةَ مِنْ وَادِي الْمُحَصَّبِ فَتَحَالَّفُوا ، عَلَى بْنِي هَاشِمَ وَبْنِي الْمُطَلَّبِ أَنْ لَا يَنْأِكُوهُمْ ، لَا يَسَايِعُوهُمْ ، لَا يَجْمَسُوْهُمْ ، لَا يَخْتَلِطُوهُمْ ، لَا يَدْخُلُوا بَيْوَتَهُمْ ، لَا يَكْلُمُوهُمْ ، حَتَّى يَسْلِمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْقَتْلِ ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ صَحِيفَةً فِيهَا عَهُودٌ وَمُوَاثِيقٌ « أَنْ لَا يَقْبِلُوا مِنْ بْنِي هَاشِمَ صَلَحًا أَبَدًا ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً حَتَّى يَسْلِمُوهُ لِلْقَتْلِ » قَالَ أَبْنَ الْقَيْمِ : يَقُولُ : كَبَّهَا مُنْصُورُ بْنُ عَكْرَمَةَ بْنُ عَامِرَ بْنِ هَاشِمَ ، وَيَقُولُ : نَضْرُ بْنُ الْحَارِثَ ، وَالصَّحِيفَةُ أَنَّهُ بَغِيْضُ بْنُ عَامِرَ بْنِ هَاشِمَ ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَلَّتْ يَدُهُ^(۱) .

تَمَّ هَذَا الْمِيَثَاقُ ، وَعَلَقَتِ الصَّحِيفَةُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ ، فَانْحَازَ بْنُو هَاشِمَ وَبْنُو الْمُطَلَّبِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ – إِلَّا أَبَا هُبَّ – وَجُبِسُوا فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ لَيْلَةَ هَلَالِ الْخَرْمَ سَنَةَ سَبْعَ مِنَ الْبَعْثَةِ .

(۱) زَادَ الْمَعَادُ ۴۶/۲ .

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتد الحصار ، وقطعت عنهم الميرة والمادة ، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا بيعاً إلا بادروه فاشتروه ، حتى بلغهم الجهد ، والتتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً – وكانوا – لا يخرجون من الشعب لشراء الحاجة إلا في الأشهر الحرم ، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها ، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الشراء .

وكان حكيم بن حزام رما يحمل قمحاً إلى عمه خديجة – رضي الله عنها – وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به لينفعه ، فتدخل بينهما أبو البختري ، ومكنته من حمل القمح إلى عمه .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أوبني عمّه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتي بعض فرشم .

وكان رسول الله ﷺ وال المسلمين يخرجون في أيام الموسم ، فيلقون الناس ، ويدعونهم إلى الإسلام ، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو هب .

نقض صحيفه الميثاق:

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك ، وفي الحرم^(١) سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفه وفك الميثاق ، وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له ، فسعى في نقض الصحيفه من كان كارهاً لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي – وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام – فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية الخزومي – وكانت أمه عاتكة

(١) الدليل على هذا أن أبي طالب مات بعد نقض الصحيفه بستة أشهر ، وال الصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب . ومن يقول : إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفه بثمانية أشهر وأيام .

بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالك بحثت تعلم ؟ فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقدمت في نقضها ، قال : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدي ، فذكره أرحامبني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف ، ولهم على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانياً ، قال من هو ؟ قال : أنا قال : أبغنا ثالثاً . قال قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، قال : أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك ، قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم ثم سمي له القوم ، فاجتمعوا عند الحجون ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أندائهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة أناكل الطعام ، ونبس الشياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يُباعون ولا يتباع منهم ؟ والله لا أقدر حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد - : كذبت ، والله لا تشق . فقال : زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كتبت . قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم بن عدي : صدقها وكذب من قال غير ذلك ، نبراً إلى الله منها وما كتب فيها .
وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

قال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل ، ثُشوّرَ فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد . إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأرضية ، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا وظلمتنا ، قالوا : قد أنصفت . وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل ، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم ». وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله .

تم نقض الصحيفة ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب ، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته ، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ، ﴿ وَإِن يَرُؤُوا آيَةً يُعْرِضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَيْرٌ ﴾ (٥٤ : ٢) أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم ^(١) .

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري ، باب نزول النبي ﷺ بمكة ٢١٦/١ ، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ٥٤٨/١ ، زاد المعاد ٤٦/٢ ، وابن هشام ٣٥٠/١ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ورحمة للعلماء ٦٩/١ ، ٧٠ وختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، وختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٣ ، وبين هذه المعاذير اختلاف يسر ، أحذنا ما ترجع عندنا بعد النظر في القرآن .

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب ، وجعل ي العمل على شاكلته ، وقريش وإن كان قد تركوا القطيعة ، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين ، والصد عن سبيل الله ، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه ، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه ، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتلاحية منذ سنوات – لا سيما حصار الشعب – قد وهنت وضعفت مفاصله ، وكسرت صلبه ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات ، وإذا هو يلاحقه المرض ويقع به – وحيثند خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه ، فحاولوا مرة أخرى أن يفاضوا النبي ﷺ بين يديه ، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاؤه قبل ذلك ، فقاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب .

قال ابن إسحاق وغيره : لما اشتكي أبو طالب ، وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضاً بعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذن على ابن أخيه ، وليعطيه منا ، والله ما نأمن أن يتزونا^(١) أمرنا ، وفي لفظ : فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون إليه شيء فتغيرنا به العرب ، يقولون تركوه ، حتى إذا مات عمه تناولوه .

مشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ؟ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم – وهم خمس وعشرون تقريراً – فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ له منا ، وخذ لنا منه ،

(١) ابزه أمره : سلب إيه وغلبه عليه .

ليكف عننا ونكتف عنه ، وليدعنا وديتنا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه ، فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليرأذنوا منك ، ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه ، من عدم تعرض كل فريق للآخر . فقال لهم رسول الله ﷺ : « أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمت بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم » ، وفي لفظ أنه قال مخاطباً لأبي طالب : « أريدهم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها العجم الحزية » ، وفي لفظ آخر قال : « يا عم ، أفلأ تدعوهما إلى ما هو خير لهم ؟ » قال : وإلى ما تدعوهما ؟ قال : « أدعوهما بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » ، ولفظ رواية ابن إسحاق : « كلمة واحدة تعطونها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » ، فلما قال هذه المقالة ، توافقوا وتحيروا ، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد ، ثم قال أبو جهل : ما هي ؟ وأبيك لنعطيكها وعشرون أمثلاها ، قال : « تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أترید يا محمد أن تجعل الآلة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ وَصَّ وَالْقُرْءَانِ ذِي الْذِكْرِ ۖ ۝ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزْرَقَ وَشَقَاقِ ۝ كَمْ أَهْلَكَاهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنَيْنِ فَنَادَوْا أَوْلَادَ حِينَ مَنَاصِ ۝ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَّارُونَ ۝ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ ۝ أَجْعَلَ الْأَلْهَمَةَ إِلَيْهَا وَنِجَادًا إِنَّ هَذَا الشَّقَّ مُعْجَابٌ ۝ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشَوْا ۝ وَأَصْبِرُوا عَلَىَّ إِلَهٍ هُمْ كُوَّا ۝ هَذَا الشَّقَّ مُرَادٌ ۝ مَا سِيمْعَنَا ۝ هَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْنَالُقُ ۝﴾ (١) . (٣٨ : ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧) .

(١) ابن هشام ٤١٧/١ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، تفهم القرآن ٤١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦/٤ ، مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩١ .

عام الحزن

وفاة أبي طالب:

أُخْرَجَ الْمَرْضُ بِأَبِي طَالِبٍ ، فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ وَافَهُ الْمَنِيَّةُ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي رَجَبٍ^(١) سَنَةً عَشْرَ مِنَ النَّوْبَةِ ، بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الشَّعْبِ بِسَتَةِ أَشْهُرٍ^(٢) . وَقِيلَ : تَوَفَّ فِي رَمَضَانَ قَبْلَ وَفَاتَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

وَفِي الصَّحِيفَةِ عَنِ الْمَسِيبِ : أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاتُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : « أَيُّ عَمٌ ، قَلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَلْمَةُ أَحَاجِ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ » ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، تَرْغُبُ عَنْ مَلَةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؟ فَلَمْ يَزَالَا يَكْلِمَاهُ حَتَّى قَالَ آخَرَ شَيْءًا كَلَمْبَهُمْ بِهِ : عَلَى مَلَةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَسْتَغْفِرُنَّ لَكُمْ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكُمْ » ، فَنَزَّلَتْ : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَنَّ كَانُوا أُولَئِي قُرْبَةٍ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَنَاحِ﴾ (٩: ١١٣) وَنَزَّلَتْ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَبْتَ﴾^(٣) (٢٨: ٥٦) .

وَلَا حَاجَةٌ إِلَى بَيَانِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ مِّنَ الْحِيَاةِ وَالْمَنْعِ ، فَقَدْ كَانَ الْحَصْنُ الَّذِي تَحْتَمِي بِهِ الدُّعَوَةُ إِلَيْهِ مِنْ هُجُومَاتِ الْكُبَرَاءِ وَالسُّفَهَاءِ ، وَلَكِنَّهُ بَقَى عَلَى مَلَةِ الْأَشْيَاخِ مِنَ

(١) تاريخ إسلام للشهاء أكبر خان النجيب آبادي ١/١٢٠، وفي المصادر اختلاف كبير في الشهر الذي توفي فيه أبو طالب، وهذا الذي رجحناه إنما رجحناه لأن أكثر المصادر متفقة على أن موته كان بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب، وأن الحصار كان ثلاثة أعوام، وأن بدء الحصار كان ليلة هلال المحرم سنة سبع، وإذا فموته في رجب سنة عشر من النبوة.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله التجدي ص ١١١.

(٣) صحيح البخاري ، باب قصة أبي طالب ١/٤٨٥.

أجداده ، فلم يفلح كل الفلاح . ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ، قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يعوطك ويغضب لك ؟ قال : هو في ضحاض من نار ، ولو لا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال : لعله تفعه شفاعتي يوم القيمة ، فيجعل في ضحاض من النار تبلغ كعبته^(٢) .

خدية إلى رحمة الله :

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها ، كانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة ، وها خمس وستون سنة ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره^(٣) .

إن خديجة كانت من نعم الله الحليلة على رسول الله ﷺ ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه ، وتوازره في أحرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه في مغارات الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها وما لها ، يقول رسول الله ﷺ : « آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقني حين كذبني الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها ، وحرم ولد غيرها »^(٤) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة ، قد أنت ، معها إماء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربه ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(٥) .

تراكم الأحزان:

وَقَعَتْ هَاتَانِ الْخَادِثَيْنِ الْمُؤْلِتَانِ خَلَالِ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ، فَاهْتَزَتْ مَشَاعِرُ الْحُزْنِ وَالْأَلْمِ فِي قَلْبِ

(٢-١) صحيح البخاري ، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١ .

(٢) نص على موتها في رمضان من تلك السنة ابن الجوزي في التلقيح ص ٧ ، والعلامة المنصور فوري في رحمة للعالمين ١٦٤/٢ وغيرهما .

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٨/٦ .

(٥) صحيح البخاري . باب تزويع النبي ﷺ خديجة وفضلها ٥٣٩/١ .

رسول الله ﷺ ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه ، فقد كانوا يحرقوا عليه ، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب ، فازداد غماً على غم ، حتى ينس منهم ، وخرج إلى الطائف ، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤمنوا وينصروه على قومه ، فلم ير من يؤمن به ولم ير ناصراً ، وأذوه مع ذلك أشد الأذى ، ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكا اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ﷺ ، اشتدت على أصحابه ، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة ، فخرج حتى بلغ برك الغمام ، يريد الحبشة ، فأرجعه ابن الدغنة في جواره^(١) .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطبع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً ، ودخل بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تسفل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لا تبكي يا بنتي ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب^(٢) .

ولأجل توالى مثل هذه الآلام في هذا العام سماه رسول الله ﷺ عام الحزن ، وبهذا اللقب صار معروفاً في التاريخ .

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة ، كانت من أسلم قديماً ، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان زوجها السكران بن عمرو ، وكان قد أسلم وهو ياجر معها ، فمات بأرض الحبشة ، أو بعد الرجوع إلى مكة ، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها ، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة ، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة^(٣) .

(١) صرخ الشاه أكبر خان الحبيب آبادي بأن هذه الواقعة كانت في هذه السنة انظر تاريخ إسلام ١٢٠/١ ، والقصة بطولها مروية في ابن هشام ١/٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، وفي صحيح البخاري ٥٥٢/١ ، ٥٥٣ .

(٢) ابن هشام ١/٤٦ .

(٣) رحمة للعاملين ٢/١٦٥ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ .

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتسائل عقلاً الرجال فيما بينهم : ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بال المسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحمد المعجز من الثبات ؟ كيف صبروا على هذه الأضطهادات التي تقشعر لسماعها الجلود ، وترجف لها الأفخدة ؟ ونظرأ إلى هذا الذي يتخالج القلوب ، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ - إن السبب الرئيسي في ذلك أولاً وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان الحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واستندت – يراها في جنب إيمانه – طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة ، فلا يالي بشيء من تلك المتاعب ، أمام ما يجده من حلوة إيمانه وطراوة إدعائه وبشاشة يقينه ﴿فَآمَّا الْزَّيْدُ فِيذَهَبُ جُفَاءً وَآمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١٢ : ١٧) .

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصايرة وهي :

٢ - قيادة تهوي إليها الأفخدة ، فقد كان النبي ﷺ – وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية بل وللبشرية جموعاً – يتمتع من جمال الخلق وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشميم النبيلة والشمائل الكريمة ، بما تجاذب إليه القلوب ، وتتفاني دونه النفوس ، وكانت أنصبه من الكمال الذي يعيش لم يرزق بمثلها بشر ، وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل ، وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على ما لم يتمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلاً عن محبيه ورفقايه ، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها .

اجتمع ثلاثة نفر من قريش ، كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سراً عن صاحبيه ثم

انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل – وكان من أولئك الثلاثة – ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال : مَاذَا سَمِعْتَ ؟ تنازعا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعمنا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحدّينا على الركب ، وكنا كفريسي رهان ، قالوا : لَنَا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاوَاتِ ، فَمَتَى نَدْرَكُ هَذَا ؟ وَاللَّهُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبْدًا وَلَا نُصْدِقُهُ^(١) .

وكان أبو جهل يقول : يا محمد إنا لا نكذب ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكِنْهُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّ اللَّهَ بِمَا حَدَّوْنَ﴾^(٢) .

وغمزه الكفار يوماً ثلاثة مرات ، فقال في الثالثة : يا عشر قريش ، جئتكم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى إن أشدّهم عداوة يرفوه بأحسن ما يجد عنده .

ولما ألقوا عليه سلا جزور وهو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك ، وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عتبية بن أبي هب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى إنه حين رأى الأسد قال : قتلني والله – محمد – وهو بمكة .

وكان أبي بن خلف يتوعده بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا في عنقه يوم أحد – وكان خدشاً غير كبير – كان أبي يقول : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك . فوالله لو بصرت على قتلني^(٣) – وسيأتي .

وقال سعد بن معاذ – وهو بمكة – لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم – أي المسلمين – قاتلوك ، ففرع فرعاً شديداً ، وعهد أن لا يخرج عن مكة ، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشتري أجود بغير بمكة ليكونه من الفرار ، وقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليهبي ؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً^(٤) .

(١) ابن هشام ١/٣٦.

(٢) رواه الترمذى في تفسير سورة الأنعام ٢/١٣٢.

(٣) ابن هشام ٢/٨٤.

(٤) انظر صحيح البخارى ٢/٥٦٣.

هكذا كان حال أعدائه عليه السلام ، أما أصحابه ورفقاوه فقد حل منهم محل الروح والنفس ، وشغل منهم مكان القلب والعين ، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحدور ، وكانت النفوس تنجدب إليه الجذاب الحديد إلى المغناطيس .

صورة هيول كل جسم ومغناطيس أشدة الرجال وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يخداش له ظفر أو يشاكل شوكة .

وطيء أبو بكر بن أبي قحافة يوماً بمكة ، وضرب ضرباً شديداً ، دنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوصين ، ويحرفهم لوجهه ، وزرا على بطن أبي بكر ، حتى ما يعرف وجهه من أنه ، وحملت بنو تم أبي بكر في ثوب ، حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكرون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله عليه السلام ، فمسوا منه بالستهم وعدلوا ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به أخت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله عليه السلام ؟ فقالت : والله لا علم لي بصاحبك ، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فأسألها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبي بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبي بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تخبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبتك ، قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبي بكر صريراً دنقاً ، فدنت أم جميل ، وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنني لأرجو أن يتقمم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله عليه السلام ؟ قالت : هذه أمرك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، فقال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم قال : فإن الله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله عليه السلام ، فأنهلاها ، حتى إذا هدأت الرجل ، وسكن الناس ، خرجتا به ، يتكلئا عليهما ، حتى أدخلتهما على رسول الله عليه السلام^(١) .

وستنتقل نوادر الحب والتفاني في موقع شتى من هذه المقالة ، ولا سيما ما وقع في يوم أحد ، وما وقع من خبيب وأمثاله .

٣ - الشعور بالمسؤولية - فكان الصحابة يشعرون شعوراً تماماً ما على كواهل البشر من المسؤولية الفخمة الضخمة ، وأن هذه المسؤولية لا يمكن عنها الخياد والانحراف بحال ، فالعواقب

(١) البداية والنهاية ٣٠/٣

التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضرراً عما هم فيه من الاضطهاد ، وأن الخسارة التي تلحقهم - وتلحق البشرية جماء - بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتابع التي كانوا يواجهونها نتيجة لهذا التحمل .

٤ - الإيمان بالأخرة - وهو ما كان يقوى هذا الشعور - الشعور بالمسؤولية - فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين ، يحاسبون بأعمالهم دفها وجلها ، صغيرها وكبیرها ، فاما إلى النعم المقيم ، وإما إلى عذاب خالد في سوء الجحيم ، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، وكانوا ﴿يُؤْتُونَ مَا أَنْوَا وَلُؤْبِهِمْ وَجِهَةُ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِعُونَ﴾ وكأنوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متابعتها ومشاقها ومرارتها ، حتى لم يكونوا يكترون لها ويلقون إليها بالأـ .

٥ - القرآن - وفي هذه الفترات العصبية الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على مبادئ الإسلام - التي كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلابة ، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشري في العالم - وهو المجتمع الإسلامي - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكم : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثُلُ الدِّينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهِمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولُ الْرَّسُولُ وَالَّذِينَ مَأْمُونُوا مَعَهُمْ مَنِ نَصَرَ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهَ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤ : ٢) ﴿إِنَّمَا أَحَسَبَ النَّاسُ أَنَّ يُنَزَّلُوا مِنْ كَذِيرَةٍ أَمْنًا وَهُمْ لَا يُفَتَّنُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذَّابِينَ﴾ (٢٩ : ١، ٢، ٣) .

كما كانت تلك الآيات ترد على إيرادات الكفار والمعاندين ردأً مفحماً ، ولا تبقى لهم حيلة ، ثم تخذلهم مرة عن عاقب وخيمة - إن أصرروا على غيهم وعنادهم - في جلاء ووضوح ، مستدلاً بأيام الله ، والشواهد التاريخية التي تدل على سنة الله في أوليائه وأعدائه ، وتلطفهم مرة ، وتوادي حق التفهم والإرشاد والتوجيه ، حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين .

وكان القرآن يسير بال المسلمين في عالم آخر ، ويصرهم من مشاهد الكون ، وجمال الربوبية ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمة والرأفة ، وتجليات الرضوان ما يمحون إليه حنيناً لا يقوم أي عقبة .

وكانت في طي هذه الآيات خطابات لل المسلمين ، فيها يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين ، يحاكون ، ويصادرون ، ثم يسحبون في النار على وجوههم ، ذوقوا مس سقر .

٦ - البشارات بالنجاح - ومع هذا كله كان المسلمين يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والمحن . بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظمها الغاشم ، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسي في العالم ، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاه الله . وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله .

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالتصريح وأخرى بالكتابية - ففي تلك الفترات القاسمة التي ضيقت الأرض على المسلمين ، وكادت تخنقهم ، وتقضى على حياتهم ، كانت تنزل الآيات بما جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكميلهم والكفر بهم ، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تماماً أحوال مسلمي مكة وكفارها ، ثم تذكر هذه الآيات بما تخصست عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين ، وإيراث عباد الله الأرض والديار . فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل ، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية .

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح بإشارة غلبة المؤمنين قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِتَابَنَا عِبَادَنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾١٦٠﴿ إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾١٦١﴿ وَلَنَ جُنَاحَنَّا لَهُمُ الْغَنِيَّوْنَ ﴾١٦٢﴿ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَقَّ حِينٍ ﴾١٦٣﴿ وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبَصِّرُونَ ﴾١٦٤﴿ أَفَيْعَذَا بِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾١٦٥﴿ فَإِذَا نَزَّلَ إِسْلَاهُنَّمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾١٦٦﴾ (٣٧ - ١٧١ - ١٧٧) وقال : ﴿ سَيَهُمْ لِلْجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٥٤ : ٤٥) وقال : ﴿ جُنَاحٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ (٣٨ : ١١) ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأًا أَخِرَّةً أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١ : ١٦) وسألوه عن قصة يوسف فأنزل الله في طيبة : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَلِخَوَّيْهِ مَا يَنْتَ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ (١٢ : ٧) أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقي إخوانه من الفشل ، ويستسلمون كاستسلامهم ، وقال وهو يذكر الرسل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رِسَالَهُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٣)

وَلَنْسُكِنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِهِ (٤: ١٣، ٤: ١٤) .
 وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان ، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين ، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسل والوحى والكتب واليوم الآخر وكانت الغلبة للفرس ، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين ، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة ، بل صرخ بإشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال : ﴿ وَيَوْمَ يُذْرِي فَرَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ (٢٠: ٤) .

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى ، فكان إذا وافى الموسم ، وقام بين الناس في عكاظ وجنة وذى الحجاز ، لتبلغ الرسالة ، لم يكن ينشرهم بالجنة فحسب ، بل يقول لهم بكل صراحة ، يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة^(١) .

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا ، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام .

وكذلك ما أجاب به النبي ﷺ آخر وفد جاء إلى أبي طالب ، فقد صرخ لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها ، تدين لهم العرب ، ويملكون العجم .

قال خباب بن الأرت : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده ، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعوا الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن ديه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله – زاد بيان الراوي – والذئب على غنم^(٢) وفي رواية ولكنكم تستعجلون^(٣) .

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستوررة ، بل كانت فاشية مكشوفة ، يعلمها الكفرة ، كما كان يعلمها المسلمون ، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ

(١) رواه الترمذى وقد مضى مراراً.

(٢) صحيح البخارى ٥٤٣/١ .

(٣) نفس المصدر ٥١٠/١ .

تغامزوا بهم ، وقالوا : قد جاءكم ملوك الأرض ، سيفغلبون على ملوك كسرى وقيصر ، ثم يصيرون ويصفقون^(١) .

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستثير في الدنيا ، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة ، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب ، وال المصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء ، ليست إلا : « سحابة صيف عن قليل تتشبع » .

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذي أرواحهم برغائب الإيمان ، ويزكي نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ، ويربيهم تربية دقيقة عميقه ، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات ، والمقاومة للشهوات ، والتزوع إلى رب الأرض والسماءات ، ويزكي جمرة قلوبهم ، وينحرجهم من الظلمات إلى النور ، ويتأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، فازدادوا رسوحاً في الدين ، وعزوفاً عن الشهوات ، وتفانياً في سبيل المرضاة ، وحنيناً إلى الجنة ، وحرصاً على العلم ، وفقهاً في الدين ، ومحاسبة للنفس وقهرها للنزاعات ، وغلبة على العواطف ، وتسيطرة على الثائرات والهائجات ، وتقيداً بالصبر والمدود والوقار .

(١) فقه السيرة ص ٨٤ .

المرحلة الثالثة دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول - ﷺ - في الطائف :

في شوال^(١) سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف ، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً ، سارها ماشياً على قدميه جيئه وذهبوا ، ومعه مولاه زيد بن حارثة ، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها . فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصرة الإسلام ، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أي يزقها) ، إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، إن كنت رسولاً لأنتم أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام ، ولكن كنت تكذب على الله ما ينفي أن أكلمك . فقام منهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتحروا عنى .

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم ، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعيدهم ، يسبوته ويصيرون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، فوقفوا له ساطرين (أي صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفة ، ورجموا عراقيبه ، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى أخلاؤه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، على ثلاثة أميال من الطائف ، فلما التجأ إليه رجعوا

(١) صرح بذلك النجيب آبادي في تاريخ إسلام ١٢٢/١ ، وهو الراجع عندي .

عنه ، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب ، فجلس تحت ظلها إلى جدار فلما جلس إليه واطمأن ، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزناً لما لقى من الشدة ، أسفًا على أنه لم يؤمن به أحد ، قال :

(اللهم إلينك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبيالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فلما رأه ابنا ربيعة تحركت له رحمة ، فدعوا غلاماً هما نصرانياً ، يقال له عداس ، وقال له : خذ قطضا من هذا العنبر واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً : « باسم الله » ، ثم أكل .

قال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : من أي بلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصراني ، من أهل « نينوى » . فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالحة يونس بن متى . قال له : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كاننبياً وأنانبي ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها .

قال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسدك عليك . فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى ، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل ، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلانبي ، قال له : ويحك يا عداس ، لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كهيناً محزوناً كسير القلب ، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال :

لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجني إلى ما أردت ، فانطلقت – وأنا مهموم – على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن التعالب – وهو المسمى بقرن المنازل – فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أطلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك . وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادي ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، ذلك ، مما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشين – أي لفعلت ، والأخشيان : هما جبلاً مكة ، أبو قبيس والذي يقابلها وهو قعيقان – قال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً^(١) .

وفي هذا الجواب الذي أدلّ به الرسول ﷺ تجلّ شخصيته الفذة ، وما كان عليه من الخلق العظيم الذي لا يدرك غوره .

وأفاق رسول الله ﷺ ، واطمأن قلبه ؛ لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمدّه الله عليه من فوق سبع سماوات ، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة ، وأقام فيه أياماً . وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة – السيل الكبير والرية – لما بهما من الماء والخشب ، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه .

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفراً من الجن ، ذكرهم الله في موضعين من القرآن ، في سورة الأحقاف : ﴿وَإِذَا صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِطُوا فَلَمَّا أَفْضَى وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾٢٦﴿ قَالُوا يَقُولُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾٢٧﴿ يَقُولُونَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَأَمْنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾٢٨﴿ (٤٦ : ٣٠ ، ٢٩) .

وفي سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمِعُ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بَهُ، وَلَنْ شُرِكْرِبَنَا أَحَدًا ﴾٢٩﴿ إلى تمام الآية الخامسة عشرة .

(١) صحيح البخاري . كتاب بدء الخلق ١/٤٥٨ ، مسلم . باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين . ١٠٩/٢ .

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبي ﷺ لم يعرف بحضور ذلك النفر من الجن ، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات ، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة ، ويقتضي سياق الروايات أنهم وفدوه بعد ذلك مراراً .

وحقاً كان هذا الحادث نصراً آخر أ美的 الله من كنوز غيه المكتنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التي نزلت بقصد الحادث كانت في طيبة بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيَسْ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيَسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤٦ : ٣٢) ﴿ وَأَنَا نَهَّىٰ أَنَّ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُعْجِزَ هُرَبًا ﴾ (١٢ : ٧٢) .

أمام هذه النصرة ، وأمام هذه البشارات ، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس ، التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطروداً مدحوراً ، حتى صمم على العود إلى مكة ، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس .

وحينئذ قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعني قريشاً ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومحرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بجراء ، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأحسن بن شريق ليجيشه ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إنبني عامر لا تجبر علىبني كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدي ، فقال المطعم : نعم ، ثم تسلح ودعا بنبيه وقومه فقال : البسو السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإني قد أجرت حمداً ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إني قد أجرت حمداً فلا يهجه أحد منكم ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصل ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأله مطعمًا : أبجير أنت أم متابع - مسلم -؟ قال : بل بجير . قال : قد أجرنا من أجرت^(١) .

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع ، فقال في أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له^(٢) .

(١) القطننا تفصيل حادث الطائف من ابن هشام ٤١٩/١ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، وزاد المعاد ٤٦/٢ ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ورحمة للعلميين ٧١/١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، وتاريخ إسلام للنجيب آبادي ١٢٣/١ ، ١٢٤ .

(٢) صحيح البخاري ٥٧٣/٢ .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة – في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م – عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، ولا قرب الموسى كان الناس يأتون إلى مكة رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، لقضاء فريضة الحجج ، وليشهدوا منافع لهم ، ويدركوا الله في أيام معلومات ، فانتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة ، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة ..

القبائل التي عرض عليها الإسلام:

قال الزهري : وكان من يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسلمي ، وعبس ، وبنو نصر ، وبنو البداء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعدرة ، والحضارمة ، فلم يستجب منهم أحد^(١) .

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة ، ولا في موسم واحد ، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة ، نعم هناك قبائل قد جزم العلامة المنصور فوري أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة^(٢) . وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم ، وهكذا ملخصاً :

(١) روى ذلك الترمذى ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤٩ .

(٢) رحمة للعلميين ١/٧٤ ، وبه جزم النجيب آبادى ، انظر تاريخ إسلام ١/١٢٥ .

١ - بنو كلب - أتى النبي ﷺ إلى بطن منهم ، يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بنى عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

٢ - بنو حنيفة - أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم .

٣ - وأتى إلى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم) : والله لو أتي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعده؟ قال : الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفهمد نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم ، لكبر سنها ، وقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ، ثم قال : يابني عامر هل لها من تلاف؟ لذنباتها^(١) من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوها إسماعيلي قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم^(٢)؟

المؤمنون من غير أهل مكة:

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود ، عرض على الأفراد والأشخاص ، وحصل من بعضهم على ردود صالحة ، وأمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل : وهناك لوحة منهم :

١ - سويد بن صامت - كان شاعراً لبيباً من سكان يثرب ، يسميه قومه الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجاً أو معتمراً ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقال : لعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معك . قال : حكمة لقمان . قال : اعرضها عليّ . فعرضها ، فقال له رسول الله ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذي

(١) مثل يضرب لمات ، وأصله من ذناني الطائر إذا أفلت من حباله فطلبت الأخذ بذناباه .

(٢) ابن هشام ٤٢٤/١ ، ٤٢٥ .

معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : إن هذا لقول حسن . فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث^(١) . وكان إسلامه في أوائل سنة ١١ من النبوة^(٢) .

٢ - إياس بن معاذ - كان غلاماً حدثاً من سكان يثرب ، قدم في وفد من الأوس ، جاءوا يلتسمون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة ١١ من النبوة ، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمتهم جاءهم مجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم به ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم به ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل كان في الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس ، وقال : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش .

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك ، وكان يهلك ويكتير ويحمد ، ويسبح عند موته ، فلا يشكرون أنه مات مسلماً^(٣) .

٣ - أبو ذر الغفاري - وكان من سكان نواحي يثرب ، ولما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضاً ، وصار سبباً لإسلامه^(٤) .

روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلاً من غفار ، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنهنبي ، فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، واتبني بخبره ، فانطلق ، فلقيه ، ثم رجع ، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير ، وينهى

(١) نفس المصدر ١/٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، رحمة للعالمين ١/٧٤ .

(٢) تاريخ إسلام للنجيب آبادي ١/١٢٥ .

(٣) ابن هشام ١/٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وتأريخ إسلام للنجيب آبادي ١/١٢٦ .

(٤) نفس المصدر الأخير ١/١٢٨ .

عن الشر ، فقلت له : لم تشفني من الخبر ، فأخذت جراباً وعصاً ، ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأله عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد . قال : فمر بي على . فقال : كأن الرجل غريب ؟ قال : قلت : نعم . فقال : فانطلق إلى المنزل ، فانطلقت معه ، لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد ؛ لأن أسأله عنه ، وليس أحد يخبرني عنه بشيء . قال : فمر بي على فقال : أما زال للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت لا . قال : فانطلق معي ، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كنت على أخبارك ، قال : فإني أفعل ، قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي الله فأرسلت أخي يكلمه ، فرجع ولم يشفني من الخبر ، فأردت أن ألقاه .

قال له : أما إنك قد رشدت ، هذا وجهي إليه ، ادخل حيث أدخل ، فإني إن رأيت أحدهما أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلاح نعلي ، وامض أنت ، فمضى ، ومضيت معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبي ﷺ ، قلت له : اعرض على الإسلام ، فعرضه ، فأسلمت مكانه ، فقال لي : يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . قلت : والذي بعثك بالحق لأصرخ بها بين أظهرهم ، فجئت إلى المسجد وقريش فيه ، قلت : يا معاشر قريش ، إنيأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابيء . فقاموا ، فضربت لأمومت ، فأدركني العباس ، فأكب على ، ثم أقبل عليهم فقال ، ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار . فأقلعوا عنى ، فلما أن أصبحت الغد ، رجعت ، فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا قوموا إلى هذا الصابيء ، فصنع بي ما صنع بالأمس ، فأدركني العباس ، فأكب على وقال مثل مقالته بالأمس^(١) .

٤ - طفيل بن عمرو الدوسى - كان رجلاً شريفاً شاعراً ليبياً رئيس قبيلة دوس ، وكان لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن ، قدم مكة في عام ١١ من النبوة ، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها ، وبذلوا له أجل تحية وأكرم التقدير ، وقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنما تخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعني منه شيئاً .

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ٤٩٩/١ ، ٥٠٠ وباب إسلام أبي ذر ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

يقول طفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا ؛ فرقاً من أن يلغني شيء من قوله ، قال فغدوت إلى المسجد ، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت قريباً منه ، فأباي الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني رجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمي ، وتخويف الناس إياي ، وسد الأذن بالكرسف ، ثم سمع بعض كلامه ، وقلت له : اعرض على أمرك ، فعرض علي الإسلام ، وتلا على القرآن ، فوالله ما سمعت قوله أبداً أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إني مطاع في قومي ، وراجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية ، فدعا .

وكانت آيتها أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل الصباح ، فقال : اللهم في غير وجهي ، أخشى أن يقولوا : هذه مثلك ، فتحول النور إلى سوطه ، فدعا أبواه وزوجته إلى الإسلام فأسلموا ، وأبطاً عليه قومه في الإسلام لكن لم ينزل بهم حتى هاجر بعد الخندق^(١) ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه ، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسناً ، وقتل شهيداً يوم اليمامة^(٢) .

٥ - ضماد الأزدي - كان من أزد شنوة من اليمن ، وكان يرقى من هذا الريح ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمداً بخون ، فقال : لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، فلقيه ، فقال : يا محمد ، إني أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ونسعيه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد .

قال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبأيتك على الإسلام ، فبأيعه^(٣) .

(١) بل وبعد الحديبية ، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بغير . انظر ابن هشام ٣٨٥/١ .

(٢) ابن هشام ١/٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، رحمة للعلميين ١/٨١ ، ٨٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٤ ، تاريخ إسلام للنجيب آبادي ١/١٢٧ .

(٣) رواه مسلم ، مشكاة المصايح ، باب علامة النبوة ٢/٥٢٥ .

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠ م - وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة ، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون في ظلها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام .

وكان من حكمته ﷺ - إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله - أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين^(١) .

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلي ، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم في الإسلام . وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأジョبة ، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام^(٢) .

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة مني ، فسمع أصوات رجال يتكلمون^(٣) ، فعمدتهم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب ، كلهم من الخزرج ، وهم :

- (١) أسعد بن زرار
 - (٢) عوف بن الحارث بن رفاعة ، ابن عفراء
 - (٣) رافع بن مالك بن العجلان
 - (٤) قطبة بن عامر بن حديدة
 - (٥) عقبة بن عامر بن نابي
 - (٦) جابر بن عبد الله بن رئاب
- (من بني النجار)
- (من بني النجار)
- (من بني زريق)
- (من بني سلمة)
- (من بني حرام بن كعب)
- (من بني عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبياً من الأنبياء مبعث في هذا الزمان ، سيخرج فتبتعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم^(٤) .

(١) تاريخ إسلام للنجيب آبادي ١٢٩/١ .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ .

(٣) رحمة للعالمين ١/٨٤ .

(٤) زاد المعاد ٥٠/٢ ، وابن هشام ٤٢٩/١ ، ٥٤١ .

فلما حقهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ، قالوا : نفر من الخزرج ، قال : من موالي اليهود ؟ أي حلفائهم ، قالوا : نعم . قال : أفلأ تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقونكم إليه ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا .

وكانوا من عقلاء يثرب ، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت من قريب ، والتي لا يزال لها مستعرًا ، فأملوا أن تكون دعوته سبباً لوضع الحرب ، فقالوا : إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فستقدم عليهم ، فندعوه إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ .^(١)

استطراد تزويج رسول الله - ﷺ - بعائشة:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها ، وهي بنت ست سنين وبني بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين^(٢) .

(١) نفس المصدر ٤٢٨/١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٢) تلقيع فهومن أهل الأثر ص ١٠ ، صحيح البخاري ٥٥١/١ .

الإسراء والمعراج

وبينما النبي ﷺ في هذه المرحلة التي كانت دعوته تشق فيها طريقاً بين النجاح والاضطهاد ، وكانت تراءى نجوماً ضئيلة تتلمع في آفاق بعيدة ، وقع حادث الإسراء والمعراج .

واختلف في تعين زمانه على أقوال شتى :

- ١ - فقيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبرى .
- ٢ - وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجح ذلك النووي والقرطبي .
- ٣ - وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة ، اختاره العلامة المنصورفوري .

٤ - وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهراً ، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة .

٥ - وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أي في الحرم سنة ١٣ من النبوة .

٦ - وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

وردت الأقوال الثلاثة الأولى بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء^(١) . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجده ما أرجح به واحداً منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً .

(١) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٤٩/٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، رحمة للعالمين ١/٢٦ وتاريخ إسلام للنجيب آبادي ١٢٤/١ .

وروى أئمّة الحديث تفاصيل هذه الواقعة . وفيما يلي نسراً لها بإيجاز :

قال ابن القيم : أسرى برسول الله ﷺ ، بجسده على الصحيح ، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، راكباً على البراق ، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فنزل هناك ، وصل بالأنبياء إماماً ، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ، ففتح له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ، ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ، ورحب به وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران ، فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي لأن غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فلقي فيها إبراهيم عليه السلام ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الحبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مرّ على موسى ، فقال له : بم أمرك ؟

قال بخمسين صلاة : قال : إن أمتك لا تطبق ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار : أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبريل حتى أقى به الجبار تبارك وتعالى ، وهو في مكانه – هذا لفظ البخاري في بعض الطرق – فوضع عنه عشرًا ، ثم أنزل حتى مر بموسى ، فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فلم ينزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، حتى جعلها خمساً ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربِّي ، ولكنني أرضى وأسلم ، فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي – انتهى^(١) .

ثم ذكر ابن القيم خلافاً في رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى ، ثم ذكر كلاماً لابن تيمية بهذا الصدد ، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلاً وهو قول لم يقله أحد من الصحابة . وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالفؤاد فال الأول لا ينافي الثاني .

ثم قال : وأما قوله تعالى في سورة النجم ﴿ ثُمَّ دَنَا فَنَدَلَنَ﴾ (٨ : ٥٣) فهو غير الدنو الذي في قصة الإسراء ، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل ، وتدلية ، كما قالت عائشة وابن مسعود ، والسياق يدل عليه ، وأما الدنو والتدلية في حديث الإسراء فذلك صحيح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدلية ، ولا تعرض في سورة النجم لذلك ، بل فيه أنه رأه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . وهذا هو جبريل ، رأه محمد ﷺ على صورته مرتين : مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى ، والله أعلم^(٢) انتهى .

وقد وقع حادث شق صدره ﷺ هذه المرة أيضاً ، وقد رأى ضمن هذه الرحلة أموراً عديدة :

عرض عليه اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل : هديت الفطرة أو أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ورأى أربعة أنهار في الجنة : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، والظاهران هما : النيل والفرات ،

(١) زاد المعاد ٤٧/٢ ، ٤٨ .

(٢) زاد المعاد ٤٧/٢ ، ٤٨ ، وانظر صحيح البخاري ١/٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٦٨٤/٢ ، ٩١/١ ، وصحیح مسلم ٩٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ .

ومعنى ذلك أن رسالته ستتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات ، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلاً بعد جيل ، وليس معناه أن مياه النهرين تتبّع من الجنة .

ورأى مالك خازن النار ، وهو لا يضحك ، وليس على وجهه بشر وبشاشة ، وكذلك رأى الجنة والنار .

ورأى أكلة أموال اليتامي ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل ، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأنفهار ، فتخرج من أدبارهم .

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة ، لا يقدرون لأجلها أن يتخلوا عن مكانهم ، وير بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم .

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث متبن ، يأكلون من الغث المتبن ، ويترون الطيب السمين .

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ، راهن معلقات بشدّيهن .
ورأى عيراً من أهل مكة في الإياب والذهب ، وقد دلهم على بغير ندّ لهم ، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ، ثم ترك الإناء مغطى ، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء^(١) .

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم وضروّتهم عليه ، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس ، فجلاه الله له ، حتى عاينه ، فطفق يخبرهم عن آياته ، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً ، وأخبرهم عن غيرهم في مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال ، فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً ، وأنى الظالمون إلا كفوراً^(٢) .

يقال سمي أبو بكر رضي الله عنه صديقاً ؛ لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها الناس^(٣) .

(١) المصادر السابقة وابن هشام ٣٩٧/١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) زاد المعاد ٤٨/١ ، وانظر أيضاً صحيح البخاري ٦٨٤/٢ ، وصحیح مسلم ٩٦/١ ، وابن هشام ٤٠٢/١ ، ٤٠٣ .

(٣) نفس المصدر الأخير ٣٩٩/١ .

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : ﴿ لِرُبَيْهِ مِنْ أَيْتَنَا ﴾ (١٧) : ١) وهذه سنة الله في الأنبياء ، قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْقِنِينَ ﴾ (٦ : ٧٥) وقال لموسى : ﴿ لِرَبِّكَ مِنْ أَيْتَنَا الْكَبُرَى ﴾ (٢٠ : ٢٣) وقد بين مقصود هذه الإرادة بقوله : ﴿ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْقِنِينَ ﴾ فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقدر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة ، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم ، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

والحكم والأسرار التي تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة ، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من بناء هذه الرحلة المباركة وتتدفق إلى حدائق أزهار السيرة النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام والتحية – أرى أن أسجل بعضًا منها بالإيجاز :

يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط ، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم ، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط ، والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس ؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية ؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقاءهم على هذا المنصب ، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلًا إلى رسوله ﷺ ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كلها ، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة ، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان ، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات ، ولا يزال رسوها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم .

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة ، والرسول يطوف في جبال مكة مطروداً بين الناس ، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى ، وهي أن دوراً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية وال تمام ، وسيبدأ دور آخر مختلف عن الأول في مجرى ، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ تُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُرْفِهِها فَسَقَوْفِهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرَنَهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١٦ : ١٧) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧ : ١٧) وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين ل المسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يتنى عليها مجتمعهم

الإسلامي ، كأنهم قد أتوا إلى الأرض ، تملّكوا فيها أمورهم من جميع النواحي ، وكونوا وحدة متّسكة تدور عليها رحى المجتمع ، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجاً ومأمناً يستقر فيه أمره ، ويصير مركزاً لبث دعوته في أرجاء الدنيا . هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة ، يتصل ببحثنا ، فآثرنا ذكره .

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين ، والله أعلم .

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة ، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته في قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١ م - اثنا عشر رجلاً ، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب - وسبعة سواهم . وهم :

- | | | |
|-------------|---|--------------------|
| (من الخزرج) | معاذ بن الحارث ، ابن عفرا | من بني النجار |
| (من الخزرج) | ذكوان بن عبد القيس | من بني زريق |
| (من الخزرج) | عبادة بن الصامت | من بني غنم |
| (من الخزرج) | يزيد بن ثعلبة | من حلفاء بني غنم |
| (من الخزرج) | العباس بن عبادة بن نضلة | من بني سالم |
| (من الأوس) | أبو الهيثم بن التيهان | من بني عبد الأشهل |
| (من الأوس) | عويم بن ساعدة | من بني عمرو بن عوف |
| | الأخيران من الأوس ، والبقية كلهم من الخزرج ^(١) . | |

اتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى ، فباعوه بيعة النساء ، أي وفق بيعتهن التي نزلت عند فتح مكة .

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : تعالوا ، بابعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسروقا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بهتان تفترونه بين

(١) رحمة للعالمين ١/٨٥ وابن هشام ٤٣١/٤٣٢ ، ٤٣٣ .

أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال : فبأيته - وفي نسخة فبأيعناه - على ذلك^(١) .

سفير الإسلام في المدينة :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبایعین أول سفير في يثرب ، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ، ويفقههم في الدين ، ول يقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك ، واختار لهذه السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين ، وهو مصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه .

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زراة ، وأخذها يشان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس ، وكان مصعب يعرف بالقرىء .

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زراة خرج به يوماً يريد داربني عبد الأشهل وداربني ظفر ، فدخلما في حائط من حواطيء بني ظفر ، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق ، واجتمع إلهمما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيداً قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانهما عن أن يأتيا دارينا ، فإن أسعد بن زراة ابن خالي ، ولو لا ذلك لكفيتك هذا .

فأخذ أسيد حربته وأقبل إلهمما ، فلما رأه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتتاً ، وقال : ما جاء بكم إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعززانا إن كانت لكم بأنفسكم حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال :

(١) صحيح البخاري ، باب علامه الإيمان حب الأنصار ١/٧ ، باب وفود الأنصار ١/٥٥١ ، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب ، وباب قوله تعالى : «إذا جاءك المؤمنات» ٢/٢٢٧ ، باب الحدود كفارة ٢/٣٠١ .

أنصفت ، ثم رکز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟

قال له : تغسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . فقام واغتسل ، وطهر ثوبه ، وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال : إن ورأي رجلاً إن تبعكمَا لم يتخلف عنْه أحد من قومه ، وسأرشه إِلَيْكُمَا الآن – سعد بن معاذ – ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه ، وهم جلوس في ناديهِم ، فقال سعد : أُحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهم فقاًلا : نفعل ما أحببنا .

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسد بن زراة ليقتلوه – وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتكم – ليخفروك ، فقام سعد مغضباً للذى ذكر له ، فأخذ حربته ، وخرج إِلَيْهِمَا ، فلما رأاهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منها ، فوقف عليهما متثناً ، ثم قال لأسد بن زراة : والله يا أبا أمامة لو لا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يخالف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم رکز حربته فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلتم ؟ قالا : تغسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادي قومه ، فلما رأوه قالوا : نخلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا

وأفضلنا رأياً ، وأيمتنا نقية ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة إلا رجل واحد - وهو الأصير - تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً » .

وأقام مصعب في بيت أسد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل ، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة ، يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ، وما فيها من موهاب الخير ، وما لها من قوة ومنعة^(١) .

(١) ابن هشام ١، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٩٠/٢، وزاد المعاد ٥١/٢ .

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢ م - حضر لأداء مناسك الحج بعض وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، وقد تساءل هؤلاء المسلمين فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى ترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية ، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يتجمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الحمرة الأولى من مني ، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل .

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي ، الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام ، يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه :

(١) خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا - فبكى مناه ، وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنما نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيباً .

(٢) قال كعب : « فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نسلل نسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند

العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان من نسائنا ؛ نسيبة بنت كعب - أم عمارة - من بني مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بني سلمة » .

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، وتوثق له ، وكان أول متكلم^(١) .

بداية المحادثة وتشريح العباس خطورة المسئولية:

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ . تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة لهذا التحالف . قال :

« يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجاً ، خزرجها وأوسها كلهم - إن محمداً منا حيث قد علمت ، وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه من خالقه ، فأتمت وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت^(٢) .

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمل هذه المسؤولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه ، ثم تمت البيعة .

(١) ابن هشام ١/٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٢) نفس المصدر ١/٤٤١ ، ٤٤٢ .

بنود البيعة:

وقد روی ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً . قال جابر : قلنا : يا رسول الله على ما نبأيك ؟ قال :

- (١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل .
- (٢) وعلى النفقة في العسر واليسر .
- (٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- (٤) وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم في الله لومة لائم .
- (٥) وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتنعوني بما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، لكم الجنة^(١) .

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود ، ففيه « قال كعب . فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورحب بالإسلام ، ثم قال : أبأيكم على أن تمنعني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معور بيده ثم قال : نعم ، والذي يبعثك بالحق (نبياً) لمنعك مما نمنع أزْرَنَا^(٢) منه ، فباعينا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرًا (عن كابر) . »

قال : فاعتراض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنما قاتلواها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والمدم المدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من سالمتم^(٣) .

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥٥ ، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت ، وفيه بند زائد ، وهو « أن لا نزارع الأمر أهله » انظر ابن هشام ٤٥٤/١ .

(٢) العرب تكتن عن المرأة بالإزار وتكتن أيضاً بالإزار عن النفس .

(٣) ابن هشام ٤٤٢/١ .

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول من أسلموا في مواسم سنتي ١١ ، ١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ، ليؤكدا للقوم خطورة المسؤولية ، حتى لا يأبهوا إلا على جلية من الأمر ، وليعرفوا مدى استعداد القوم للتضحية ويتاًكدا من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبدة بن نضلة : هل تدرؤن علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوته إلىه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذلوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيينا بذلك ؟ قال : الحنة . قالوا ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه^(١) .

وفي رواية جابر (قال) : فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسد بن زراة - وهو أصغر السبعين - فقال رويداً يا أهل يرب ، إننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعذبكم السيف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذلوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعدل لكم عند الله^(٢) .

عقد البيعة:

وبعد إقرار بند البيعة ، وبعد هذا التأكيد والتتأكد بدأ عقد البيعة بالمصفحة ، قال جابر - بعد أن حكى قول أسد بن زراة - : فقالوا يا أسد ، أمنط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقيلها^(٣) .

(١) نفس المصدر ٤٤٦/١ .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر .

(٣) نفس المصدر .

وحيثئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل ، وتأكد منه – وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ، وبالطبع فكان هو الرئيس الديني على هؤلاء المبایعین – فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبني النجار يزعمون أن أبو أمامة أسعد بن زراة كان أول من ضرب على يده^(١) .

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة ، قال جابر : فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة ، يعطينا بذلك الجنة^(٢) .

وأما بيعة المرأةين اللتين شهدتا الواقعة فكانت قولهاً . ما صافح رسول الله عليه السلام امرأة أجنبية فقط^(٣) .

ائنا عشر نقبياً:

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله عليه السلام انتخاب اثنى عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسؤلية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة ، فقال للقوم : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقبياً ؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم .

فتم انتخابهم في الحال ، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهكذا أسماؤهم :

نقباء الخزرج:

- (١) أسعد بن زراة بن عدس .
- (٢) سعد بن الربيع بن عمرو .
- (٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .
- (٤) رافع بن مالك بن العجلان .

(١) قال ابن إسحاق : وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الحيث بن التهان ، وقال كعب بن مالك : بل البراء بن معور (ابن هشام ٤٤٧ / ١) قلت : لعلهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول عليه السلام بيعة ، وإنما فالآخرين الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زراة . والله أعلم .

(٢) مسنن الإمام أحمد .

(٣) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ١٣١ / ٢ .

- (٥) البراء بن معور بن صخر .
- (٦) عبد الله بن عمرو بن حرام .
- (٧) عبادة بن الصامت بن قيس .
- (٨) سعد بن عبادة بن دليم .
- (٩) المنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس:

- (١) أسيد بن حضير بن سماك .
- (٢) سعد بن خيثمة بن الحارث .
- (٣) رفاعة بن عبد المنذر بن زير^(١) .

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين .
قال لهم : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفاله الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي – يعني المسلمين – » قالوا : نعم .

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الانقضاض ، اكتشفها أحد الشياطين ،
وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة ، ولم يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر
سرأ لياغتوا المجتمعين وهم في الشعب ؛ قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصاح بأنفذ
صوت سمع قط : « يا أهل الأخشاب – المنازل – هل لكم في محمد والصباة معه ؟ قد اجتمعوا
على حربكم » .

فقال رسول الله ﷺ « هذا أزب العقبة ، أما والله يا عدو الله لأترغبن لك » . ثم أمرهم أن
ينفضوا إلى رحالم^(٢) .

(١) زير بالياء المودحة ، وقيل بدل رفاعة ، أبو الهيثم بن التيهان ، ابن هشام ٤٤٣/١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

(٢) زاد المعاد ٥١/٢ .

استعداد الأنصار لضرب قريش:

و عند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة : « والذى بعثك بالحق ، إن شئت لنيلن على أهل مني غداً بأسيافنا ». فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن أرجعوا إلى رحالكم ، فرجعوا و ناموا حتى أصبحوا^(١) .

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش و قعـت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، لأنـهم كانوا على معرفة تامة من عـاقبـ مثل هذه البيـعة و نـاتـجـهاـ بالـنـسـبـةـ إـلـىـ أـنـفـسـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ ، فـماـ إـنـ أـصـبـحـواـ حـتـىـ تـوـجـهـ وـفـدـ كـبـيرـ مـكـةـ وـأـكـابـرـ مـجـرمـيـهاـ إـلـىـ مـخـيمـ أـهـلـ يـثـربـ ، ليـقـدـمـ اـحـتـاجـاجـهـ الشـدـيدـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـعـاهـدـةـ . فـقـدـ قـالـ :

« يا معاشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنـكـمـ قدـ جـتـمـ إـلـىـ صـاحـبـنـاـ هـذـاـ تـسـتـخـرـجـونـهـ مـنـ بـيـنـ أـظـهـرـنـاـ ، وـتـبـاـيـعـونـهـ عـلـىـ حـرـبـنـاـ ، وـإـنـهـ وـالـلـهـ مـاـ مـنـ حـيـ مـنـ عـرـبـ أـبـغـضـ إـلـيـنـاـ مـنـ أـنـ تـنـشـبـ الـحـرـبـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـهـمـ مـنـكـمـ »^(٢) .

ولـماـ كـانـ مـشـرـكـوـ الخـزـرجـ لـاـ يـعـرـفـونـ شـيـئـاـ عـنـ هـذـهـ الـبـيـعـةـ ؛ لأنـهاـ تـمـتـ فـيـ سـرـيـةـ تـامـةـ ، وـفـيـ ظـلـامـ الـلـيـلـ ، اـنـبـعـثـ هـؤـلـاءـ الـمـشـرـكـونـ يـحـلـفـونـ بـالـلـهـ : ماـ كـانـ مـنـ شـيـءـ ، وـمـاـ عـلـمـنـاـهـ ، حـتـىـ أـتـواـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ أـبـيـ بـنـ سـلـوـلـ ، فـجـعـلـ يـقـولـ : هـذـاـ باـطـلـ ، وـمـاـ كـانـ هـذـاـ ، وـمـاـ كـانـ قـومـيـ لـيـفـتـاتـوـاـ عـلـىـ مـلـهـ هـذـاـ ، لـوـ كـنـتـ بـيـثـربـ مـاـ صـنـعـ قـومـيـ هـذـاـ حـتـىـ يـؤـامـرـونـيـ .

أـمـاـ الـمـسـلـمـونـ فـنـظـرـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ بـعـضـ ، ثـمـ لـاـذـواـ بـالـصـمـتـ ، فـلـمـ يـتـحدـثـ أـحـدـ مـنـهـمـ بـنـفـيـ أوـ إـلـاتـ .

وـمـاـ زـعـمـاءـ قـرـيـشـ إـلـىـ تـصـدـيقـ الـمـشـرـكـينـ ، فـرـجـعـواـ خـائـبـينـ .

(١) ابن هشام ٤٤٨/١ .

(٢) نفس المصدر ٤٤٨/١ .

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المباعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا يتنتطونه - يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلاً . وذلك بعد ما نفر الحجاج إلى أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة البثرين ، ولكن بعد فوات الأولان ، إلا أنهم تمكنا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، فطاردوهما ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فألقوا القبض عليه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، وجعلوا يضربونه ويجررون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم . إذ كان سعد يجبر لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين قردوه أن يكرروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة^(١) .

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشتات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل ، فمؤمن من أهل ثرب يخون على أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، وتجيش في حناته مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام ، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل ، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالاً ، ويرتكوا عليها آثاراً ، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر ، وسوف يخلو المستقبل .

(١) زاد المعاد ٥٢ ، ابن هشام ٤٤٨/١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

طلاق الهرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء توج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ لل المسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهانة المصالح ، والتضحية بالأموال ، والنجاة بالشخص فحسب ، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدرى ما يتمخض عنه من فلائق وأحزان .

وبدأ المسلمين يهاجرون ، وهم يعرفون كل ذلك ، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم ، لما كانوا يحسون من الخطر ، وهكذا نماذج من ذلك :

(١) كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه ، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، فقالوا : لا تترك ابنتا معها إذ نزعموها من صاحبنا ، وتحاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها ، وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسى ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرفقاً بينها وبين زوجها ولدتها فقالوا لها : الحقي بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبه ، وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ خمساً وعشرين متراً - وليس معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء

قال : زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(١) .

(٢) ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم ت يريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم . قال : فإني قد جعلت لكم مالي ، بلغ ذلك رسول الله عليه السلام فقال : رجع صهيب ، رجع صهيب^(٣) .

(٣) وتواتر عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل موضعًا يصيرون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش وجنس عنهم هشام .

ولما قدموا المدينة وزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة - فقالوا له : إن أمك قد ندرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، فرق لها . فقال له عمر : يا عياش ، أنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتونك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذى أمك القمل لامتنشت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظللت ، فأبى عياش إلا الخروج معهما ؛ ليبرر قسم أمه ، فقال له عمر : أما إذا قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقه نجيبة ذلول ، فاللزم ظهرها ، فإن ربك من القوم ريب فانجع عليها . فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخي والله لقد استغلظت بعييري هذا ، أفلأ تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استروا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلوا به مكة نهاراً موثقاً ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفهينا هذا^(٤) .

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بنن يريد الهجرة إذا علموا بذلك . ولكن مع كل

(١) ابن هشام ١/٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٤٧٧ .

(٣) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله عليه السلام قال يوماً : من لي بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد : أنا لك يا رسول الله بهما ، فقدم الوليد مكة مستخفياً ، ولقي امرأة تحمل إليهما طعاماً فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانت محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تصور المدار ، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حق قدم المدينة انظر ابن هشام ١/٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ١/٥٥٨) .

ذلك خرج الناس أرسلاً يتبع بعضهم بعض . وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بعكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي - أقاما بأمره هما - وإنما من احتبسه المشركون كرها . وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمن بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه^(١) .

روى البخاري عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ للMuslimين إنني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهو المحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة . ورجع عاملاً من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ على رسليك ، فإني أرجو أن يؤذن لي ، فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر^(٢) .

(١) زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٢) صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١ .

في دار الندوة «برمان قريش»

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا ، وحملوا وساقوا الذداري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج ، وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقي العظيم ، الذي يهدد كيانهم الوثني والاقتصادي ، فقد كانوا يعلمون ما في شخصية محمد - ﷺ - من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد ، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفاء في سبيله ، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة ، وما في عقلاه هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما ، بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلى المحجة التجارية التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام. وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويًا ، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن في تلك الطريق .

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ في تمركز الدعوة الإسلامية في يثرب ، ومحاباة أهلها ضدتهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر ، الذي مبعشه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ .

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة

(١) - أي بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى - عقد برمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار (٢) أخطر اجتماع له في تاريخه ، وتوارد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الإسلامية ، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائياً .

وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش :

(١) أبو جهل بن هشام ، عن قبيلة بني مخزوم .

(٢) جبير بن مطعم ، وطعيمة بن عدي ، والحارث بن عامر ، عن بني نوفل بن عبد مناف .

(٣) شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، عن بني عبد شمس بن عبد مناف .

(٤) النضر بن الحارث (وهو الذي كان ألقى على رسول الله ﷺ سلا جزور) عن بني عبد الدار .

(٥) أبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام عن بني أسد بن عبد العزى .

(٦) نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، عن بني سهم .

(٧) أمية بن خلف ، عن بني جمع .

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل ، عليه بَتْ له ، ووقف على الباب ، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي اعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا : أجل فادخل ، فدخل معهم .

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التي سجلها العلامة محمد سليمان المنصور فوري في رحمة للعالمين ٩٥/١ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ٤٧١/٢ .

(٢) يدل على انعقاد الاجتماع في أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبي ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن في الهجرة . ثم ما رواه البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ جاء أبا بكر في نحر الظهرة وقال له : « قد أذن في الخروج » وسيأتي .

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي - ﷺ :

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلاً . قال أبو الأسود : نخرج من بين أظهرنا ونفيه من بلادنا ، ولا نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمراً وأفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلوة منطقه ، وغلبة على قلوب الرجال بما يأتي به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب ، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتبعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأياً غير هذا .

قال أبو البخtri : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم ترقصوا به ما أصحاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهراً والنابغة - ومن مرضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبيه ما أصحابهم .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لعن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلاؤشكوا أن يثبوا عليكم ، فيتزعمون من أيديكم ، ثم يكتروكم به ، حتى يغلبواكم على أمركم . ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آخر وافق عليه جميع أعضائه ، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل : والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعت عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبي الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فيينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا أرى غيره . ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآخر بالإجماع ، ورجع النواب إلى بيوتهم ، وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فوراً^(١) .

(١) انظر ابن هشام ٤٨٠ / ١ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ .

هجرة النبي - ﷺ

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بمحى ربه تبارك وتعالى ، فأخبره بمأمرة قريش ، وأن الله قد أذن له في الخروج ، وحدد له وقت الهجرة قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه^(١) .

وذهب النبي ﷺ في الهاجرة إلى أبي بكر رضي الله عنه ؛ ليبرم معه مراحل الهجرة ، قالت عائشة رضي الله عنها : بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقدعاً ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : « أخرج من عندك ». فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبي أنت يا رسول الله . قال : « فإني قد أذن لي في الخروج » ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم »^(٢) .

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، ينتظر مجيء الليل .

تطويق منزل الرسول - ﷺ :

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها ببيان مكة (دار الندوة) صباحاً ، واختبر لذلك أحد عشر رئيساً من هؤلاء الأكابر ، وهم :

(١) ابن هشام ٤٨٢/١ ، زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٢) صحيح البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١ .

- (١) أبو جهل بن هشام .
- (٢) الحكم بن أبي العاص .
- (٣) عقبة بن أبي معيط .
- (٤) النضر بن الحارث .
- (٥) أمية بن خلف .
- (٦) زمعة بن الأسود .
- (٧) طعيمة بن عدي .
- (٨) أبو هلب .
- (٩) أبي بن خلف .
- (١٠) نبيه بن الحجاج .
- (١١) أخوه منه بن الحجاج ^(١) .

قال ابن إسحاق : فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام ، فيثبون عليه ^(٢) .

وكانوا على ثقة ويقين حازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة ، حتى وقف أبو جهل وفقة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطباً لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم ناراً تحرقون فيها ^(٣) .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل ، فباتوا متيقظين يتظرون ساعة الصفر ، ولكن الله غالب على أمره ، بيده ملوك السموات والأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيها بعد : ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُشْتُوْكُ أَوْ يَقْتُلُوكُ أَوْ يُخْرِجُوكُ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُ الْمُكَرِّرِينَ﴾ (٣٠:٨) .

- (١) زاد المعاد ٥٢/٢ .
- (٢) ابن هشام ٤٨٢/١ .
- (٣) نفس المصدر ٤٨٣/١ .

الرسول - ﷺ - يغادر بيته:

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلاً فاحشاً . ففي هذه الساعة الخرجـة قال رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب : نـم على فراشي ، وتسجـب بيردي هذا الحضرمي الأخـضر ، فنمـ فيـه ، فإـنه لن يخلصـ إـلـيـكـ شيءـ تـكـرـهـهـ منـهـ ، وـكانـ رسـولـ اللهـ ﷺ يـنـامـ فيـ برـدـهـ ذـلـكـ إـذـا نـامـ (١) .

ثم خـرـجـ رسولـ اللهـ ﷺ ، واخـتـرقـ صـفـوـفـهـ ، وأخـذـ حـفـنةـ منـ الـبـطـحـاءـ فـجـعـلـ يـذـرـهـ عـلـى رـؤـوسـهـ ، وـقـدـ أـخـذـ اللهـ أـبـصـارـهـ عـنـهـ فـلـاـ يـرـونـهـ ، وـهـوـ يـتـلوـ :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكَّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصِرُونَ﴾ (٣٦: ٩)

فـلـمـ يـقـ منـهـ رـجـلـ إـلـاـ وـقـدـ وـضـعـ عـلـى رـأـسـهـ تـرـابـاـ ، وـمـضـىـ إـلـىـ بـيـتـ أـبـيـ بـكـرـ ، فـخـرـجـاـ مـنـ خـوـخـةـ فـيـ دـارـ أـبـيـ بـكـرـ لـيـلـاـ حـتـىـ لـحـقاـ بـغـارـ ثـورـ فـيـ اـتـجـاهـ الـيمـينـ (٢) .

وـبـقـيـ المـحاـصـرـونـ يـنـتـظـرـونـ حلـولـ سـاعـةـ الصـفـرـ ، وـقـبـيلـ حلـولـهـ تـجـلتـ لـهـمـ الـخـيـبةـ وـالـفـشـلـ ، فـقـدـ جـاءـهـمـ رـجـلـ مـنـ لـمـ يـكـنـ مـعـهـمـ ، وـرـأـهـمـ بـيـاـهـ فـقـالـ : مـاـ تـنـتـظـرـونـ ؟ قـالـواـ مـحـمـداـ . قـالـ : خـيـتمـ وـخـسـرـتـمـ ، قـدـ وـالـلـهـ مـرـ بـكـمـ ، وـذـرـ عـلـىـ رـؤـوسـكـمـ التـرـابـ ، وـانـطـلـقـ لـحـاجـتـهـ ، قـالـواـ وـالـلـهـ مـاـ أـبـصـرـنـاهـ ، وـقـامـواـ يـنـفـضـونـ التـرـابـ عـنـ رـؤـوسـهـمـ .

وـلـكـنـهـمـ تـطـلـعـواـ مـنـ صـيـرـ الـبـابـ فـرـأـواـ عـلـيـاـ ، فـقـالـواـ وـالـلـهـ إـنـ هـذـاـ لـمـحـمـدـ نـائـماـ ، عـلـيـهـ بـرـدـهـ ، فـلـمـ يـرـحـواـ كـذـلـكـ حـتـىـ أـصـبـحـواـ . وـقـامـ عـلـيـ عنـ الـفـرـاشـ ، فـسـقـطـ فـيـ أـيـدـيـهـمـ ، وـسـأـلـوهـ عـنـ رـسـولـ اللهـ ﷺ ، فـقـالـ : لـاـ عـلـمـ لـيـ بـهـ (٣) .

من الدار إلى الغار:

غـادـرـ رسـولـ اللهـ ﷺ بـيـتـهـ فـيـ لـيـلـةـ ٢٧ـ مـنـ شـهـرـ صـفـرـ سـنـةـ ١٤ـ مـنـ النـبـوـةـ المـوـافـقـ

(١) نفس المصدر ٤٨٢/١ ، ٤٨٣ .

(٢) نفس المصدر ٤٨٣/١ ، زاد المعاد ٥٢/٢ .

(٣) نفس المصادر السابقـينـ .

١٣/١٢ سبتمبر سنة ٦٢٢ م^(١) . وأتى إلى دار رفيقه – وأمن الناس عليه في صحبته وماه – أبي بكر رضي الله عنه . ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي ، ليخرجا من مكة على عجل ، وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتوجه شمالاً ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماماً ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتوجه نحو اليمن . سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال ، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شاغر ، وعر الطريق ، صعب المرتفق ، ذو أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ ، وقيل : بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفى أثره فحفيت قدماه ، وأيا ما كان ؛ فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل ، وطفق يشتند به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل ، عرف في التاريخ بغار ثور^(٢) .

إذهما في الغار:

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل . فدخل رسول الله ﷺ ، ووضع رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ، ولم يتحرك مخافة أن يتتبه رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال : مالك يا أبا بكر ؟ قال لدغت ، فداك أبي وأمي ، فتفل رسول الله ﷺ ، فذهب ما يجده^(٣) .

(١) رحمة للعالمين ٩٥/١ – ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر حرم ، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذي أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة ، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعاً . وعامة من يكتب في السيرة ربما يختار هذا ، وربما يختار ذلك ، فكثيراً ما يتخطب في ترتيب الواقع ، ويقع في أغلاط ونظرات إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر حرم .

(٢) رحمة للعالمين ٩٥/١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٧ .

(٣) رواه زريق عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيه ثم انقضى عليه (أي رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته . انظر مشكاة المصايح ، باب مناقب أبي بكر ٥٥٦/٢ .

وكمنا في الغار ثلاث ليال ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد^(١) . وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما . قالت عائشة : وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدخل من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخير ذلك حين يختلط الظلام . و (كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسول - وهو ابن منحتما ورضيدهما - حتى ينبعق بهما عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث^(٢) . وكان عامر بن فهيرة يتبع بعنه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليغطي عليه^(٣) .

أما قريش فقد جن جنونها حيناً تأكّد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا علينا ، وسحبوه إلى الكعبة ، وحبسوه ساعة ، عليهم يظفرون بخبرهما^(٤) .

ولما لم يحصلوا من على على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر ، وقرعوا بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر ، فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبي ؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدها لطمة طرحة^(٥) .

وقرت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة ، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منها لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين ، كائناً من كان^(٦) .

(١) انظر فتح الباري ٢٣٦/٧ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٥٣ ، ٥٥٤ .

(٣) ابن هشام ١/٤٨٦ .

(٤) رحمة للعلماني ١/٩٦ .

(٥) ابن هشام ١/٤٨٧ .

(٦) انظر صحيح البخاري ١/٥٥٤ .

وحيثعند جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب ، وانتشروا في الجبال والوديان ، والوهاد والهضاب ، لكن من دون جدوى وبغير عائدية .

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال : كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي ، فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت يا نبي الله لو أن بعضهم طأطاً بصره رأنا . قال : اسكت يا أبو بكر ، اثنان الله ثالثهما ، وفي لفظ : ما ظنك يا أبو بكر باثنين الله ثالثهما^(١) .

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

في الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الخبيثة ثلاثة أيام بدون جدوى ، تهياً رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وكانا قد استأجر عبد الله بن أريقط الليبي ، وكان هادياً خريتاً - ماهراً بالطريق - وكان على دين كفار قريش ، وأمناه على ذلك ، وسلمه إليه راحلتهما ، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتهما ، فلما كانت ليلة الإثنين - غرة ربيع الأول سنة ٦٢٢ هـ / سبتمبر سنة ١٩٤٣ م - جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين وحيثعند قال أبو بكر للنبي ﷺ : بأبي أنت يا رسول الله ، خذ إحدى راحلتي هاتين . وقرب إليه أفضلهما . فقال رسول الله ﷺ : بالثمن .

وأتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً ، فلما ارتحلا ذهبوا لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام ، فشققت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بوحد ، وانطفقت بالأخر ، فسميت ذات النطاقين^(٢) .

(١) صحيح البخاري ٥٥٨ / ١٥٦ ، ولم يكن فرع أبي بكر مخافة على نفسه ، بل سببه الوحيد هو ما روي أن أبي بكر لما رأى القافلة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال : إن قلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ لا تحزن إن الله معنا^{هـ} انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٨ .

(٢) صحيح البخاري ٥٥٥ / ١٥٣ ، وابن هشام ٤٨٦ / ١ .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، وارتحل معهما عامر بن فهيرة ، وأخذ بهم الدليل – عبد الله بن أريقط – على طريق الساحل .

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجه غرباً نحو الساحل ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، وسلك طريقاً لم يكن يسلكه أحد إلا نادراً .

وقد ذكر ابن إسحاق الموضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال : لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أربع ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الطرف ، ثم سلك بهما ثانية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدحلة لقف ، ثم استبطن بهما مدحلة مجاح ، ثم سلك بهما مرجع مجاح ، ثم تبطن بهما مرجع ذي الغضوين ، ثم بطن ذي كشر ، ثم أخذ بهما على الحجاجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم ، من بطن أعداء مدحلة تعهن ، ثم على العبايد ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ، ثم سلك بهما ثانية العائر – عن يمين ركوبة – حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما على قباء^(١) . وهكذا بعض ما وقع في الطريق :

(١) روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن العد حتى قام قائم الظهرية ، وخلا الطريق ، لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدي ، ينام عليه ، وبسطت عليه فروة ، وقلت : نم يا رسول الله ، وأنا أنقض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنقض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بعنمي إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذي أردنا ، فقلت له : من أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت : أفي غنمك لين ؟ قال : نعم . قلت : أفتحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة ، فقلت : انقض الضرع من التراب والشعر والقذى . فحلب في كعب كتبة من لين ، ومعي إداوة حلتها للنبي ﷺ ، يرتوى منها ، يشرب ويتوضاً ، فأتيت النبي ﷺ ، فكرهت أن أوقظه ، فوافقته حين استيقظ ، فصبيت من الماء على اللين حتى برد أسفله ، فقلت :

(١) ابن هشام ٤٩١/١ . ٤٩٢ .

اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : ألم يأن الرحيل ؟ قلت : بلى ، قال : فارتحلنا^(١) .

(٢) كان من دأب أبي بكر رضي الله عنه أنه كان رداً للنبي ﷺ ، وكان شيخاً يعرف ، ونفي الله ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبياً بكر فيقول : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل بهديني الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير^(٢) .

(٣) وتبعهما في الطريق سراقة بن مالك . قال سراقة : بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ، ونحن جلوس ، فقال : يا سراقة ، إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل ، أراها حمداً وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم . قلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ، ثم لبست في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي ، وهي من وراء أكمة ، فتحبسها على ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي ، فركبتها ، فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها ، فقمت ، فأهلويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأذلام ، فاستقسمت بها ، أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأذلام ، تقرب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات - ساخت يدا فرسي في الأرض ، حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكن تخرج يديها ، فلما استوت قائمًا إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأذلام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوققاوا ، فركبت فرسي حتى جثتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، قلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريده الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزاكي ، ولم يسألاني

(١) صحيح البخاري ٥١٠/١ .

(٢) روی ذلك البخاري عن أنس ١/٥٥٦ .

إلا أن قال : أخف عننا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب لي في رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .^(١)

وفي رواية عن أبي بكر قال : ارتحلنا ، والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جعشن على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ، فقال : **لَا تَخْرُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَّا**^(٢) .

ورجح سراقة ، فوجد الناس في الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيت ما هنا . وكان أول النهار جاهداً عليهم ، وآخره حارساً لهم^(٣) .

(٤) ومر في مسيره ذلك حتى مر بخيتني أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة بربة جلدة تحببى بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتسقي من مر بها ، فسألها : هل عندها شيء؟ فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعزكم القرى والشاء عازب ، وكانت سنة شباء .

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن؟ قالت : هي أجهد من ذلك . فقال : أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت : نعم بأبي وأمي ، إن رأيت بها حلباً فالحلبها . فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، ففاجت عليه ودرت ، فدعى بإياء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علت الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رروا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانية ، حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتخلوا .

فمالبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزناً عجافاً يتساوكن هزاً ، فلما رأى اللbin عجب ، فقال : من أين لك هذا؟ والشاء عازب ، ولا حلوبة في البيت؟ فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حدثه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا ، قال : إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه ، صفيه لي يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الرائعة بكلام رائع كان السامع ينظر إليه وهو أمامه – وستنقله في بيان صفاته ﷺ في أواخر المقالة – فقال أبو معبد :

(١) نفس المصدر ٥٥٤/١ – وكان مقربني مدج بالقرب من رابع ، وتبعهما سراقة حينما كانوا مصعدين من قديد – زاد المعاد ٥٣/٢ – فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما .

(٢) صحيح البخاري ٥١٦/١ .

(٣) زاد المعاد ٥٣/٢ .

والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد همت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعونه ولا يرون القائل :

رفيقين حلا خيمتي أم معب
وأفلح من أمسى رفيق محمد
به من فعال لا يُجَازِي وسُودَ
ومقعدها للمؤمنين بمرصد
فإنكم إن تسأّلوا الشاة تشهد

جزى الله رب العرش خير جزائه
هذا نزلا بالير وارتحلا به
فيما لقصي ما زوى الله عنكم
لهم بني كعب مكان قتاتهم
سلوا أختكم عن شاتها وإناثها

قالت أسماء : ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الآيات ، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونـه ، حتى خرج من أعلىـها .

قالـت : فلما سمعنا قوله عرفـنا حيث توجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهـه إلى المدينة^(١) .

(٥) وفي الطريق لقي النبي ﷺ أبا بريدة، وكان رئيس قومه، خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر؛ رجاء أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التي كانت قد أعلنت عنها قريش، ولما واجه رسول الله ﷺ وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلاً من قومه، ثم نزع عمامته، وعقدها برمحه، فاتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن والسلام قد جاء ليحلاً الدنيا عدلاً وقسطاً^(١).

(٦) وفي الطريق لقي رسول الله ﷺ الزبير ، وهو في ركب المسلمين ، كانوا تجأراً فافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً يضناء^(٣).

النَّزُولُ بِقِيَاعٍ:

وفي يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م نزل رسول الله ﷺ بقباء^(٤) .

٥٤، ٥٣/٢ زاد المعاد (١)

٢) رحمة للعالمين ١/١

(٣) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ٥٥٤ / ١.

(٤) رحمة للعاملين ١٠٢/١ - وفي هذا اليوم تم عمره ~~ستة~~^{ثلاثة} وخمسين عاماً كاملاً لا وكس ولا شطط ، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاماً كاملاً عند من يقول : إنه أكرم بالنبوة في ٩ ربيع الأول في سنة ٤١ من عام الفيل ، وأما =

قال عروة بن الزبير : سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أتوا إلى بيتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح^(١) .

قال ابن القيم : وسمعت الرَّجُةُ والتَّكْبِيرُ في بني عمرو بن عوف ، وكثير المسلمين فرحاً بقدومه ، وخرجوا للقاءه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحى ينزل عليه : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَنْلُحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٦٦: ٤) ^(٢) .

قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات البين ، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول . فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار من لم ير رسول الله ﷺ يحيى - وفي نسخة : يحيى - أبو بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه برداه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ^(٣) .

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال ، وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها ، وقد رأى اليهود صدق بشارة حقوق النبي : إن الله جاء من التهان ، والقدوس من جبال فاران ^(٤) .

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم ، وقيل : بل على سعد بن خيثمة ، والأول أثبت ، ومكث علي بن أبي طالب بمكة ثلاثة ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الوداع التي كانت

من يقول : إنه أكرم بالنبوة في رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته - في ذلك اليوم - اثنى عشر عاماً وخمسة أشهر و١٨ يوماً أو ٢٢ يوماً .

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٥ .

(٢) زاد المعاد ٢/٥٤ .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٥٥ .

(٤) صحيفة حقوق (٣: ٣) .

عنه للناس ، ثم هاجر ماشياً على قدميه ، حتى لحقهما بقباء ، ونزل على كلثوم بن الهدم^(١) . وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام : الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس^(٢) . وأسس مسجد قباء وصلّى فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له ، وأبو بكر رده ، وأرسل إلىبني النجار - أخواه - فجاؤوا متقلدين سيفهم ، فسار نحو المدينة ، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف ، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي ، وكانوا مائة رجل^(٣) .

الدخول في المدينة:

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يترقب بمدينة الرسول ﷺ ، ويعبّر عنها بالمدينة مختصرًا - وكان يوماً تاريخياً أغبر ، فقد كانت البيوت والشوارع ترتج بأصوات التحميد والتقدیس ، وكانت بنات الأنصار تعانق بهذه الآيات فرحاً وسروراً^(٤) :

أشرق البدر علينا	من ثنيات الوداع
ووجب الشكر علينا	مادعا الله داع
أهيا المبعوث فيما	جئت بالأمر المطاع

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة ؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن يتزلّف الرسول ﷺ عليه . فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذنوا خطام راحلته : هلم إلى العدد

(١) زاد المعاد ٤٩٣/٥٤ . ابن هشام ١/٤٩٣ . رحمة للعالمين ١/١٠٢ .

(٢) هذا ما رواه ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١/٤٩٤ وهو الذي اختاره العلامة المنصور فوري انظر رحمة للعالمين ١/١٠٢ ، وفي صحيح البخاري أنه أقام بقباء أربعاً وعشرين ليلة (٦١/١) وبضع عشرة ليلة (٥٥٥/١) وأربع عشرة ليلة (٥٦٠/١) وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن القيم ، وقد صرّح هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الإثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٤٩٤/٥٥ ، ٥٥) ومعلوم أن فضل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومي الدخول والخروج ، ومعهما لا يزيد على اثنين عشر يوماً إذا كانا من أسبوعين .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢/٥٥ ، ابن هشام ١/٤٩٤ رحمة للعالمين ١/١٠٢ .

(٤) ذكر ابن القيم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك ، ووهم من يقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣/١٠) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهم بدليل يشفى ، وقد رجع العلامة المنصور فوري أن ذلك كان عند مقدمة المدينة ، ومعه دلائل لا يمكن ردّها انظر رحمة للعالمين ١/١٠٦ .

والعدة والسلاح والمنعة ، فكان يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم التفت ورجعت فبركت في موضعها الأول ، فنزل عنها ، وذلك في بني التجار - أخواه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ . وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواه يكرهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ في التزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ يقول : المرء مع رحله ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته ، وكانت عنده ^(١) .

وفي رواية أنس عند البخاري ، قال النبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ : أي بيت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله ، هذه داري ، وهذا بابي . قال : فانطلق فهيء لنا مقيلا ، قال : قوما على بركة الله ^(٢) .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة ، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وأسامه بن زيد ، وأم أمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبي العاص ، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر ^(٣) .

قالت عائشة : لما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبت كيف تحدك ، ويا بلال كيف تحدك ، قال : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله	والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلال إذا أقلى عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :	
ألا ليت شعري هل أبین ليلة	
بساد وحولي إذخر وجليل	
وهل يئدون لي شامة وطفيل	

(١) رحمة للعلميين ١٠٦/١ ، زاد المعاد ٥٥/٢ .

(٢) صحيح البخاري ١٥٥٦/١ .

(٣) زاد المعاد ٥٥/٢ .

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ ، فأخبرته ، فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حباً ، وصححها ، وبارك في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة^(١) .

إلى هنا انتهى قسم من حياته ﷺ ، وتم دور من الدعوة الإسلامية ، وهو الدور المكي .

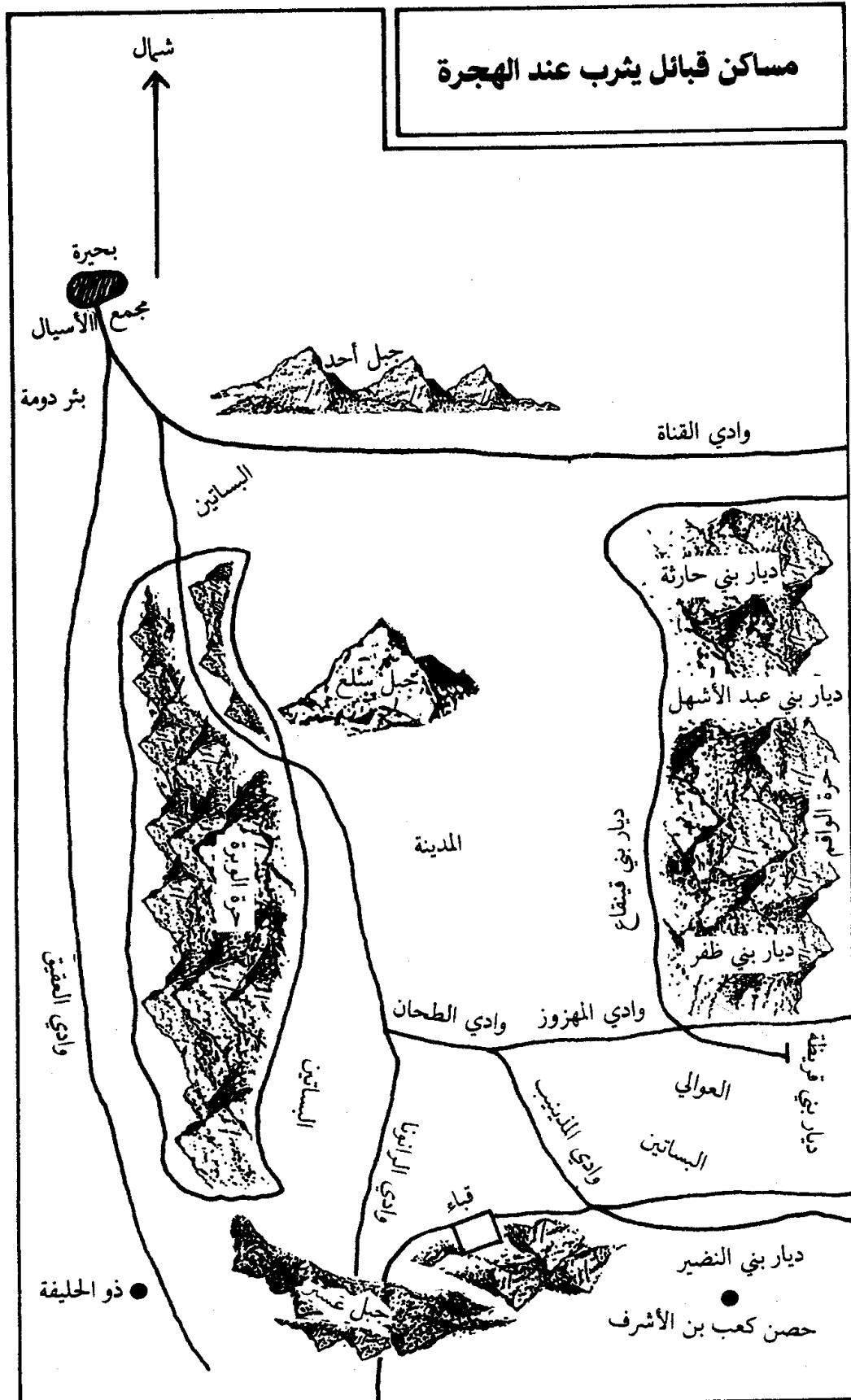
(١) صحيح البخاري ١/٥٨٨، ٥٨٩.

الحياة في المدينة

يمكن تقسيم العهد المدني إلى ثلاث مراحل :

- ١ - مرحلة أثيرت فيها القلاقل والفتن ، وأقيمت فيها العراقيل من الداخل ، وزحف فيها الأعداء إلى المدينة لاستئصال خضرائها من الخارج . وهذه المرحلة تنتهي إلى صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ من الهجرة .
- ٢ - مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية ، وتنتهي بفتح مكة ، في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وهي مرحلة دعوة الملك إلى الإسلام .
- ٣ - مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وهي مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى المدينة ، وهذه المرحلة تنتهي إلى انتهاء حياة الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة .

مساكن قبائل يشرب عند الهجرة



المرحلة الأولى الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن . ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحسينه ورفعه شأنه .

ولا شك أن رسول الله ﷺ هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع .

والأقوام التي كان يواجهها رسول الله ﷺ في المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منهم مسائل عديدة غير المسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى الأخرى . وهذه الأصناف الثلاثة هي :

- ١ - أصحابه الصفة الكرام البررة رضي الله عنهم .
- ٢ - المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .
- ٣ - اليهود .

أ - والمسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة وإن كانت تجتمعهم كلمة جامعة ، وكانوا يستهدفون إلى أهداف متفقة ، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، لم يكن لهم من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر يهد أعدائهم في الدين ، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً بمواده التي

لا يستغني عنها أي مجتمع إنساني في العالم ، ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية ، وعلى التشريعات التي يمكن العمل بها لكل فرد وحده ، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق ، والاجتناب عن الرذائل والدنيا .

أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس ، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة وال عمران ، وبمسائل المعيشة والاقتصاد ، وبمسائل السياسة والحكومة ، وبمسائل السلم وال الحرب ، والتنقیح الكامل في مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة .

كان قد آن لهم أن يكونوا مجتمعًا جديداً ، مجتمعًا إسلاميًّا ، مختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، ويتميز عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني ، ويكون مثالاً للدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال وال العذاب طيلة عشر سنوات .

ولا يخفى أن تكون أي مجتمع على هذا النط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد ، أو شهر واحد ، أو سنة واحدة ، بل لا بد له من زمن طويل ، يتكمel فيه التشريع والتلقين مع التثقيف والتدريب والتربيـة تدريجياً ، وكان الله كفياً بهذا التشريع ، وكان رسول الله ﷺ قائماً بتنفيذـه ، والإرشاد إليه ، و التربية المسلمين وفقـه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِ مِنْهُمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ : (٦٢: ٢) .

وكان الصحابة رضي الله عنـهم مقبلين عليه بقلوبـهم ، يتحلون بأحكامـه ويستبشرـون بها ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ إِيمَانُهُ زَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ (٨: ٢) وليس تفصـيل هذه المسـائل كلـها من مباحث موضوعـنا فنقتصر منها على قدر الحاجـة .

كان هذا أعظم ما يواجهـه رسول الله ﷺ بالنسبة إلى المسلمين ، وهذا الذي كان هو المقصود - على نطاق واسع - من الدعـوة الإسلامية ، والرسـالة الحمدـية ، ولكن لم يكن هذا قضـية طارـئة . نعم كانت هناك مـسائل - دون ذلك - كانت تقتضـي الاستـعجال .

كانت جـماعة المسلمين مشتمـلة على قـسمـين : قـسمـ هـم في أـرضـهم وـديـارـهم وأـموـاـهم ، لا يـهـمـهمـ من ذلك إلا ما يـهـمـ الرجلـ وهو آمنـ في سـرـبهـ ، وـهـمـ الأـنـصـارـ ، وـكـانـ يـهـمـهمـ تـنـافـرـ مستـحـكمـ وعدـاءـ مـزـمنـ منذـ أمـدـ بـعـيدـ . وـكـانـ بـجـانـبـ هـؤـلـاءـ قـسمـ آخرـ - وـهـمـ الـمـهـاجـرـونـ - فـاتـهمـ

كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ، ليس لهم ملحاً يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لعيشتهم ، ولا مال يبلغون به قواماً من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، وكانوا يزيدون يوماً في يوماً ، فقد كان أذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله . ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، فتززع ميزانها الاقتصادي ، وفي هذه الساعة الخرجت قاتل القوات العادمة للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلت لأجلها المستوردات ، وتفاقمت الظروف .

ب - أما القوم الثاني - وهم المشركون من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتربّد في ترك دين الآباء ، ولكن لم يكن ييطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم للله .

وكان فيهم من ييطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين ، ولكن لم يكن يستطيع أن ينأيهما ، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء نظراً إلى الظروف ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بعاث ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله . وكانوا قد نظموا له الخرز ، ليتوجهوه ويلكونوه ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة إذ باعثت بجيء رسول الله ﷺ ، وانصراف قومه عنه إليه ، فكان يرى أنه استبله ملكاً ، فكان ييطن شديد العداوة ضده - ولما رأى الظروف لا تساعده على شركه ، وأنه يحرم الفوائد الدنيوية أظهر الإسلام بعد بدر ، ولكن بقي مستبطناً الكفر ، وكان لا يجد مجالاً للمكيدة برسول الله ﷺ وبال المسلمين إلا ويأتي بها - وكان أصحابه - من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة في ملكه - يساهمونه ويدعمونه في تنفيذ خططه ، وربما كانوا يتخدون بعض الأحداث ، وضعاف العقول من المسلمين عملاً لهم ؛ لتنفيذ خططهم .

ج - أما القوم الثالث - وهم اليهود - فقد كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري والروماني كما أسلفنا ، وكانوا في الحقيقة عربانين ، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز صبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم أو أفرادهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم تحفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا في العرب قطعاً ، بل كانوا يفتخرن بجنسبيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرن العرب احتقاراً بالغاً حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش سذج ، وأراذل متأخرن ،

وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاءوا ، ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْمَانَ سَكِيلٌ﴾ (٢٥:٣) ولم يكن لهم تحمس في نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية .

وكانوا مهرة في فنون الكسب والمعيشة ، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، كانوا يوردون الشيب والحبوب والخمر ، ويصدرون التمر ، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافاً مضاعفة ، ثم لم يكونوا يقتصرن على ذلك ، بل كانوا أكالين للربا ، كانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم ، ليكتسب هؤلاء الرؤساء مدائح من الشعراء ، وسمعة بين الناس بعد إتفاقها من غير جدوى ولا طائلة ، ثم كانوا يرتهنون أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحنة بين القبائل العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل ، فلا تزال في حروب دائمة متواصلة ، ولا تزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء ، وبعد هذا التحرير والإغراء كانوا يقدعون على جانب ، يرون ساكين ما يحل بهؤلاء العرب ، نعم كانوا يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقه ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين ، كانوا يتحفظون على كيانهم اليهودي ، وينفقون سوق الربا ؛ ليأكلوه أضعافاً مضاعفة ، ويكسبوا ثروات طائلة

وكان في يثرب منهم ثلاثة قبائل مشهورة :

(١) بنو قينقاع ، كانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة .

(٢) بنو النضير .

(٣) بنو قريظة ، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهما بضواحي المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وقد ساهمت بأنفسها في حرب بعاث ، كل مع حلفائها .

وطبعاً فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البعض والحدق ،

فالرسول لم يكن من جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التي كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم ، ثم دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفيء نار العداوة والبغضاء ، وتدعى إلى التزام الأمانة في الشؤون ، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال ، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتألف فيما بينها ، وحيثند لابد من أن تفلت من براثن اليهود ، فيفشل نشاطهم التجاري ، ويحرموا أموال الربا الذي كانت تدور عليه رحى ثروتهم ، بل ربما يتحمل أن تيقظ تلك القبائل ، فتدخل في حسابها الأموال الربوية التي أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التي أضاعتتها إلى اليهود في تأدية الربا .

كان اليهود يدخلون كل ذلك في حسابهم منذ عرفا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يثرب ، ولذلك كانوا يطنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجرسوا على إظهارها إلا بعد حين .

ويظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صافية رضي الله عنها . قال ابن إسحاق : حدثت عن صافية بنت حبي بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد هما إلا أخذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي ؛ حبي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كاليين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع : فوالله ما التفت إلى واحد منها ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمي أبو ياسر ، وهو يقول لأبي ، حبي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتبته ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت^(١) .

ويشهد بذلك أيضاً ما رواه البخاري في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، فقد كان حيراً من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بقدوم رسول الله ﷺ المدينة في بني النجار جاءه مستعجلأً ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمه إلا النبي ، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بہت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ،

(١) ابن هشام ٥١٨ / ١ .

فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت ، فقال رسول الله ﷺ : أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا (وفي لفظ :) سيدنا وابن سيدنا ، (وفي لفظ آخر :) خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك (مرتين أو ثلاثة) ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه . (وفي لفظ) فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت^(١) .

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود ، في أول يوم دخل فيه المدينة .

هذا كله من حيث الداخلية ، وأما من حيث الخارجية ؛ فإن ألد قوة ضد الإسلام هي قريش ، كانت قد جربت منذ عشرة أعوام – حينما كان المسلمون تحت يديها – كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة ، وأذاقتهم التكيلات والويلات ، وشنت عليهم حرباً نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة ، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم ، بل حبسه وعذبت من قدرت عليه ، ثم لم تقتصر على هذا ، بل تآمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ والقضاء عليه ، وعلى دعوته ، ولم تأل جهداً في تنفيذ هذه المؤامرة . وبعد هذا كله – لما نجا المسلمون إلى أرض تبعد عنها خمسائة كيلو متراً – قامت بدورها السياسي لما لها من الصدارية الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب ، بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسنته ، فأغرت غيرها من مشركي الجزيرة ضد أهل المدينة ، حتى صارت المدينة في شبه مقاطعة شديدة ، قلت مستورداتها ، في حين كان عدد اللاجئين يزيد يوماً فيوماً . إن « حالة الحرب » قائمة يقيناً بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفة تحمل المسلمين أوزار هذا الخصم^(٢) .

كان حقاً للMuslimين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة ، كما صودرت أموالهم ، وأن يدالوا عليهم من التكيلات بمثل ما أدالوا بها ، وأن يقيموا في سبيل حياتهم العاقيل كما أقاموها في سبيل

(١) انظر صحيح البخاري ٤٥٩/١ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ .

(٢) الكلمة الأخيرة لمحمد الغزالى في فقه السيرة ص ١٦٢ .

حياة المسلمين ، وأن يكال لهؤلاء الطغاة صاعاً بصاع ، حتى لا يجدوا سبيلاً لإبادة المسلمين ، واستئصال خضرائهم .

هذه هي القضايا والمشاكل التي كان يواجهها رسول الله ﷺ حين ورد المدينة بصفته رسولاً هادياً وإماماً قائداً .

وقد قام رسول الله ﷺ بدور الرسالة والقيادة في المدينة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال – ولا شك أن الرحمة كانت غالبة على الشدة والعنف – حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بضع سنوات ، وسيجد القارئ كل ذلك جلياً في الصفحات الآتية :

بناء مجتمع جديد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة في بني النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) ، وأنه نزل في أرض أمام دار أبي أيوب ، وقال : هنا المنزل إن شاء الله ، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب .

بناء المسجد النبوي :

وأول خطوة خطتها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوي . ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر بناء هذا المسجد ، واشتراه من غلامين يتيمين كانوا يملكانه ، وساهم في بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والهاجرة
وكان يقول :

هذا الحمال لا حمال خير هذا أبسر ربنا وأطهر
وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في البناء حتى إن أحدهم ليقول :
لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضل
و كانت في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد ، فأمر
رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل والشجرة ققطعت ،
وصفت في قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضاداته من حجارة ،
وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده الجنديع ، وفرشت
أرضه من الرمال والخصبة ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ،
والحانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع .

وبني بيوتاً إلى جانبه ، بيت الحجر باللين ، وسقفها بالحجري والجذوع ، وهي حجرات أزواجه عليهم السلام ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب ^(١) .

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمين تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تلتقي وتتالّف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها التزعّعات الجاهلية وحرّوها ، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات ، وبرلماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

وفي أوائل الهجرة شرع الأذان ، النغمة العلمية التي تدوّي في الآفاق ، كل يوم خمس مرات ، والتي ترتعج لها أنحاء عالم الوجود . وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بن ربه بهذا الصدد معروفة رواها الترمذى وأبو داود وأحمد وابن خزيمة ^(٢) .

المؤاخاة بين المسلمين:

وكما قام النبي عليه السلام (بناء المسجد) مركز التجمع والتالّف ؛ قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . قال ابن القيم : ثم آخى رسول الله عليه السلام بين المهاجرين والأنصار ، في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعاً سبعين رجلاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام ، إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِعَيْنِ﴾ (٨ : ٧٥) رد التوارث ، دون عقد الأخوة .

وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ... والثابت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ^(٣) أهـ .

(١) صحيح البخاري ١/٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢/٥٦ .

(٢) انظر بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني ص ١٥ .

(٣) زاد المعاد ٢/٥٦ .

ومعنى هذا الإخاء - كما قال محمد الغزالي - أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخّر إلا ببروعته وتقواه . وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، عملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تترثّر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمزج في هذه الأخوة ، وتملاً المجتمع الجديد بأروع الأمثال^(١) .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن أبي سعيد ، فقال عبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين ، ولـي امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك في أهلك وممالك ، وأين سوقكم ؟ فدلـوه على سوقبني قينقاع ، فـما انقلـب إلا ومعه فضل من أقطع وسـن ، ثم تابـع الغدو ، ثم جاء يوماً وبـه أثـر صـفـرة ، فقال النبي ﷺ : مـهـم ؟ قال : تـزـوجـتـ . قال : كـم سـقـتـ إـلـيـهاـ ؟ قال : نـوـاـةـ مـنـ ذـهـبـ^(٢) .

وروى عن أبي هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : فـنكـفـونـاـ الـمـؤـنـةـ ، وـنـشـرـكـكـمـ فـيـ الثـرـةـ . قالـواـ : سـمـعـنـاـ وـأـطـعـنـاـ^(٣) .

وهذا يدلـناـ عـلـىـ ماـ كـانـ عـلـيـهـ الأـنـصـارـ مـنـ الـحـفاـوةـ الـبـالـغـةـ بـإـخـوـاـهـ الـمـهـاجـرـينـ ، وـمـنـ التـضـحـيـةـ وـإـلـيـاثـ الـوـدـ وـالـصـفـاءـ ، وـمـاـ كـانـ عـلـيـهـ الـمـهـاجـرـونـ مـنـ تـقـدـيرـ هـذـاـ الـكـرـمـ حـقـ قـدـرـهـ ، فـلـمـ يـسـتـغـلـوـهـ وـلـمـ يـنـالـوـ مـنـهـ إـلـاـ بـقـدـرـ مـاـ يـقـيمـ أـوـدـهـ .

وـحـقـاـ قـدـ كـانـ هـذـهـ الـمـؤـاخـاهـ قـذـةـ ، وـسـيـاسـةـ صـائـبـةـ حـكـيـمـةـ ، وـحـلـاـ رـائـعاـ لـكـثـيرـ مـنـ الـمـشـاـكـلـ الـتـيـ كـانـ يـوـاجـهـهـ الـمـسـلـمـونـ ، وـالـتـيـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهاـ .

ميثاق التحالف الإسلامي:

وـكـاـ قـامـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ بـعـقـدـ الـمـؤـاخـاهـ بـيـنـ الـمـؤـمـنـينـ ، قـامـ بـعـقـدـ مـعـاهـدـةـ أـزاـجـ بـهاـ كـلـ مـاـ كـانـ

(١) فـقـهـ السـيـرـةـ صـ ١٤٠ ، ١٤١ـ .

(٢) صحيح البخاري . بـابـ إـخـاءـ النـبـيـ ﷺ بـيـنـ الـمـهـاجـرـينـ وـالـأـنـصـارـ . ٥٥٣/١ـ .

(٣) صحيح البخاري - بـابـ إـذـاـ قـالـ : أـكـفـنـيـ مـؤـنـةـ النـخـلـ إـلـيـخـ . ٣١٢/١ـ .

من حزارات الجاهلية ، والنزعات القبلية ، ولم يترك مجالاً لتقاليد الجاهلية ، وهاك بنودها ملخصاً :

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومنتبعهم فلحق بهم ، وجاحد معهم :

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

(٢) المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغي منهم ، أو ابتغى دسيعة^(١) ظلم أو إثم أو عداو أو فساد بين المؤمنين .

(٥) وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

(٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

(٧) ولا ينصر كافراً على مؤمن .

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

(٩) وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

(١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسامي مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

(١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

(١٢) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(١٣) وأنه من اعتبط مؤمناً^(٢) قتلاً عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضي ولي المقتول .

(١) الدسع : الدفع كالدسر . والمعنى أي طلب دفع ظلم . لسان العرب بتصرف .

(٢) اعتبط مؤمناً قتلاً : قتله بلا جنابة كانت منه ولا جريرة توجب قتله . لسان العرب .

(٤) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحمل لهم إلا قيام عليه

(٥) وأنه لا يحمل المؤمن أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وانه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله
وغضبه يوم القيمة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

(٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردك إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ^(١) .

أثر المعنويات في المجتمع:

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ، ولكن كانت هذه الظاهرة أثراً للمعنى التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربيـة وتـركـيـة النـفـوس والـحـثـ على مـكارـمـ الـاخـلـاقـ ، وـيـؤـدـبـهمـ بـآـدـابـ الـودـ وـالـإـخـاءـ وـالـمـجـدـ وـالـشـرـفـ وـالـعـبـادـةـ وـالـطـاعـةـ .

سـأـلـ رـجـلـ : أـيـ إـسـلـامـ خـيـرـ ؟ قـالـ : تـطـعـمـ الطـعـامـ ، وـتـقـرـأـ السـلـامـ عـلـىـ مـنـ عـرـفـ وـمـ

لمـ تـعـرـفـ^(٢) .

قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبي ﷺ المدينة جئت ، فلما تبيـنـتـ وجهـهـ ، عـرـفـ أـنـ وجهـهـ ليسـ بـوجهـ كـذـابـ ، فـكـانـ أـوـلـ ماـ قـالـ : يـاـ أـيـهـ النـاسـ أـفـشـواـ السـلـامـ ، وـأـطـعـمـواـ الطـعـامـ ، وـصـلـوـاـ الـأـرـاحـ ، وـصـلـوـاـ بـالـلـيلـ وـالـنـاسـ نـيـامـ ، تـدـخـلـواـ الـجـنـةـ بـسـلـامـ^(٣) .

وـكـانـ يـقـولـ : لـاـ يـدـخـلـ الـجـنـةـ مـنـ لـاـ يـأـمـنـ جـارـهـ بـوـاقـعـهـ^(٤) .

وـيـقـولـ : الـمـسـلـمـ مـنـ سـلـمـ الـمـسـلـمـونـ مـنـ لـسـانـهـ وـيـدـهـ^(٥) .

وـيـقـولـ : لـاـ يـؤـمـنـ أـحـدـكـ حـتـىـ يـحـبـ لـأـخـيـهـ مـاـ يـحـبـ لـنـفـسـهـ^(٦) .

(١) ابن هشام ١/٥٠٢، ٥٠٣ .

(٢) صحيح البخاري ٩، ٦/١ .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى . مشكاة المصايـعـ ١/١٦٨ .

(٤) رواه مسلم ، مشكاة المصايـعـ ٢/٤٢٢ .

(٥-٦) صحيح البخاري ٦/١ .

ويقول : المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكتي عينه اشتكتي كله ، وإن اشتكتي رأسه اشتكتي كله^(١) .

ويقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض^(٢) .

ويقول : لا تبغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تداروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخيه فوق ثلاثة أيام^(٣) .

ويقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيمة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيمة^(٤) .

ويقول : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء^(٥) .

ويقول : ليس المؤمن بالذى يشع وجاره جائع إلى جانبه^(٦) .

ويقول : سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر^(٧) .

وكان يجعل : إماتة الأذى عن الطريق صدقة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمان^(٨) .

وكان يحثهم على الإنفاق ، ويدرك من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب ، فكان يقول : الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار^(٩) .

ويقول : أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري ، كساه الله من خضر الجنة ، وأيما مسلم

(١) رواه مسلم ، مشكاة المصايبع ٤٢٢/٢ .

(٢) متفق عليه ، مشكاة المصايبع ٤٢٢/٢ ، صحيح البخاري ٨٩٠/٢ .

(٣) صحيح البخاري ٨٩٦/٢ .

(٤) متفق عليه مشكاة المصايبع ٤٢٢/٢ .

(٥) سنن أبي داود ٢٢٥/٢ ، جامع الترمذى ١٤/٢ .

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، مشكاة المصايبع ٤٢٤/٢ .

(٧) صحيح البخاري ٨٩٣/٢ .

(٨) والحديث في ذلك مروي في الصحيحين ، انظر مشكاة المصايبع ١٢/١ ، ١٦٧ .

(٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ، مشكاة المصايبع ١٤/١ .

أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأئمأ مسلم سقى مسلماً على ظمآن سقاهم الله من الرحيم الختوم^(١) .

ويقول : إنقاوا النار ولو بشق ترفة ، فإن لم تجد في الكلمة طيبة^(٢) .

وبجانب هذا كان يبحث حثاً شديداً على الاستعفاف عن المسألة ، ويدرك فضائل الصبر والقناعة ، كان يعد المسألة كدوباً أو خدوشاً أو خموشاً في وجه السائل^(٣) . اللهم إلا إذا كان مضطراً ، كما كان يحدث لهم بما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله وكان يربطهم باللوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً يقرؤه عليهم ، ويقرؤونه ، لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة ، وتبعت الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر .

وهكذا رفع معنوياتهم ومواههم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل ، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء .

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كان مستيناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحسين لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أقربها قلوباً ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامته دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(٤) .

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة ، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، بما جعلته تهوي إليه الأفادة ، وتتفاني عليه النفوس ، مما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته - رضي الله عنهم - إلى امثالها ، وما يأتي برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلّي به .

بمثل هذا استطاع النبي ﷺ أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً ، أروع وأشرف مجتمع عرفه

(١) سنن أبي داود ، وجامع الترمذى ، مشكاة المصايح ١٦٩/١ .

(٢) صحيح البخارى ١٩٠/١ ، ٨٩٠/٢ .

(٣) انظر في ذلك أبي داود والترمذى والنمسانى وابن ماجه والدارمى ، مشكاة المصايح ١٦٣/١ .

(٤) رواه رزين ، مشكاة المصايح ١/٣٢ .

التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلًا تتنفس له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت تعبت في غياب الزمان ودياجير الظلمات .

ويمثل هذه المعنيات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد ، الذي واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها ، وحول مجرى التاريخ والأيام .

معاهدة مع اليهود

بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والتنظيمية بين المسلمين ، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جماء ، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد ، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي .

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود – كما أسلفنا – وهم وإن كانوا يطعنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، ولم يتوجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التي تمت بين المسلمين أنفسهم ، والتي مر ذكرها قريراً . وهكذا أهم بنود هذه المعاهدة :

بنود المعاهدة:

- (١) إن يهودبني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، كذلك لغيربني عوف من اليهود .
- (٢) وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .
- (٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- (٤) وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

(٥) وإنه لم يأثم امرؤ بخليفة .

(٦) وإن النصر للمظلوم .

(٧) وإن اليهود يتلقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٨) وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة .

(٩) وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .

(١٠) وإنه لا تُجَارُ قريش ولا من نصرها .

(١١) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

(١٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم^(١) .

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقيه ، عاصمتها المدينة ورئيسها – إن صح هذا التعبير – رسول الله ﷺ ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقة للإسلام .

وتوسيع منطقة الأمن والسلام عاصم النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة ، حسب الظروف ، وسيأتي ذكرها .

(١) انظر ابن هشام ١٥٣، ٥٠٤ .

الكافح الداهي

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي :

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين ، وما فعلوا بهم عند الهجرة ، مما استحقوا لأجلها المصادر والقتال ، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيرهم ، ويتنعوا عن عدوائهم ، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقرأً بالمدينة ، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان إذ ذاك مشركاً بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة – فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه ، وكادوا يجعلونه ملكاً على أنفسهم لو لا أن هاجر رسول الله عليه السلام وأمنوا به – كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة :

إنكم آويم صاحبنا ، وإنما نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونسبيح نساءكم^(١) .

وب مجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليتمثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة – وقد كان يعقد على النبي عليه السلام ، لما يراه أنه استبله ملكه – يقول عبد الرحمن بن كعب : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبادة الأواثان اجتمعوا لقناول رسول الله عليه السلام ، فلما بلغ ذلك النبي عليه السلام لقيهم ، فقال : لقد بلغ وعد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي عليه السلام تفرقوا^(٢) .

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن إرادة القتال عند ذاك ؟ لما رأى خوراً أو رشدأً في

(١) أبو داود باب خير النصير .

(٢) نفس المصدر .

أصحابه ، ولكن يبدو أنه كان متواطناً مع قريش ، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والشركين ، وكان يضم معه اليهود ؛ ليعينوه على ذلك ، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حيناً بعد حين^(١) .

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً ، فنزل على أمية بن خلف بمكة ، فقال لأمية : انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف باليت ، فخرج به قريباً من لقف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويت الصباء ، وزعمتم أنكم تتصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لو لا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً ، فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعوني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة^(٢) .

قريش تهدد المهاجرين:

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم : لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فستأكلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم^(٣) .

ولم يكن هذا كله وعيداً مجرداً ، فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً ، أو في حرس من الصحابة ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة ، فقال : ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة ، قالت فيبينا نحن كذلك سمعنا خشخضة سلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟ فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ ، فجئت أحرسه ، فدعاه رسول الله ﷺ ، ثم نام^(٤) .

(١) انظر في هذا الصدد صحيح البخاري ٦٥٥/٢ ، ٦٥٦ ، ٩١٦ ، ٩٢٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ٥٦٣/٢ .

(٣) رحمة للعلميين ١/١١٦ .

(٤) مسلم باب فضل سعد بن أبي وقاص ٢٨٠/٢ واللفظ له ، وصحيح البخاري - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤٠٤/١ .

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي بل كان ذلك أمراً مستمراً ، فقد روى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزل **﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**، فأنخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال : يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل^(١) .

ولم يكن الخطر مقتصرأ على رسول الله ﷺ ، بل على المسلمين كافة ، فقد روى أبي بن كعب ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار رمthem العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه .

الإذن بالقتال:

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، والتي كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال ، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ، ولم يفرضه عليهم قال تعالى : **﴿إِذْنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾** (٢٢ : ٣٩) .

وأنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل ، واقامة شعائر الله ، قال تعالى : **﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَثُوهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكُوَةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** (٤١ : ٢٢) .

والصحيح الذي لا مندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة ، لا بمكة ، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد التزول .

نزل الإذن بالقتال ، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف – التي بعثها الوحيد هو قوة قريش وتمردها – أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام ، واختار رسول الله ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين :

الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد أسلفنا معاهدته – ﷺ – مع

(١) جامع الترمذى أبواب التفسير ٢/١٣٠ .

اليهود ، وكذلك كان عقد معايدة الحلف أو عدم الاعتداء مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري ، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة ، وقد عقد معايدات أثناء دورياته العسكرية وسيأتي ذكرها .

الثانية : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر^(١) :

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ في المسلمين النشاط العسكري فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال ، وقاموا بحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية ، وكان المطلوب منها هو الذي أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرف على الطرق الخبيطة بالمدينة ، والمسالك المؤدية إلى مكة ، وعقد المعايدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق ، وإشعار مشركي يثرب وبهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، وإنذار قريش عقبى طيشها ، حتى تفيق عن غبائها الذي لا تزال تتغول في أعماقه ، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معيشتها فتجنح إلى السلم ، وتتنزع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة ، حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة .

وفى على أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

١ - سرية سيف البحر ، في رمضان سنة ١ هـ . الموافق سنة ٦٢٣ م . أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، يعرض عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثة رجال ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العicus^(٢) . فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدي بن عمرو الجهنمي – وكان حليفاً للفرقيين جميعاً – بين هؤلاء وهؤلاء ، حتى حجز بينهم ، فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبىض ، وكان حامله أباً مرثد كناز بن حصين الغنوبي .

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية .

(٢) العicus – بالكسر – مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .

٢ - سرية رابع ، في شوال سنة ١ من الهجرة - أبريل سنة ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبي سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابع ، وقد ترماه الفريقان بالليل ، ولم يقع قتال .

وفي هذه السرية انضم رجالان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهرياني ، وعتبة بن غزوان المازني ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أيضاً ، وحامله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف .

٣ - سرية الحرّار^(١) ، في ذي القعدة سنة ١ هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣ م ، بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكباً ، يعترون عيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز الحرّار ، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الحرّار صبيحة خمس ، فوجدوا العيرا قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضي الله عنه أيضاً ، وحمله المقداد بن عمرو .

٤ - غزوة الأباء أو ودان^(٢) - في صفر سنة ٢ هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ بنفسه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة ، في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة ، يعترون عيراً لقريش حتى بلغ ودان ، فلم يلق كيداً .

وفي هذا الغزو عقد معاهدة حلف مع عمرو بن خثيم الضمري ، وكان سيد بني ضمرة في زمانه ، وهكذا نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ما بل بحر صوفة ، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه^(٣) .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أيضاً ، وحامله حمزة بن عبد المطلب .

(١) الحرّار - بالفتح فالتشديد - بالقرب من الجحفة .

(٢) ودان - بالفتح فالتشديد - موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابع مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً ، والأباء موضع بالقرب من ودان .

(٣) انظر المواهب اللدنية ٧٥/١ وشرحه للزرقاني .

٥ - غزوة بواط ، في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في مائين من أصحابه ، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسة بعير ، بلغ بواطاً من ناحية رضوى^(١) ولم يلق كيداً .

واستختلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

٦ - غزوة سفوان ، في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م أغارت كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة ، ونهب بعض المواشي ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزًا وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوه بدر الأولى .

واستختلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله علي بن أبي طالب .

٧ - غزوة ذي العشيرة - في جمادي الأولى ، وجمادي الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال : في مائين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثة بعيراً يعتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، بلغ ذا العشيرة^(٢) ، فوجد العير قد فاتته أيام ، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوته بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادي الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادي الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعين شهر هذه الغزوة .

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة .

(١) بواط (بالضم) ورضوى ، جبلان فرعان أصلهما من جبال جهينة : مما يلي طريق الشام ، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد .

(٢) العشيرة - مصغراً ، ويقال : العشيراء بالمد ، وقيل : العشيره بالمهملة - موضع بناحية ينبع .

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٨ - سرية نخلة - في رجب سنة ٢٤ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأنصاري إلى نخلة في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين ، كل اثنين يعتقان على بغير .

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ، ثمقرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها غير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم » فقال : سمعاً وطاعة ، وأخير أصحابه بذلك ، وأنه لا يستكرهم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانوا يعتقانه ، فتخلقا في طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمررت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وبخاراً ، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولىبني المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسرعوا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالعيير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان في الإسلام ، وأول قتيل في الإسلام ، وأول أسيرين في الإسلام .

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العيير والأسيرين .

ووجد المشركون فيها حدة فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثير في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقوال ، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتَلَ فِيهِ قَاتَلٌ فِيهِ كَبُرٌ وَصَدَّعَنْ سَبِيلَ اللَّهِ وَكَفَرُوا وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (٢١٧:٢).

فقد صرخ هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الرية في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام ، واضطهاد أهلها ، ألم يكن المسلمين مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذي أعاد هذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معروه وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذت ينشرها المشركون دعاية تبني على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسرى ، وأدى دية المقتول إلى أوليائه^(١) .

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر ، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال ، إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري ، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتواه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين ، وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي ، ووقعوا فيها كانوا يخشون الوقع فيه ، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والترصد ، ترقب كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثة ميل تقريباً ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجاراتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم وياخذوا طريق الصلاح والمودعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقداً وغيظاً ، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل ، من إبادة المسلمين في عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش ، في شهر شعبان سنة ٢ هـ ، وأنزل في ذلك آيات يبيّنات **﴿وَقَتْلُوا فِي سَيِّلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**^(١) **﴿وَاقْتُلُوهُمْ حِينَ تَفْقِمُوهُمْ وَآخِرُ جُوْهُمْ مِّنْ حَيَّثُ**

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٨٣/٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وابن هشام ١/٦١ إلى ٦٠٥ ، ورحمة للعالمين ١/١١٥ ، ١١٦ ، ١١٥/٢ ، ٢١٥/٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا ، وفي تعين عدد الخارجين فيها - واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة المنصورفوري .

آخر جوهم والفتنة أشد من القتل ولا يقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكفرين ﴿١١﴾ فَإِنْ أَنْهَاوُا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَقَاتَلُوكُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فِي إِنَّ أَنْهَاوُا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ (١٩٢ : ١٩٠ : ٢) .

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر ، يعلمهم فيها طريقة القتال ، وبختهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه ﴿فِإِذَا قَيْمِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرَبَ الرَّقَابَ حَتَّى إِذَا اخْتَسْمُوهُ فَشَدُوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنْ أَبْعَدُوا إِمَّا فَدَأَهُ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا نَصْرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِعَصِّ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلَ أَعْمَلَهُمْ ﴿١﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَاهِمْ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَمْنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيَبْتَتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٤﴾ (٤٧ : ٤ ، ٦ ، ٥ ، ٧)﴾ .

ثم ذم الله الذين طفت أقدامهم ترجم وتحفق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿فِإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةً مُّحَكَّمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مَغْشِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية (٤٧ : ٢٠) .

وإيجاب القتال والحضور عليه ، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ، ولو كان هناك قائد يسرر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ ، فكيف بالرب العليم المتعال ، فالظروف كانت تقتضي عراًكاً دامياً بين الحق والباطل ، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيره المشركين وحميتهم ، آلمتهم ، وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر .

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي ، وأن النصر والغلبة فيه لل المسلمين نهائياً ، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث آخر جوهم ، وكيف يعلمهم أحكام الجندي المتغلب في الأساري ، والإثخان في الأرض ، حتى تضع الحرب أوزارها ، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً . ولكن ترك كل ذلك مستوراً ؟ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله .

وفي هذه الأيام - في شعبان ٢٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت

(١) حق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي تحقيقاً مدللاً أن سورة محمد نزلت قبل بدر ، راجع تفهم القرآن . ١١/٥ ، ١٢ .

القدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة .

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد ، لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخلصها يوماً ما .

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجihad في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة .

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيراً لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ، ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلوا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر .

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ، ألف بعير موقة بالأموال ، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً : هذه عيراً قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفككموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة – بدل العير – هذا الاصطدام العنيف في بدر ، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يudo ما ألهوه في السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثة وثلاثين وعشرون رجلاً (٣١٣) ، أو ٣١٤ ، ٣١٧ رجلاً) ، أو ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين ، و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج . ولم

يختلفوا لهذا الخروج احتفالاً بليناً ، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي ، وكان معهم سبعون بعيراً ليعقب الرجال والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله ﷺ وعليٌّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوبي يعقبون بعيراً واحداً .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء رد أبو لبابة بن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري ، وكان هذا اللواء أبيض .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

١ - كتيبة المهاجرين ، وأعطي علمها علي بن أبي طالب .

٢ - كتيبة الأنصار ، وأعطي علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام ، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو – وكانا هما الفارسين الوحدين في الجيش كما أسلفنا – وجعل على الساقية قيس بن أبي صعصعة ، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر:

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير التائب ، فخرج من نقب المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها ، ترك طريق مكة يسار ، وانحرف ذات اليدين على النازية (يريد بدرأ) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع وادياً يقال له رحثان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم مر على المضيق ، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء ، وهناك بعث بسباس بن عمرو الجهنمي وعدوي بن أبي الرغباء الجهنمي إلى بدر يتتجسسان له أخبار العير .

الذير في مكة:

وأما خبر العير فإن أبو سفيان – وهو المسؤول عنها – كان على غاية من الحيطة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من

الركبان ، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأنّ محمداً - ﷺ - قد استنفر أصحابه ليقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمّن بن عمرو الغفاري إلى مكة ، مستصرحاً لقريش بالنفير إلى عيرهم ، ليمنعوه من محمد - ﷺ - وأصحابه ، وخرج ضمّن سريعاً حتى أتى مكة ، فصرخ بيطن الوادي واقفاً على بعيره ، وقد جدع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معاشر قريش ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركواها ، الغوث الغوث .

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفظ الناس سراعاً ، وقالوا : أيظنّ محمد وأصحابه أن تكون كعباً ابن الحضرمي ؟ كلا ، والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين ، إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوسعوا في الخروج ، فلم يختلف من أشرفهم أحد سوى أبي هب ، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يختلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي ، فلم يخرج منهم أحد .

قואم الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبو جهل بن هشام ، وكان القائمون بتمويله تسعة رجال من أشرف قريش ، فكانوا ينحررون يوماً تسعاماً ويواماً عشراماً من الإبل .

مشكلة قبائل بني بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة وال الحرب ، فخافوا أن تضرّ بهم هذه القبائل من الخلف ، فيكونوا بين نارين ، فكاد ذلك يشنّهم ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشن المذجبي - سيد بني كنانة - فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتّيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك:

وحيئذ خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : ﴿بَطَرًا وَرِثَاءُ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ - « بحدهم وحددهم ، يجادون الله ويجادون رسوله » ، ﴿وَغَدَّا عَلَى حَرَدِقَدِرِينَ﴾ ، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لاجتراء هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في تجاه بدر ، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان ، ثم قديد ، ثم المحفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحررزوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .

العير تفلت:

وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي ، ولكنه لم يزل حذراً متيقظاً ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم عيره ، حتى لقي مجدي بن عمرو ، وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنا قد رأيت راكبين قد أتوا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شن لهما ، ثم انطلقا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخيهما ، فأخذ من أبعار بعيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علات يثرب ، فرجع إلى عيره سريعاً ، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً ، تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة .

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبراء وغطرسة قائلاً : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنقيم بها ثلاثة فتنحر الجزور ، ونظم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابونا أبداً .

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة

- وكان حليفاً لهم ورئيساً عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدرًا زهري واحد ، وكانوا حوالي ثلاثة رجال ، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس بن شريق ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظمًا .

وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى

نرجع .

فسار جيش مكة وقادة ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة - وهو يقصد بدرًا - فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر .

حراجة موقف الجيش الإسلامي :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران - خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام ، وأنه لابد من إقدام يبني على الشجاعة والبسالة ، والجرأة ، والحسارة ، فما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيمًا لمكانة قريش العسكرية ، وامتدادًا لسلطانها السياسي ، وإضعافًا لكلمة المسلمين وتهيئًا لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه ، ويجرو على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة .

وبعد هذا كله يكفي هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، ويغزو المسلمين في عقر دارهم . كلا ، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشاري :

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجيء عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه ، وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامي ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ كَمَا أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۚ ۝ يُبَحِّدُ لُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا نَبَيَّنَ كَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝﴾ وأما قادة الجيش ؟ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ،

ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فتحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلنا إنما ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلنا إنما معكم مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام جالدنا معك من دونه حتى تبلغه ». .

قال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية في الجيش ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار ، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ، وأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد ساعة كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا عليَّ أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لواءهم سعد بن معاذ ، فقال :

والله ، لكأنك تريدين يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال : « فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تختلف مما رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوا غداً ، إنما لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك مما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ». .

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم ، وإنني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطينا ما شئت ، وما أخذت منها كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرناه بغير أمرك ، فو الله لمن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لمن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

الجيش الإسلامي يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران ، فسلك على ثانياً يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية ، وترك الحنان بيمين - وهو كثيب عظيم الأصل - ثم نزل قريباً من بدر .

الرسول - ﷺ - يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبينما هما يتجلزان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأله عن الجيشين زيادة في التكتم - ولكن الشيخ قال : لا أخبرك حتى تخبراني من أنت؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذلك؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغني أن مهداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المدينة - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : من أنت؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من ماء ، ثم انصرف عنه ، وبقي الشيخ يتفوه ، ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفي مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد ، ليبحث عن أخبار العدو ، وقام بهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا غلامين يستقيان بجيش مكة ، فألقوا عليهم القبض وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ ، وهو في الصلاة ، فاستخبرهما القوم ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبي سفيان - لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة - فضربوا موجعاً ، حتى اضطر الغلامان أن يقولا : نحن لأبي سفيان ، فتركتهما .

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقكم ضربتكم و إذا كذبتموها ، صدقا والله ، إنهم لقريش .

ثم خاطب الغلامين قائلاً : أخبراني عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهم : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال : كم ينحررون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعأً ويوماً عشرأً ، فقال رسول الله ﷺ : القوم فيها بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهم : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خوبلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف في رجال سبياهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألتكم أفالذ كبدها .

نزول المطر:

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرًا واحدًا ، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية:

ونحرك رسول الله ﷺ بجيشه ، ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاءً أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمزلأً أنزلتكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة ، قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض الناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم - قريش - فنزله ونغرور - أي نغرب - ما وراءه من القلب ، ثم نبئ عليه حوضاً ، فنملاه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى أتي أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عدتها من القلب .

مقر القيادة:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمون مقرًا لقيادته ، استعداداً للطوارئ ، وتقديرًا للهزيمة قبل النصر ، حيث قال : « يا نبى الله ألا نبى لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحبتنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يابنوا الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجالدون معك » .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعاه بخير ، وبني المسلمون عريشًا على تلك مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال ، ويسرق على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعينة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه^(١) ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا موضع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا موضع فلان غدا إن شاء الله^(٢) ، ثم بات رسول الله ﷺ يصل إلى جذع شجرة هنالك ، وبات المسلمون ليتهم هادي الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخلعوا من الراحة قسطهم ، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ الظُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَا يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذَهِّبُ عَنْكُمُ زُجَّرَ

الشَّيَطَانِ وَلَيَرِيظَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثِيتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (٨: ١١) .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه في ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

(١) انظر جامع الترمذى أبواب المهاجدة ، باب ما جاء في الصف والتعبة ٢٠١/١ .

(٢) رواه مسلم عن أنس ، انظر مشكاة المصايح ٥٤٣/٢ .

الجيش المكى في عرصه القتال ووقوع الانشقاق فيه:

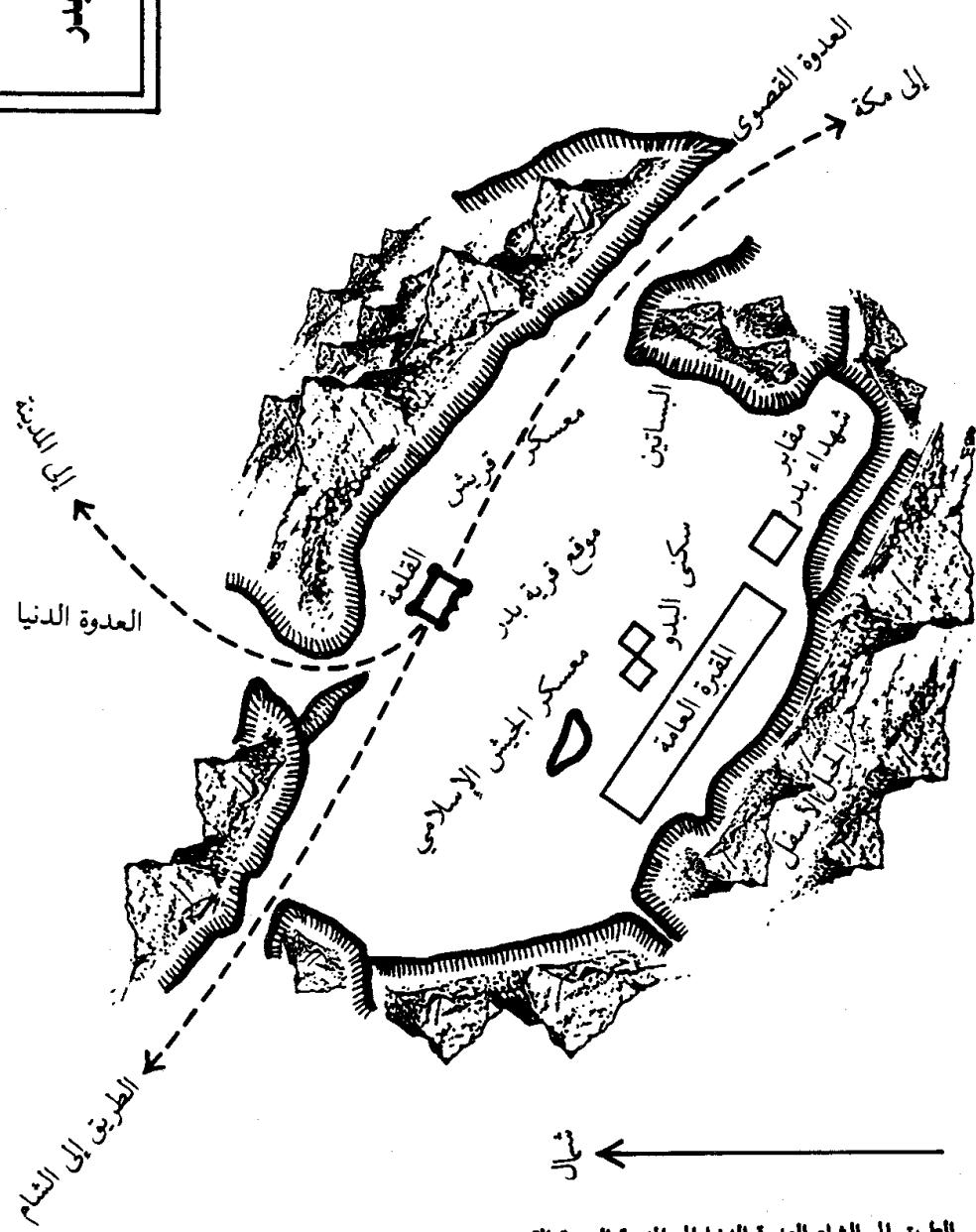
أما قريش ؟ فقضت ليتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى ، ولما أصبحت أقبلت في كنائسها ، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر ، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ ، فقال : دعوهم ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ، وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في العين قال : لا والذى نجاني من يوم بدر ، فلما أطمأنَّت قريش بعث عمر بن وهب الجمحي ؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمر بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثة رجال ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمِنْ أو مدد ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني قد رأيت يا معاشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يترتب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجاً إلا سيفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

ويحيى نبذة معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمم على المعركة - تدعوه إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس ، وأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش ، وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن على بذلك ، إنما هو حليفي فعله ذيته وما أصيّب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأنت ابن الحنظلية - أبا جهل ، والحنظلية أمه - فإني لا أخشي أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معاشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصحابه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاًكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

خريطة غزوة بدر



الطريق إلى الشام العدوة الدنيا إلى المهمة العدوة الفصوري
معسكر قريش القلعة موقع قرية بدر البساتين معسكر الجيش الإسلامي
سكنى البدو مقابر شهداء بدر المقبرة العامة الجبل الأسفل إلى مكة الشمال
خريطة غزوة بدر

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهوي درعاً له - قال يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني بكذا وكذا ، فقال أبو جهل : انتفح والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكن رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر - فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل : « انتفح والله سحره » ، قال عتبة : سيعلم مصفر استه من انتفح سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل خافة أن تقوى هذه المعارضة . فبعث على إثر هذه المخاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخي عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال : هذا حليفك (أبي عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثارك بعينك ، فقم فانشد خفترتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر ، فكشف عن استه ، وصرخ : واعمراء ، واعمراء فحمي القوم ، وحقب أمرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة . وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدو .

الجيشان يتراءان:

ولما طلع المشركون ، وترأى الجمuan قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلاً لها وفخرها ، تحادك وتکذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أخْرِم العدَاة » . وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر - إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وعدل رسول الله ﷺ صنوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان في يده قدر يعدل به ، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح وقال : « استو يا سواد » ، فقال سواد : يا رسول الله أوجعني فأقدني ، فكشف عن بطنه ، وقال : « استقد » ، فاعتنيقه سواد قبل بطنه ، فقال : « ما حملك على هذا يا سواد » ؟ قال : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدك جلدك . فدعاه له رسول الله ﷺ بخير .

ولما تم تعديل الصنوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر

الأخيرة ، ثم أدل إلهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال : « إذا أكتبكم - يعني كثلكم - فارموهم ، واستبقو نبلكم ^(١) ، ولا تسلوا السيف حتى يغشوكم ^(٢) » ، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكثيبة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحنه الغداة ، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضي عندك فانصره اليوم ، وفي ذلك أنزل الله ﷺ إِن تَسْتَقْرِئُ حَوْافِدَ جَاهَةَ كُمُّ الْفَكْتَحِ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرُكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ تَغْنِيَ عَنْكُمْ فَشَكْمُ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ (١٩) .

ساعة الصفر وأول وقود المعركة :

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيء الخلق - خرج قاتلاً : أعاده الله لأشرين من حوضهم ، أو لأهدمته ، أو لأموتن دونه . فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، فلما التقى ضربه حمزة ، فأطعن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثني عليه بضربة أخرى أنت عليه وهو داخل الحوض .

المبارزة :

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة ، فخرج إلهم ثلاثة من شباب الأنصار ، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفرا - وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريدبني علينا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي » ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة - وكان

(١) صحيح البخاري ٥٦٨/٢ .

(٢) سنن أبي داود في سل السيف عند اللقاء ١٣/٢ .

أسن القوم - عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد^(١) ، فأما حمزة وعلى فلم يهلا قرنيهما أن قتلها ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأثخن كل واحد منها صاحبه ، ثم كر على حمزة على عتبة فقتلاه واحتلما عبيدة ، وقد قطعت رجله ؟ فلم يزل صمتا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينها كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة .

وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم **﴿هَذَا إِنْ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾** الآية .

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين ، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضباً ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد .

وأما المسلمون وبعد أن استنصروا بهم ، واستغاثوه ، وأخلصوا له ، وتضرعوا إليه ، تلقوا هجمات المشركين التالية ، وهم مرابطون في مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول - ﷺ - يناشد ربه:

وأما رسول الله ﷺ ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : « اللهم أخز لي ما وعدتني ، اللهم إني أنشدك عهدي ووعدي ». حتى إذا حمى الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة ، واحتدم القتال ، وبلغت المعركة قمتها ، قال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تبعد ، اللهم إن شئت لم تبعد بعد اليوم أبداً ». وبالغ في الابتهاج حتى سقط رداءه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك .

وأوحى الله إلى ملائكته ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبِعُوا الَّذِينَ أَمْنَوْا سَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق ، وفي رواية أحمد وأبي داود أن عبيدة بارز الوليد ، وعلى بارز شيبة ، وحمزة بارز عتبة . مشكاة المصايح ٢/٣٤٣ .

الرُّشْبَكَ) ، وأوحى إلى رسوله ﷺ **أَنِّي مُمَدِّكُم بِالْفِتْنَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**) - أي أنهم ردد لكم ، أو يردد بعضهم بعضاً أرسلاً ، لا يأتون دفعه واحدة .

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع » (أي الغبار) . وفي رواية محمد بن إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع » .

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش ، وهو يشب في الدرع ، ويقول : **سَيِّئَهُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ** (٤٥ : ٥٤) ، ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشاً وقال : « شاهت الوجوه » ، ورمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخرقه وفمه من تلك القبضة ، وفي ذلك أنزل الله : **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْكَنْتَ اللَّهُ رَمِيًّا** (٨ : ١٧) .

الهجوم المضاد:

وحيثند أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال : « شدوا » ، وحرضهم على القتال ، قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، وقال وهو يحضهم على القتال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، (وحيثند) قال العمير بن الحمام : بخ . بخ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك : بخ . بخ » ؟ قال : لا ، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منها ، ثم قال : لعن أنا حيت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل^(١) .

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفرا - فقال : يا رسول الله ما يضحكك الرب من عبده ! قال غمسه يده في العدو حاسراً ، فنزع درعاً كانت عليه ، فقدفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

(١) رواه مسلم ٢/١٣٩ ، مشكاة المصايح ٢/٣٣١ .

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت ، وقر حماسه ، فكان هذه الخطة الحكيمـة أثرـ كبير في تعزيـز موقف المسلمين ، فإـنـهم حينـا تلقـوا أمرـ الشـدـ والـهـجـومـ - وقدـ كانـ نـشـاطـهـمـ الـحـرـبيـ عـلـىـ شـبـابـهـ - قـامـواـ بـهـجـومـ كـاسـحـ مـرـيرـ ، فـجـعـلـواـ يـقـلـبـونـ الصـفـوفـ ، وـيـقـطـعـونـ الـأـعـنـاقـ ، وـزـادـهـمـ نـشـاطـاـ وـحدـةـ أـنـ رـأـواـ رـسـولـهـ ﷺ يـثـبـ فيـ الدـرـعـ ، وـيـقـولـ فيـ جـزـمـ وـصـراـحةـ (سـيـهـنـمـ لـجـمـعـ وـيـوـلـونـ الدـبـرـ) ، فـقـاتـلـ المـسـلـمـونـ أـشـدـ الـقـتـالـ ، وـنـصـرـتـهـمـ الـمـلـائـكـةـ ، فـقـيـ روـاـيـةـ اـبـنـ سـعـدـ عـنـ عـكـرـمـةـ قـالـ : كـانـ يـوـمـئـذـ يـنـدرـ رـأـسـ الرـجـلـ لـاـ يـدـرـيـ مـنـ ضـرـبـهـ ، وـتـنـدـرـ يـدـ الرـجـلـ لـاـ يـدـرـيـ مـنـ ضـرـبـهـ ، وـقـالـ اـبـنـ عـبـاسـ : بـيـنـاـ رـجـلـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ يـشـتـدـ فـيـ إـثـرـ رـجـلـ مـنـ الـمـشـرـكـينـ أـمـامـهـ إـذـ سـمعـ ضـرـبـهـ بـالـسـوـطـ فـوقـهـ ، وـصـوتـ الـفـارـسـ يـقـولـ : أـقـدـ حـيـزـوـمـ ، فـنـظـرـ إـلـىـ الـمـشـرـكـ أـمـامـهـ ، فـجـاءـ الـأـنـصـارـيـ فـحـدـثـ بـذـلـكـ رـسـولـهـ ﷺ ، فـقـالـ : «ـ صـدـقـتـ ، ذـلـكـ مـنـ مـدـ السـمـاءـ التـالـيـةـ (١)ـ» . وـقـالـ أـبـوـ دـاـوـدـ الـمـازـنـيـ : إـنـيـ لـأـتـبـعـ رـجـلـاـ مـنـ الـمـشـرـكـينـ لـأـضـرـبـهـ إـذـ وـقـعـ رـأـسـهـ قـبـلـ أـنـ يـصـلـ إـلـيـهـ سـيفـيـ ، فـعـرـفـتـ أـنـهـ قـدـ قـتـلـهـ غـيـرـيـ . وـجـاءـ رـجـلـ مـنـ الـأـنـصـارـ بـالـعـبـاسـ بـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ أـسـيـرـاـ ، فـقـالـ الـعـبـاسـ : إـنـ هـذـاـ وـالـلـهـ مـاـ أـسـرـنـيـ ، لـقـدـ أـسـرـنـيـ رـجـلـ أـجـلـحـ مـنـ أـحـسـنـ النـاسـ وـجـهـاـ عـلـىـ فـرـسـ أـبـلـقـ ، وـمـاـ أـرـاهـ فـيـ الـقـوـمـ ، فـقـالـ الـأـنـصـارـيـ : أـنـاـ أـسـرـتـهـ يـاـ رـسـولـهـ ، فـقـالـ : «ـ اـسـكـتـ فـقـدـ أـيـدـكـ اللـهـ بـمـلـكـ كـرـيمـ» .

إـبـلـيـسـ يـنـسـحـبـ عـنـ مـيـدـانـ الـقـتـالـ:

وـلـمـ رـأـيـ إـبـلـيـسـ - وـكـانـ قـدـ جـاءـ فـيـ صـورـةـ سـرـاقـةـ بـنـ مـالـكـ بـنـ جـعـشـ المـدـلـحـيـ كـاـذـكـرـنـاـ ، وـلـمـ يـكـنـ فـارـقـهـمـ مـنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ - فـلـمـ رـأـيـ ماـ يـفـعـلـ الـمـلـائـكـةـ بـالـمـشـرـكـينـ فـرـ وـنـكـصـ عـلـىـ عـقـبـيـهـ ، وـتـشـبـثـ بـهـ الـحـارـثـ بـنـ هـشـامـ - وـهـوـ يـظـنـهـ سـرـاقـةـ - فـوـكـزـ فـيـ صـدـرـ الـحـارـثـ فـأـلـفـاهـ ، ثـمـ خـرـجـ هـارـبـاـ ، وـقـالـ لـهـ الـمـشـرـكـونـ : إـلـىـ أـيـنـ يـاـ سـرـاقـةـ ؟ أـلـمـ تـكـنـ قـلـتـ : إـنـكـ جـارـ لـنـاـ ، لـاـ تـفـارـقـنـاـ ؟ فـقـالـ : إـنـيـ أـرـىـ مـاـ لـاـ تـرـوـنـ ، إـنـيـ أـخـافـ اللـهـ ، وـالـلـهـ شـدـيدـ الـعـقـابـ ، ثـمـ فـرـ حـتـىـ أـلـقـىـ نـفـسـهـ فـيـ الـبـحـرـ .

الـهـزـيـمةـ السـاحـقةـ:

وـبـدـأـتـ أـمـارـاتـ الـفـشـلـ وـالـاضـطـرـابـ فـيـ صـفـوفـ الـمـشـرـكـينـ ، وـجـعـلـتـ تـهـدـمـ أـمـامـ حـمـلاتـ

(١) رـوـيـ مـثـلـ ذـلـكـ مـسـلـمـ ٩٣/٢ وـغـيـرـهـ .

المسلمين العنيفة ، واقربت المعركة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد ، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة .

صمود أبي جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب في صفوفه حاول أن يصمد في وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم في شراسة ومكابرة : لا يهز منكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهزلنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهما قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحال ، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً ، ولكن خذلهم أحذاً ، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطسة ، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين . نعم بقي حوله عصابة من المشركين ، ضربت حوله سياجاً من السيوف وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات ، وحيثند ظهر هذا الطاغية ، ورأه المسلمون يجول على فرسه ، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين .

مصرع أبي جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يسارِي فتيان حديث السن ، فكأنني لم آمن بمكانتهما ، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ، مما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، قال : والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزني الآخر ، فقال لي مثلها ، فلم أنسبي أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذي تسألاني عنه ، قال : فابتدرأه بسيفيهما فضرباه حتى قتله ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « أیکما قتلہ » ؟ فقال كل واحد منها : أنا قتله ، قال : « هل مسحتها سيفيكما » ؟ فقالا : لا ، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين ،

قال : « كلاً كا قتله » ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموم ، والرجلان
معاذ بن عمرو بن الجموم ومعوذ بن عفراه^(١) .

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الخرجة - والخرجة : الشجر الملتـف ، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها ، شيء رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه ، فلما أمكنني حملت عليه ، فضررتـه ضربـة أطـنـت قـدـمه - أطـارـتـها - بـنـصـفـ سـاقـه ، فـوـالـلـهـ ماـ شـبـهـتـهاـ حـيـنـ طـاـحتـ إـلـاـ بـالـنـوـاهـ تـطـيـعـ مـنـ تـحـتـ مـرـضـخـةـ النـوـىـ حـيـنـ يـضـرـبـ بـهـ . قال : وضربـيـ اـبـنـ عـكـرـمـةـ عـلـىـ عـاتـقـيـ ، فـطـرـحـ يـدـيـ ، فـتـعـلـقـتـ بـجـلـدـةـ مـنـ جـنـبـيـ ، وـأـجـهـضـنـيـ القـتـالـ عـنـهـ ، فـلـقـدـ قـاتـلـتـ عـامـةـ يـوـمـيـ وـإـنـيـ لـأـسـجـبـهـ خـلـفـيـ ، فـلـمـ آـذـتـيـ وـضـعـتـ عـلـيـهـ قـدـمـيـ ، ثـمـ تـعـطـيـتـ بـهـ عـلـيـهـ حـتـىـ طـرـحـتـهـ^(۲) ثـمـ مـرـ بـأـبـيـ جـهـلـ - وـهـوـ عـقـيرـ - مـعـوذـ بـنـ عـفـرـاءـ ، فـضـرـبـهـ حـتـىـ أـبـتـهـ ، فـتـرـكـهـ وـبـهـ رـمـقـ ، وـقـاتـلـ مـعـوذـ حـتـىـ قـتـلـ .

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ فتفرق الناس في طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رقم ، فوضع رجله على عنقه ، وأخذ لحيته ليحترز رأسه ، وقال : هل أخراك الله يا عدو الله ؟ قال : وماذا أخزاني ؟ أعمد من رجل قتلتموه^(٣) ؟ أو هل فوق رجل قتلتموه ؟ وقال : فلو غير أكار قتلي ، ثم قال : أخبرني ملن الدائرة اليوم ؟ قال : الله ورسوله ، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه - لقد ارتفيت مرتفقى صعباً يا رويعي الغنم ، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة .

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتزاب بن مسعود رأسه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال : « آللله الذي لا إله إلا هو » ؟ فرددتها ثلثاً ، ثم قال : « الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، انطلق أرنيه » ، فانطلقا فرأيته إياه ، فقال : « هذا فرعون هذه الأمة » .

(١) صحيح البخاري /١، ٤٤٤، ٥٦٨/٢ ، مشكاة المصايف /٢، ٣٥٢، وإنما خص بالسلب واحداً منها لأن الثاني قتل شهيداً في نفس المعركة .

(٢) بقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) أى ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه .

من رواي الإيمان في هذه المعركة

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة ، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والأخوة بالأخوة ، خالفت بينهما المبادئ ، ففصلت بينهما السيف ، والتقي المقهور بقاهره ، فشفى منه غيظه .

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبي البخاري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً » ، فقال أبو حذيفة بن عتبة : أقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا وترك العباس ، والله لعن لقيته لأحمنه - أو لأجمنه - بالسيف ، فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال عمر بن الخطاب : « يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف » ، فقال عمر : يا رسول الله ، دعني فالأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .
فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بأمان من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عن الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيداً .

٢ - وكان النبي عن قتل أبي البخاري ؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه ، وكان من قام في نقض صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني المطلب .

ولكن أبي البخاري قتل رغم هذا كله ، وذلك أن المجدر بن زياد البلوي لقيه في المعركة ، ومعه زميل له ، يقاتلان سوياً ، فقال المجدر : يا أبي البخاري إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلي ؟ فقال المجدر : لا والله ما نحن بتاركين زميلك ، فقال : والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً ، ثم اقتلا ، فاضطر المجدر إلى قتله .

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة ، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن ، وهو واقف مع ابنه علي بن أمية ، آخذنا بيده ، ومع عبد الرحمن أدراج قد استلها ، وهو يحملها ، فلما رأه قال : هل لك في ؟ فأنا خير من هذه الأدراج التي معك ،

ما رأيت كال يوم قط ، أما لكم حاجة في اللبن ؟ – يريد أن من أسرني افتديت منه بابل كثيرة اللبن – فطرح عبد الرحمن الأدراع ، وأخذهما يمشي بهما ، قال عبد الرحمن : قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذي فعل بنا الأف العيل .

قال عبد الرحمن : فوالله إني لأقودهما إذ رأه بلال معي ، وكان أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة ، فقال بلال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا قلت : أي بلال ، أسيري قال : لا نجوت إن نجا . قلت : أتسمع يا ابن السوداء . قال : لا نجوت إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ، قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة ، وأنا أذب عنه ، قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاحب أمية صيحة ما سمعت مثلها قط ، فقلت إنك بنفسك ، ولا نجاء بك ، فوالله ما أغني عنك شيئاً . قال فهو وهم بأساففهم حتى فرغوا منها ، فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالاً ، ذهبت أدراعي ، وفجعني بأسيري .

وفي زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية : ابرك ، فبرك ، فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن بن عوف^(١) .

٤ – وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ حاله العاص بن هشام بن المغيرة .

٥ – ونادي أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن – وهو يومئذ مع المشركين – فقال : أين مالي يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يرق غير شكرة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب^(٢)

٦ – ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متواشحاً سيفه ، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهة لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله .

(١) زاد المعاد ٨٩/٢ .

(٢) الشكرة : السلاح . واليعوب : الفرس الكبير الجري .

كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإنخان في القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

٧ - وانقطع يومئذ سيف عكاشه بن محسن الأنصاري ، فلما رأى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : « قاتل بهذا يا عكاشه » ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه ، فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد التن أليس الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للMuslimين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده .

٨ - وبعد انتهاء المعركة من مصعب بن عمير العبدري أخيه أبي عزيز بن عمير ، الذي خاض المعركة ضد المسلمين ، من به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال : مصعب للأنصاري : شد يديك به ، فإن أمه ذات متاع ، لعلها تقدّيه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه - أي الأنصاري - أخي دونك .

٩ - ولما أمر بالقاء جيف المشركين في القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة ، فإذا هو كثيب قد تغير ، فقال : « يا أبو حذيفة لعلك قد دخلت من شأن أيك شيء ؟ » قال : لا والله ، يا رسول الله ، ما شركت في أبي ولا مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلاً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحذني ذلك . فدعاه رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

قتلى الفريقيين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين ، ويفتح مبين بالنسبة للمسلمين ، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، وعامتهم القيادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتل ، فقال : « بئس العشيرة

كنت لنبكم ، كذبتكمي وصدقني الناس ، وخدلتوني ونصرني الناس ، وأخر جتموني وأوانى الناس » ، ثم أمر بهم ، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر .

وعن أبي طلحة أن نبـي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقدفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخت . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرضة ثلاثة ليال ، فلما كان بيـدر اليوم الثالث أمر براحته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آباءـهم ، « يا فلان بن فلان ، يا فلان بن فلان ، أيسركم أنـكم أطعـتم الله ورسولـه ؟ فإنـا قد وجـدنا ما وعدـنا ربـنا حقـاً ، فـهل وجـدتـم ما وعدــكم حقـاً ؟ » فقالـ عمر : يا رسولـ الله ما تـكلـمـ من أجـسـادـ لا أرواحـ لها ؟ قالـ النبي ﷺ : « والـذـي نفسـ محمدـ بيـدهـ ، ما أنتـ بـأـسـعـ لـما أـقـولـ مـنـهـمـ » ، وفيـ روـاـيـةـ « ما أـنـتـ بـأـسـعـ مـنـهـمـ ، ولـكـنـ لا يـجـيـبـونـ »^(١) .

مكة تتلقى أنباء الهزيمة:

فرـ المـشـرـكونـ منـ سـاحـةـ بـدـرـ فيـ صـورـةـ غـيرـ منـظـمـةـ ، تـبعـثـرـواـ فيـ الـوـديـانـ وـالـشـعـابـ ، وـاتـجـهـوـاـ صـوبـ مـكـةـ مـذـعـورـينـ ، لـاـ يـدـرـونـ كـيفـ يـدـخـلـونـهـاـ خـجـلاـ .

قالـ ابنـ إـسـحـاقـ : وـكـانـ أـوـلـ مـنـ قـدـمـ بـمـصـابـ قـرـيـشـ الحـيـسـيـانـ بـنـ عـبـدـ اللهـ الـخـزـاعـيـ ، فـقـالـواـ : مـاـ وـرـاءـكـ ؟ قالـ : قـتـلـ عـتـبةـ بـنـ رـبـيـعـةـ وـشـيـبـةـ بـنـ رـبـيـعـةـ وـأـبـوـ الـحـكـمـ اـبـنـ هـشـامـ ، وـأـمـيـةـ بـنـ خـلـفـ فـيـ رـجـالـ مـنـ الزـعـمـاءـ سـاهـمـ . فـلـمـ أـخـذـ يـعـدـ أـشـرـافـ قـرـيـشـ قـالـ صـفـوـانـ بـنـ أـمـيـةـ وـهـوـ قـاعـدـ فـيـ الـحـجـرـ : وـالـلـهـ إـنـ يـعـقـلـ هـذـاـ ، فـأـسـأـلـوـهـ عـنـيـ ، قـالـواـ : مـاـ فـعـلـ صـفـوـانـ بـنـ أـمـيـةـ قـالـ : هـاهـوـ ذـاـ جـالـسـ فـيـ الـحـجـرـ ، وـقـدـ وـالـلـهـ رـأـيـتـ أـبـاهـ وـأـخـاهـ حـينـ قـتـلـاـ .

وقـالـ أـبـوـ رـافـعـ - مـوـلـيـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ - : كـنـتـ غـلامـاـ لـلـعبـاسـ ، وـكـانـ إـلـسـلـامـ قـدـ دـخـلـنـاـ أـهـلـ الـبـيـتـ ، فـأـسـلـمـ الـعـبـاسـ ، وـأـسـلـمـتـ أـمـ الـفـضـلـ ، وـأـسـلـمـتـ ، وـكـانـ الـعـبـاسـ يـكـتـمـ إـسـلـامـهـ ، وـكـانـ أـبـوـ لـهـبـ قـدـ تـحـلـفـ عنـ بـدـرـ ، فـلـمـ جـاءـهـ الـخـبـرـ كـبـتـهـ اللهـ وـأـخـزـاهـ ، وـوـجـدـنـاـ فـيـ أـنـفـسـنـاـ قـوـةـ وـعـزـأـ ، وـكـنـتـ رـجـلـاـ ضـعـيفـاـ أـعـمـلـ أـقـدـاحـ ، أـنـجـتـهـ فـيـ حـجـرـةـ زـمـزـ ، فـوـالـلـهـ إـنـيـ جـالـسـ فـيـهـ أـنـجـتـ أـقـدـاحـيـ ، وـعـنـدـيـ أـمـ الـفـضـلـ جـالـسـةـ ، وـقـدـ سـرـنـاـ مـاـ جـاءـنـاـ مـنـ الـخـبـرـ ، إـذـ أـقـبـلـ أـبـوـ لـهـبـ يـجـرـ رـجـلـيـهـ

(١) مـتـفـقـ عـلـيـهـ ، مـشـكـاةـ الـمـاصـايـعـ ٢٤٥/٢ .

بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة^(١) ، فكان ظهره إلى ظهري ، فيينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو هب : هلم إلى ، فعندك لعمري الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه . فقال : يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكافانا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويسروننا كيف شاءوا ، وائم الله مع ذلك ما ملت الناس ، لقينا رجال يبغض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما ثلائق^(٢) شيئاً ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي ، ثم قلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو هب يده ، فضرب بها وجهي ضربة شديدة ، فثارته ، فاحتمني فضرب بي الأرض ، ثم برّك علي يضربني ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمود الحجرة ، فأخذته ، فضربته به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسقة فقتلته (وهي قرحة تتشاءم بها العرب ، فتركه بنوه ، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ، ثم دفعوه بعود في حفرته ، وقد قذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه) .

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر ، وقد أثر ذلك فيهم أثراً سيئاً جداً ، حتى منعوا النياحة على القتلى ، لئلا يشمت بهم المسلمون .

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر ، وكان يجب أن يبكي عليهم ، وكان ضرير البصر ، فسمع ليلاً صوت نائحة ، فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحذر النحب ؟ هل بكت قريش على قتلها ؟ لعلى أبيكى على أبي حكيمه - ابنه - فإن جوفي قد احترق ، فرجع الغلام وقال : إنما هي امرأة تبكي على بغير لها أصلته ، فلم يتألم الأسود نفسه وقال :

ويُنْعِهَا مِنَ النَّوْمِ السَّهُودُ	أَبْكِي أَنْ يَضْلُلَهَا بَعْرِ
عَلَى بَدْرٍ تَقَاصِرَتِ الْجَدُودُ	فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ وَلَكِنْ
وَخَزُومٌ وَرَهْطٌ أَبْيَ الْوَلِيدَ	عَلَى بَدْرٍ سَرَّاهُ بْنُ هَصِيصٍ

(١) طنب الحجرة : طرفها .

(٢) لا تبقى شيئاً .

وبكي حارثاً أسد الأسود
ومالئي حكمة من نديد
ولولا يوم بدر لم يسودوا

وبكري إن بكى على عقيل
وبكيم ، ولا تسمى جمياً
ألا قد ساد بعدهم رجال

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح لل المسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ، ليجعل لهم البشري ، أرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكباً القصواء - ناقة رسول الله ﷺ - قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب ، وجاء فلأـ^(١) .

فلما بلغ الرسول أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منها الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكتيراً ، وتقدم رؤوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر ؛ ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين .

قال أسامة بن زيد : أثانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان .

المجيش النبوى يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ بدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي ﷺ ، فشهدت معه بدرأ فالتحقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغم يحرزونه

(١) فلأـ : منهراً .

ويمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويتها ، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نخينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﷺ **﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَإِنَّقُوا اللَّهَ وَأَصْبِلُوهُ أَذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾** (٨ : ١) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين^(١) .

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بيدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسرى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء ، بعد أن أخذ منها الخمس .

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث – وكان هو حامل لواء المشركين يوم بيدر ، وكان من أكابر مجرمي قريش ، ومن أشد الناس كيداً للإسلام ، وإيذاء رسول الله ﷺ – فضرب عنقه علي بن أبي طالب .

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو في الصلاة ، وهو الذي خنقه بردائه ، وكاد يقتله لو لا أن يعترض أبو بكر رضي الله عنه ، فلما أمر بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار^(٢) . قتل عاصم بن ثابت الأنصاري ، ويقال علي بن أبي طالب .

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً من حيث وجهة الحرب ، فلم يكونا من الأسرى فحسب ، بل كانوا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث .

وفود التهنئة :

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين – الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٢٤ ، ٣٢٣ ، والحاكم ٢/٣٢٦ .

(٢) روى ذلك أصحاب الصدح ، انظر سنن أبي داود مع حاشيته عون المعبد ٣/١٢ .

سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهتئونه بالفتح . وحيثئذ قال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهتئوننا به ؟ فوالله إِنْ لَقِيْنَا إِلَّا عَجَائِزَ صَلِيْعَا كَالْبَيْنِ ، فَبَيْسَمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا ابْنَ أَخِي أَوْلَئِكَ الْمَلَأُ » .

وقال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك ، وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تختلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً ، ولكن ظنت أنها غير ، ولو ظنت أنك أنه عدو ما تختلفت ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت » .

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفراً منصوراً، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحوها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحيثند دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

وقدم الأسرى بعد بلوغه المدينة يوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيراً ، فكان الصحابة يأكلون التمر ، و يقدمون لأسرائهم الخير عملاً بوصية رسول الله ﷺ .

قضية الأسرى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه في الأسارى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهدى بهم الله ، فيكونوا لنا عضداً .

قال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب » ؟ قال : قلت : والله ما أرى مارأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنتني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكنت علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وتمكنت حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم أعداء الله أنه ليست في قلوبنا هواة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر ، وهما يك bian ، فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يك يك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجده بكاء تباكيت لبكائهما ، فقال رسول الله ﷺ : « للذى عرض على أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة - (١) .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الحوزي ص ٣٦ .

وأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَارًا حَقَّ يُتَحْكَمْ فِي الْأَرْضِ قُرْبَدُونَ عَرَضَ الْدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ أَعْزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٦٧ لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخْذَمْتُمْ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾ (٨ : ٦٧ ، ٦٨) .

والكتاب الذي سبق من الله هو قوله تعالى ﴿فَإِمَّا مَا نَأَيْدُ وَإِمَّا فَدَاءٌ﴾ (٤ : ٤٧) فيه الإذن بأخذ الفدية من الأسرى ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يشنوا في الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك الجرميين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط ، بل كانوا أكابر مجرمي الحرب الذين لا يتزكهم قانون الحرب الحديث إلا ويخاكمهم ، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت .

واستقر الأمر على رأي الصديق فأخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداء .

ومن رسول الله ﷺ على عدة من الأسرى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفي بن أبي رفاعة ، وأبو عزة الجمحي ، وهو الذي قتله أسرًا في أحد ، وسيأتي .

ومن على ختنه أبي العاص بشرط أن يخلع سبيل زينب ، وكانت قد بعثت في فدائه بمال ، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رأها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلع سبيل زينب ، فخلعها ، فهاجرت ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار ، فقال : كونا يبطن يأجوج حتى تمر بكم زينب فتصحىها ، فخرج حتى رجعوا بها ، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة .

وكان في الأسرى سهل بن عمرو ، وكان خطيباً مصقاً ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثيتي سهل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً ، ييد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترزاً عن المثلة ، وعن بطش الله يوم القيمة .

وخرج سعد بن التعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبي سفيان في الأسرى ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلع سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

و حول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهي – إن صع هذا التعبير – على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعاليف التي ينطق بها الملوك والقادات بعد الفتح .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين – أولاً – إلى التقصيرات والتقاريظ الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم ، وصدرت بعضها منهم ، ليسعوا في تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التقاريظ .

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يفتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتصور نفوسهم الغطرسة والكبراء ، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض البليلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلم على الصفات والأخلاق التي تسبيت في الفتوح وفي المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأساري المعركة ، وعظهم موعظة بلاغة ، تهدفهم إلى الاستسلام للحق والتقييد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقن لهم مبادئه وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يشف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعوا إليها .

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وبيّنت أنصبة الزكاة الأخرى ، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى ؟ تخفيفاً لكثير من الأوزار التي يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين ، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في الأرض . ومن أحسن الواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيده به المسلمون في حياتهم هو العيد

الذي وقع في شوال سنة ٢ هـ إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر ، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز ، وما أروع منظر تلك الصلاة التي صلواها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرثون أصواتهم بالتكبير والتوكيد والتحميد ، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله ، وحنينا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم ، وأيدهم به من النصر ، وذكرهم بذلك قائلاً : ﴿وَآذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَتَأْوِنُكُمْ وَآتَيْدُكُمْ بِنَصْرٍ وَرَزَقْكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ﴾ . (٨: ٢٦)

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والشركين ، وكانت معركة فاصلة ، أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة ، والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركون ، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظاً وحنقاً على المسلمين ﴿لَعِدَنَ أَشَدَّ النَّاسَ عَدَّوْهُ لِلَّذِينَ مَا مَنَوا إِلَيْهُودٌ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا هُنَّ﴾ (٨٢: ٥) وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظاً من الأوليين .

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهم البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن بهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الانتصار ، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعلوا يهددون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وهكذا أحاطت الأخطار بال المسلمين من كل جانب ، ولكن هذه الفرق تباينت في سلوكها إزاء المسلمين ، وأخذ كل فريق الطريقة التي رأها كفيلة ببلوغ غايته . في بينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام ، وتأخذ في طريق المؤامرات والدسائس والتحرشات والاستفزازات ، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة ، وتكاشف عن الحقد والغيظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنسمة ، وتهتم بالتعبئة العامة جهاراً ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول بأنه :

ولا بد من يوم أغر محجل يطول استماعي بعده للنوابد وفعلاً، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد ، والتي كان لها أثر سيء على سمعة المسلمين وهبيتهم .

غزوة بنى سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بنى سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة في عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الْكُدْر^(١) . ففر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسين عيير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاماً يقال له « يسار » فأعتقه .

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستختلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم^(٢) .

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير في لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

(٢) زاد المعاد ٩٠/٢ ، ابن هشام ٤٣/٢ ، ٤٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٣٦ .

مؤامرة لاغتيال النبي - ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتباطوا غضباً، وجعلت مكة تغلي كالمجهر ضد النبي ﷺ، حتى تأمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم، وهو النبي ﷺ.

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر يسير - وكان عمير من شياطين قريش ، من كان يؤذى النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إِنْ في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لو لا دين على ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشي عليهم الضيقة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أتله ، فإن لي قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم . فاغتنمتها صفوان وقال : على دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواسفهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم عني شأنى وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحد له وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينا هو على باب المسجد ينبع راحلته رأه عمر بن الخطاب - وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمههم الله به يوم بدر - فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير قد جاء إلا لشر . ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوضحاً سيفه ، قال : فأدخله على ، فأقبل عمير فلباه بحالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحدروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رأه رسول الله ﷺ - وعمر

أخذ بحملة سيفه في عنقه - قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحاً ،
قال النبي ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة .

ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : بما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبّحها الله من سيف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال : أصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرنا أصحاب القليب من قريش ، ثم
قلت : لو لا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل حمداً ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك
على أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر
السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم
ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم تشهد شهادة
الحق ، فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أحكام في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره .

وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأييكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل
الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه ، فحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه
بنفع أبداً .

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير^(١) .

غزوة بنى قينقاع :

قدمنا بند المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود . وقد كان حريصاً كل الحرص
على تفريد ما جاء في هذه المعاهدة ، وفعلاً لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من
نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ، لم يلبثوا أن تمشوا مع
طبائعهم القدية ، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريض وإثارة القلق والاضطراب في
صفوف المسلمين . وهناك مثالاً من ذلك :

(١) ابن هشام ١/٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤ .

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً (يهودياً) قد عسا^(١) عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله عليه السلام من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من الفتن وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتي شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان من قبله ، وأنشدتهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواكب رجالان من الحسين على الركب فقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شتم رددناها الآن جذعة - يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة - والظاهره : الحرة - السلاح السلاح ، فخرجوا إليها وكانت تنشب الحرب .

بلغ ذلك رسول الله عليه السلام ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا عشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوني الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

عرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعائق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله عليه السلام سامعين مطاعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس^(٢) .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات في المسلمين ، وإقامة العرائيل في سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل ، كانوا يبنون الدعایات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخره ؛ ليزرعوا بذور الشكوك في

(١) عسا الشیخ : کبر .

(٢) ابن هشام ٥٥٥ / ١ ، ٥٥٦ .

قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي ، فإن كان لهم عليه يتقاوضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويستعنون عن أدائه ، وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل^(١) .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك ؛ حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزراً في ميدان بدر ، وأتتهم قد صارت لهم عزة وشوكه وهيبة في قلوب الأقاصي والأداني ، تميزت قدر غيظهم وكشفوا بالشر . والعداوة ، وجاهروا بالبغى والأذى .

وكان أعظمهم حقداً وأكبرهم شرآ كعب بن الأشرف – وسيأتي ذكره – كما أن أشر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهودبني قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة – في حي باسمهم – وكانت صاغة وحدادين وصناع الظروف والأواني ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله المسلمين في بدر اشتد طغيانهم ، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم ، فكانوا يثرون الشغب ، وي تعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين ، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم ، جمعهم رسول الله ﷺ ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى ، وحذرهم مغبة البغي والعدوان ، ولكنهم ازدادوا في شرهם وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً

(١) ذكر المفسرون نماذج لفعالاتهم هذه في تفسير سورة آل عمران وغيرها .

يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع . فقال : يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصييكم مثل ما أصاب قريشاً . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قلت نفراً من قريش ، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحَشَّرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبَقِيسَ الْمَهَادُ ١٦ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ فِي قَتْنَيْنِ التَّقْتَافَيْهَ تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَى كَافِرَةٍ يَرَوْنَهُم مُشَاهِدِهِمْ رَأَى الْعَيْنَ وَاللَّهُ يُؤْمِنُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لَا يَؤْلِمُ الْأَنْصَارِ ﴾

(١٢:٣ ، ١٣)^(١).

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر بالحرب ، ولكن كظم النبي عليه السلام غيظه ، وصبر المسلمين ، وأخذوا يتظرون ما تتمخض عنه الليالي .

وازداد اليهود - من بني قينقاع - جراءة ، فقلما ليثوا أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطرباً ، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

روى ابن هشام عن أبي عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته في سوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوها يريدونها على كشف وجهها فأبانت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهي غافلة - فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكت بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهودياً - فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع^(٢) .

الحصار ثم التسلیم ثم الجلاء:

وحينئذ عيل صبر رسول الله عليه السلام ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، وأعطي لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع ، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم ، فحاصرتهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة ، وقدف الله في قلوبهم الرعب - الذي إذا

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ١١٥/٣ ، ابن هشام ١/٥٥٢ .

(٢) ابن هشام ٢/٤٧ ، ٤٨ .

أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذف في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذرياتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحيثند قام عبد الله بن أبي سلول بدوره النفاقي ، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفوا ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطن عليه رسول الله ﷺ ، فكرر ابن أبي مقالته ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درعه ، فقال له رسول الله ﷺ : أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال : ويحك ، أرسلني . ولكن المنافق مضى على إصراره ، وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعين حاسرون وثلاثمائة دارع قد معنوني من الأحمر والأسود ، وتحصدتهم في غداة واحدة ؟ إني والله أمرت أخشي الدوائر .

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق - الذي لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالمراعاة ، فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن ليثوا فيها حتى هلك أكثرهم .

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاثة قسي ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذي تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة^(١) .

غزوة السويق :

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمحاربتهم وعملياتهم ، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغامرة ظاهر الأثر ، يتوجه به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويزيل ما لديهم من قوة ، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، فخرج في مائتي راكب ليبرئ بيته ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارا ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جناح الظلام ، فأتى حبي بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأتى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم - سيدبني النضير ، وصاحب كتزهم إذ ذاك ، فاستأذن عليه فأذن ، فقرأه وسقاء الخمر ، وبطنه له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العريض » ، فقطعوا

(١) زاد المعاد ٢١/٢ ، ٩١ ، ابن هشام ٤٧/٢ ، ٤٨ ، ٤٩ .

وأحرقوا هناك أسواراً من النخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرب هما قتلوها ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطروا سويفاً كثيراً من أزواجهم وبنواناتهم يتخلفون به ، فتمكنا من الإفلات ، وببلغ رسول الله ﷺ إلى قرقة الكدر ، ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحوه الكفار من سويفهم ، وسموا هذه المناوشة بغزة السويف . وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر^(١) .

غزوة ذي أمر:

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد ، قادها في المحرم سنة ٣ هـ .

وبسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جماعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج في أربعينية وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضممه إلى بلال ، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بدی أمر » فأقام هناك صفراً كله - من سنة ٣ هـ - أو قريباً من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولي عليهم الرعب والرعب ، ثم رجع إلى المدينة^(٢) .

(١) زاد المعاد ٩٠/٢ ، ابن هشام ٤٤/٢ ، ٤٥ .

(٢) ابن هشام ٤٦/٢ ، زاد المعاد ٩١/٢ ، ويدركون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربي كانت في هذه الغزوة . والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٥٩٣/٢ .

قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين ، وإيذاء لرسول الله ﷺ ، وتنظيراً بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيء - من بني نهان - وأمه من بني النضير ، وكان غنياً مترفاً معروفاً بحمله في العرب ، شاعراً من شعرائها ، وكان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين ، وقتل صناديد قريش في بدر قال : أحق هذا هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر ، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، وي مدح عدوهم ، ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبي وداعه السهسي ، وجعل ينشد الأشعار يسكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين ، يثير بذلك حفاظتهم ، ويدركي حقدهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون : أديتنا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً ؟ فقال : أنت أهدي منهم سبيلاً ، وأفضل ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبَاتٍ مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْرِ وَالظَّغْوَتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ مَا آمَنُوا سَيِّلًا﴾ (٤: ٥١) .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأنحدر يشبب في أشعاره بنساء الصحابة ، و يؤذيهن بسلطاط لسانه أشد الإيذاء .

وحينئذ قال رسول الله ﷺ : من لکعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ، فانتدب له محمد بن مسلمة ، وعبدالله بن بشر ، وأبو نائلة - واسمه سلكان بن سلامة ، وهو أخو کعب من الرضاعة - والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن حبر ، وكان قائداً هذه المفرزة محمد بن مسلمة .

وتفيد الروايات في قتل کعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال : من لکعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فاذدن لي أن أقول شيئاً . قال : قل .

فأتأهله محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا .
قال كعب : والله لتعلمه .

قال محمد بن مسلمة : فإننا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير
شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين .
قال كعب : نعم أرهنوني .

قال ابن مسلمة : أي شيء تريده ؟
قال : أرهنوني نساءكم .

قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟
قال : فترهنوني أبناءكم .

قال : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين . هذا عار
 علينا ، ولكننا نرهنك الأئمة ، يعني السلاح .
فواعده أن يأتيه .

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة ، فقد جاء كعباً فتناشد معه أطراف الأشعار
سويعة ، ثم قال له : وبمحلك يا ابن الأشرف ، إني قد جئت حاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنني .
قال كعب : أفعل .

قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ،
وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ،
ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معي أصحاباً لي على
مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبיעهم وتحسن في ذلك .

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصدا ، فإن كعب لن ينكر معهما
السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار .

وفي ليلة مقمرة – ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ – اجتمعت هذه المفرزة إلى

رسول الله ﷺ ، فشيعهم إلى بقىع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً : انطلقا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يصلي ويناجي ربه .

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ، فقالت له امرأته - وكان حدث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتاً كأنه يقظره منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيّب ينفع رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشميه ، فإذا رأيتوني استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن تناشي إلى شعب العجوز فتشهد بقيمة ليلتنا ؟ قال : إن شتم ، فخرجوا يتناشون ، فقال أبو نائلة وهو في الطريق : ما رأيت كالليلة طيباً أعطرك فقط ، وزهي كعب بما سمع ، فقال : عندي أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أناذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم فأدخل يده في رأسه فشمها وأشم أصحابه .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لثلثها ، حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه ، فلما استمكنت منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئاً ، فأخذ محمد بن سلمة مغولاً فوضعه في ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع عدو الله قتيلاً ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفرزة حرقة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوققت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه ، حتى إذا بلغوا بقىع الغرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم ، فعرف أنهم قد قتلوا ، فكثير ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك

يا رسول الله . ورموا برأس الطاغية بين يديه ، فحمد الله على قتله ، وتغل على جرح الحارث فبراً ، ولم يؤذ بعده^(١) .

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيفة ، وعلموا أنّ الرسول ﷺ لن يتوازن في استخدام القوة حين يرى أن الصح لا يجدي نفعاً لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق ، فلم يحرکوا ساكناً لقتل طاغيتهم ، بل لزموا المدورة ، وتظاهرّوا بإيفاء العهود ، واستكأنوا ، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تخنيء فيها .

وهكذا تفرّغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفّف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجّسونها ، ويشعّون رائحتها بين آونة وأخرى .

* * *

غزوة بحران

وهي دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثة مقاتل ، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها بحران - وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حرباً^(٢) .

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمين قبل أحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣ هـ.

(١) أحذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٥١/٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وصحيحة البخاري ٣٤١/١ ، ٤٢٥ ، ٥٧٧/٢ ، وسنن أبي داود مع عون المعبود ٤٢/٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٩١/٢ .

(٢) ابن هشام ٥٠/٢ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٩١/٢ ، وختلفت المصادر في تعين سبب هذه الغزوة فقيل : إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أنّ بني سليم يخشدون قوات كبيرة لنزول المدينة أو أطْرافها ، وقيل : بل خرج يريد قريشاً ، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام وانختاره ابن القيم - حتى لم يذكر الأول رأساً - وهو الموجه ، وذلك لأنّ ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع ، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع .

وتفصيلها أن قريشاً بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها هم آخر

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي انتخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام - : إن محمدًا وصحابه عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمحنة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع ، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تكتب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام ، وتتر في شرق المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان - منبني بكر بن وائل - دليلاً له ، يكون رائده في هذه الرحلة .

وخرجت غير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أبناء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سليمان بن النعمان - وكان قد أسلم - اجتمع في مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشعري - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سليمان بن النبى ﷺ يروي له القصة .

وجهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له قردة - بالفتح فالسكنون - فاستولى عليها كلها ، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف ، قسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعدأخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ^(١) .

(١) ابن هشام ٥٠/٢ ، ٥١ ، فقه السيرة ص ١٩٠ ، رحمة للعالمين ٢١٩/٢ .

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش ، وزادتها هماً وحزناً . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تنتفع عن غطرستها وكبرياتها ، وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم ، وتقضي على قوات المسلمين ، بحيث لا يقوى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثار ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبة كاملة ، وتصفيتها على الغزو في ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التهديد القوي لمعركة أحد .

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحرق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف ، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر ، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلامهم في بدر ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسرى ؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين ، تشفى غيظها ، وتروي غلة حقدها ، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر ، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعيننا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً ، فأجابوا لذلك ، فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، وفي ذلك أنزل الله تعالى **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيِّئُونَ هَذَا هُمْ حَسَرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾** (٣٦: ٨) .

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساعدة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة ، وأخذوا بذلك أنواعاً من طريق التحرير ، حتى إن صفوان بن أمية أغوى أبي عزة الشاعر - الذي كان قد أسر في بدر فمنْ عليه رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه

العهد بأن لا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه ، وإن لا يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكّي حفائظهم ، كما اختاروا شاعرآ آخر - مسافع بن عبد مناف الجمحي - لنفس المهمة . وكان أبو سفيان أشد تأليباً على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السوق خائباً لم ينل ما في نفسه ، بل أضاع مقداراً كبيراً من ثمويناته في هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء ، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشاً أخيراً في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قبضت فقار اقتصادها ، وزودها من الحزن والهم ما لا يقدر قدره ، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والخلفاء والأحابيش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء ، حتى يكون ذلك أبلغ في استئثار الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس^(١) جنبوها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع .

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد ، يعاونه عكرمة بن أبي جهل ، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار .

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة ، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

(١) زاد المعد ٩٢/٢ وهو المعروف ، وفي فتح الباري مائة فرس ٣٤٦/٧ .

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة – التي تبلغ مسافتها إلى خمسة كيلو متراً – في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أباً بن كعب ، فأمره بالكتاب ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارئ:

وطلت المدينة في حالة استنفار عام ، لا يفارق رجالها السلاح ، حتى وهم في الصلاة ، استعداداً للطوارئ .

وقامت مفرزة من الأنصار – فيهم سعد بن معاذ ، وأسید بن حضير ، وسعد بن عبادة – بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح .

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ، خوفاً من أن يؤخذوا على غرة .

وقامت دوريات من المسلمين – لاكتشاف تحركات العدو – تتوجل حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين .

الجيش المكي إلى أسوار المدينة:

وتبع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء اقتربت هند بنت عتبة – زوج أبي سفيان – بنبش قبر أم رسول الله ﷺ ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحدروا من العوائق ال وخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادي العقيق ثم انحرف منه إلى ذات العين ، حتى نزل قريباً بجبل أحد في مكان يقال له عينين ، في بطن السبخة ، من قناة على

شفير الوادي - الذي يقع شمالي المدينة - فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاثة من الهجرة .

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خيراً بعد خبر ، حتى الخبر الأخير عن معسكره ، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى ، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف ، وأخبرهم عن رؤيا رآها ، قال : إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً يذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أنني أدخلت يدي في درع حصينة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلامة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيه إلى أصحابه أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدو ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأي . ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول - رئيس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين ، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفراً ونفاقهم يكمن وراءه ، ويعرف المسلمون في أخرج ساعتهم على الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة من فاته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج ، وألحوا عليه في ذلك ، حتى قال قائلهم : يا رسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جئنا عليهم .

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - الذي كان قد أروى فرنز سيفه في معركة بدر - فقد قال للنبي ﷺ : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة^(١) .

(١) السيرة الحلبية ١٤/٢ .

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأي الأغلبية ، واستقر الرأي على الخروج من المدينة ، واللقاء في الميدان السافر .

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالحمد والاجتهاد ، وأخير أن لهم النصر بما صرروا ، وأمرهم بالت瀛ؤ لعدوهم ، ففرح الناس بذلك .

ثم صلى الناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالى ، ثم دخل بيته ، ومعه أصحابه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه ، فتدجع بسلامه ، وظاهر بين درعين (أى ليس درعاً فوق درع) ، وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس يتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكراهم رسول الله ﷺ على الخروج ، فردو الأمر إليه ، فندموا جميعاً على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما شئت ، إن أحبيت أن تكتب بالمدينة فافعل . فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا ليس لأمته - وهي الدرع - أن يضعها ، حتى يحکم الله بينه وبين عدوه^(١) .

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاثة كتائب :

- (١) كتيبة المهاجرين ، وأعطي لواءها مصعب بن عمر العبدري .
- (٢) كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطي لواءها أسيد بن حضير .
- (٣) كتيبة الخزرج من الأنصار ، وأعطي لواءها الحباب بن المنذر .

وكان الجيش متالفاً من ألف مقاتل ، فيهم مائة دارع وخمسون فارساً^(٢) ، وقيل لم يكن من الفرسان أحد ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بن بقي في المدينة ، وأذن بالرحيل ، فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يدعوان دارعين.

(١) رواه أحمد والنمساني والحاكم وابن إسحاق .

(٢) قال ابن القيم في المدى ٢ ، ٩٢ . وقال ابن حجر : هو غلط بين . وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيول ، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة (فتح الباري ٣٥٠/٧) .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسلیح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها ، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج^(١) ، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين ، فسأل : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا . فألى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش :

وعندما وصل إلى مقام يقال له « الشیخان » استعرض جيشه ، فرد من استصغره ولم يره مطيناً للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد ، وأسید بن ظہیر ، وزید بن ثابت ، وزید بن أرقم ، وعراية بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وأبو سعيد الخدري ، وزید بن حارثة الأنصاري ، وسعد بن حبة ، ويدرك في هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حديثه في البخاري يدل على شهوته القتال ذلك اليوم .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمة بن جنبد على صغر سنها ، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه ، فقال سمرة : أنا أقوى من رافع . أنا أصرعه ، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه ، فتصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه أيضاً .

المبيت بين أحد والمدينة :

وفي هذا المكان أدركهم المساء ، فصل المغرب ، ثم صل العشاء ، وبات هناك ، وانتخب خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجلون حوله ، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري ، بطل سرية كعب بن الأشرف ، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة .

تمرد عبدالله بن أبي وأصحابه :

وبقي طلوع الفجر بقليل أدخل ، حتى إذا كان بالشوط صل الفجر ، وكان بمقربة جداً من العدو فقد كان يراهم ويرونوه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المناقق ، فانسحب ب نحو ثلث العسكرية - ثلاثة مقاتل - قائلاً : ما نdry علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

(١) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بني قينقاع (٣٤/٢) ومعلوم أن بني قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر .

ولا شك أن سبب هذا الانزوال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ ، وإنما لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى . بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره ، بل كان هدفه الرئيسي من هذا الترد – في ذلك الظرف الدقيق – أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى وسمع من عدوهم ، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ ، وتهار معنويات من يبقى معه ، بينما يتشرع العدو ، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر ، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه الخلصين ، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه ، فقد همت طائفتان – بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج – أن تفشلا ، ولكن الله تولاهما ، فثبتتا بعد ما سرى فيما الاضطراب وهما بالرجوع والانسحاب ، وعنهم يقول الله تعالى : ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَيْنِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيهِمَا وَعْلَى اللَّهِ فَلَتَوَلَّ كُلُّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣ : ١٢٢) .

وحاول عبد الله بن حرام – والد جابر بن عبد الله – تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق ، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع ، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً : أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله عنكمنبيه .

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَاتِلُوا لَوْ نَعْلَمْ قَاتِلًا لَا لَتَبْعَذَنَّكُمْ هُمْ لِلَّهِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ يَا أَفْوَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (٣ : ١٦٧) .

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا الترد والانسحاب قام النبي ﷺ بقيادة الجيش – وهم سبعمائة مقاتل – ليواصل سيره نحو العدو ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة ، فقال : « من رجل يخرج بنا على القوم من كتب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم » ؟ فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله ، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرةبني حارثة وبزارعهم ، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش في هذا الطريق بمحاط مربع بن قيظي – وكان منافقاً ضرير البصر – فلما أحسن بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : « لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر » .

ونفذ رسول الله ﷺ ، حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدو الوادي ، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة ، وجعل ظهره إلى هضاب جبل أحد ، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة .

خطة الدفاع:

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وهياهم صفوفاً للقتال ، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلاً ، وأعطي قيادتها عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأosi البدرى ، وأمرهم بالتركيز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناه – وعرف فيها بعد بجبل الرماة – جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي .

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائهم : « انصح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فثبتت مكانك لا نؤتين من قبلك »^(١) . ثم قال للرماء : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتمنا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمنا قد غنمنا فلا تشركونا »^(٢) ، وفي رواية البخاري أنه قال : « إن رأيتمنا تخطفنا الطير فلا تبرحو مراكعكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمنا هزمنا القوم ووطأناهم ، فلا تبرحو حتى أرسل إليكم »^(٣) .

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

(١) ابن هشام ٦٥/٢ .

(٢) روى ذلك أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس . انظر فتح الباري ٣٥٠/٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ٤٢٦/١ .

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد ، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدية والبسالة ، والذين يوزنون بالألاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً ، تتجل فيها عبرية قيادة النبي ﷺ العسكرية – وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا – فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فقد حمى ظهره ويعينه بارتفاعات الجبل ، وحمى ميسره وظهره – حين يختم القتال – بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي ، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمي به – إذا نزلت المزية بال المسلمين – ولا يلتجمئ إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم ، ويتحقق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وألحًا أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عوض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٢٣ هـ .

الرسول - ﷺ - ينفث روح البسالة في الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحضر أصحابه على القتال ، وحضهم على المصايرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه ، حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فقام إليه رجال يأخذوه – منهم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب – حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني ». قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطيه إياه .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يخال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل

يتبخرت بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : « إنها لمشية يغضها الله إلا في مثل هذا الوطن » .

تبعة الجيش المكي:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد – وكان إذ ذاك مشركاً – وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب – كما أسلفنا في أوائل المقالة – وكان لا يمكن لأحد أن ينزعهم في ذلك ، تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابرًا عن كابر ، بيد أن القائد العام – أبو سفيان – ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم ليستفرز غضبهم ويشير حمitem : يا بني عبد الدار ، قد وليت لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان في هدفه ، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبو سفيان أشد الغضب ، وهموا به وتوعدوه ، وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتو عند احتدام المعركة حتى أيدوا عن بكرة أبيهم .

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والتزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : « خلوا بيننا وبين ابن عمنا فنتصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم » ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار ردًا عنيفاً ، وأسمعواه ما يكره .

واقربت ساعة الصفر ، وتدانت الفتتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ،

فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو بن صيفي ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق ، وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعidan أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا عشر الأوس ، أنا أبو عامر . فقالوا : لا أنعم الله بك علينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة) .

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفرق بين صفوف أهل الإيمان ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهبيتهم ، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة .

جهود نسوة قريش في التحفيز:

وcameت نسوة قريش بنصيبيهن من المشاركة في المعركة ، تقدمن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فكن يتجلون في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، يستهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويثيرن حفائظ الأبطال ، ويحركن مشاعر أهل الطعن والضرب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

وَهَا بْنِي عَبْدِ الدَّارِ وَهَا جَمَّةُ الْأَدْبَارِ
ضَرِبًا بِكُلِّ بَتَارِ

وتارة يأذنُ قومهن على القتال وينشدن :

وَنَفَرَ شَمَارِقَ	إِنْ تَقْبِلُوا نَعْسَانَقَ
فَرَاقَ غَمَّارِقَ	أَوْ تَدْبِرُوا نَفَارِقَ

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمuan ، وتدانت الفتتان ، وبدأت مراحل القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتيبة ، خرج وهو راكب على جمل ، يدعوه إلى المبارزة ، فأحجم عنده الناس لفطر

شجاعته ، ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث ، حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه وذبحه بسيفه .

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع ، فكير وكير المسلمين ، وأثنى على الزبير ، وقال في حقه : إن لكل نبي حوارياً ، وحواري الزبير^(١) .

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين . فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إن على أهل اللواء حقاً أن تخضب الصعدة أو تندقا
فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كفه ، حتى
وصلت إلى سرته ، فباتت رئته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص باسم أصحاب حجرته ، فأدلع لسانه ومات لحيته . وقيل : بل خرج أبو سعد يدعوه إلى البراز ، فتقدمن إليه علي بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه علي فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلع باسم قتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتلته حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلع باسم قضى عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ، ثم حمله من بني عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتله علي بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قرمان – وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام – ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري ، فقتله قرمان أيضاً ، ثم حمله ولد لشريحبيل بن هاشم العبدري فقتله قرمان أيضاً .

(١) ذكره صاحب السيرة الخليلية ١٨/٢ .

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار - من حملة اللواء - أيدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء ، فتقديم غلام لهم جبشي - اسمه صواب - فحمل اللواء ، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يداه ، فبرك على اللواء بصدره وعنقه ؛ لثلا يسقط حتى قتل وهو يقول : اللهم هل أذرت ، يعني هل أذرت ^(١) .

وبعد أن قتل هذا الغلام - صواب - سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقي ساقطاً .

القتال في بقية النقاط:

ويبينا كان ثقل المعركة ، يدور حول لواء المشركين ، كان القتال المrier يجري في سائر نقاط المعركة ، وكانت روح الإيمان قد سادت صنوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تقطع أمامه السدود ، وهم يقولون « أمت ، أمت » ، كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد .

أقبل أبو دجانة معلمًا بعصابته الحمراء ، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ ، مصمماً على أداء حقه ، فقاتل حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وأخذ يهدى صنوف المشركين هذا . قال الزبير بن العوام : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمعنىيه ، وأعطيه أبي دجانة ، وقتلت أي في نفسي : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله فاتاه إياه وتركني ، والله لأنظرون ما يصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهمدني خليلي ونحن بالسفح لدى التخييل
أن لا أقوم الدهر في الكيول ^(٢) أضرب بسيف الله والرسول
 يجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه ،
 يجعل كل واحد منها يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقا ، فاختلفا

(١) كان بلسانه لكنه يقلب الذال إلى الزاي .

(٢) الكيول : آخر الصنوف . يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصنوف . بل يظل أبداً في المقدمة .

ضربيتين ، فضرب المشرك أبا دجابة فاتقاه بدرقه ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجابة فقتله^(١) . ثم أمعن أبو دجابة في هد الصحفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش ، وهو لا يدرى بها . قال أبو دجابة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمساً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجابة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم^(٢) .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهاجمة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال كما تطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء ، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين ؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو في مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهاً لوجه في ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام .

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب:

يقول قاتل حمزة وحشى بن حرب : كنت غلاماً لجبيـر بن مطعم ، وكان عمـه طعـيمـة بن عـدى قد أصـيب يوم بـدر ، فـلما سـارت قـريـش إـلى أـحد قالـ لي جـبـير : إـنـك إـنـ قـلتـ حـمـزةـ عـمـ مـحـمـدـ بـعـمـيـ فـأـنـتـ عـتـيقـ . قالـ : فـخـرـجـتـ مـعـ النـاسـ - وـكـنـتـ رـجـلاًـ جـبـشـياًـ أـقـذـفـ بالـحـرـبةـ قـذـفـ الـحـبـشـةـ قـلـماًـ أـخـطـىـءـ بـهـ شـيـئـاًـ - فـلـمـاـ التـقـىـ النـاسـ خـرـجـتـ أـنـظـرـ حـمـزةـ وـأـتـبـصـرـهـ ، حتى رـأـيـهـ في عـرـضـ النـاسـ مـثـلـ الـجـمـلـ الـأـورـقـ ، يـهـدـ النـاسـ هـدـاـ ماـ يـقـومـ لـهـ شـيـئـ ، فـوـالـلـهـ إـنـيـ لـأـتـيـأـ لـهـ أـرـيـدـهـ ، فـأـسـتـرـ مـنـهـ بـشـجـرـةـ أـوـ حـجـرـ لـيـدـنـوـ مـنـيـ ، إـذـ تـقـدـمـنـيـ إـلـيـهـ سـبـاعـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـىـ ، فـلـمـاـ رـأـهـ حـمـزةـ قـالـ لـهـ : هـلـمـ إـلـيـ يـاـ اـبـنـ مـقـطـعـةـ الـبـظـورـ - وـكـانـ أـمـهـ خـتـانـةـ - قـالـ : فـضـرـبـهـ ضـرـبةـ كـلـمـاـ أـخـطـأـ رـأـسـهـ^(٣) .

قال : وهـزـزـتـ حـرـبـتـ ، حتى إـذـ رـضـيـتـ مـنـهـ دـفـعـتـهـ إـلـيـهـ ، فـوـقـعـتـ فـيـ ثـنـةـ - أـحـشـائـهـ - حتى خـرـجـتـ مـنـ بـيـنـ رـجـلـيـهـ ، وـذـهـبـ لـيـنـوـ خـوـيـ فـلـبـ ، وـتـرـكـتـهـ وـإـيـاـهـاـ حـتـىـ مـاتـ ، ثـمـ أـتـيـهـ فـأـخـذـتـ

(١) ابن هشام ٦٨/٢ ، ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ٦٩/٢ .

(٣) أـخـطـأـ رـأـسـهـ ، يـقـالـ عـنـدـ الـمـبـالـغـةـ فـيـ الـإـصـابـةـ .

حربي ثم رجعت إلى العسكر ، فقعدت فيه ، ولم يكن لي بغیره حاجة ، وإنما قتلته لأعْتَق ، فلما
قدمت مكة عَتَقْتُ^(١).

السيطرة على الموقف:

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت بال المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فلّا عزائم المشركين ، وفت في أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة بن أبي عامر ، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق ، والذي مضى ذكره قريباً - كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب - وهو على امرأته - انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال ، أخذ يشق الصفوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضي عليه لو لا أن أتاهم الله له الشهادة ، فقد شد على أبي سفيان ، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت لفصيلة التي عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر ، حتى يتسرعوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقواهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث^(٢).

(١) ابن هشام ٦٩/٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، صحيح البخاري ٥٨٣/٢ - أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف ، وقتل مسلمة الكذاب بحربيته تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان .

(٢) انظر فتح الباري ٧/٣٤٦ .

الهزيمة تنزل بالمرتكبين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطرًا على الموقف كله ، حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن العين والشمال والأمام والخلف ، كان ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة وال毅ين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحسست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها – حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائهما ، الذي سقط بعد مقتل صواب ، فيحمله ليدور حوله القتال – فأخذت في الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسخت ما كانت تتحدث به في نفوسها منأخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم – سوق – هند بن عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير .. إلخ^(١) وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح : فلما لقيناهم هربوا ، حتى رأيت النساء يستددن في الجبل ، يرفعن سوقيهن قد بدت خلاخيلهن^(٢) . وتبع المسلمون المشركين ، يضعون فيهم السلاح ، وينتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينا كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر ، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً ، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بال المسلمين ، وكادت تكون سبباً في مقتل النبي ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى مؤلاء الرماة ، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة ، لكن على رغم هذه الأوامر

(١) ابن هشام ٧٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٧٩/٢ .

المشدة ؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتبهون غنائم العدو ، غلبت أثارة من حب الدنيا ،
قال بعضهم لبعض : الغنيمة ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ وقال : أنسٌتكم ما قال لكم
رسول الله ﷺ ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً ، وقالت : والله لنأتين الناس فلننصيبي من
الغنيمة^(١) . ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل ، والتحقوا بسواد الجيش ،
ليشاركونه في جمع الغنائم ، وهكذا خلت ظهور المسلمين ، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من
 أصحابه ، التزموا مواقعهم ، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا .

خالد بن الوليد يقوم بخطبة تطويق الجيش الإسلامي :

وانهزم خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ، فاستدار بسرعة خاطفة ، حتى وصل إلى
مؤخرة الجيش الإسلامي ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه ، ثم انقض على
المسلمين من خلفهم ، وصاح فرانشه صيحة عرف المشركون المهزمون بالتطور الجديد ، فانقلبوا
على المسلمين ، وأسرعت امرأة منهم – وهي عمّرة بنت علقة الحارثية – فرفعت لواء المشركون
المطروح على التراب ، فالتلف حوله المشركون ولاروا به ، وتنادى بعضهم بعضاً ، حتى اجتمعوا
على المسلمين ، وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمين من الأمام والخلف ، ووقعوا بين شفي الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله ﷺ حينئذ في مفرزة صغيرة – تسعة نفر من أصحابه^(٢) – في مؤخرة
المسلمين^(٣) ، كان يرقب بحالدة المسلمين ومطاردتهم المشركون ؛ إذ بوغت بفرسان خالد مbagatة
كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو – بالسرعة – بنفسه وب أصحابه التسعة إلى ملجاً
مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وأما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه
ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

(١) روى ذلك البخاري من حديث البراء بن عازب ٤٢٦/١ .

(٢) في صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .

(٣) يدل عليه قوله تعالى : والرسول يدعوكم في آخركم . (٣ : ١٥٣) .

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادي أصحابه : عباد الله ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم مخاطراً بنفسه في هذا الظرف الدقيق .

وفعلاً فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تعدد المسلمين في الموقف:

أما المسلمين فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركـت ساحة القتال ، وهي لا تدرـي ماذا وراءها ؟ وفر من هذه الطائفة بعضـهم إلى المدينة حتى دخلـها ، وانطلقـ بعضـهم إلى فوقـ الجبل ، ورجـعت طائفة أخرى فاختلطـتـ بالـمـشـرـكـينـ ،ـ والـتبـسـ العـسـكـرـانـ ،ـ فـلـمـ يـتـمـيزـواـ ،ـ فـوـقـ القـتـلـ فـيـ الـمـسـلـمـينـ بـعـضـهـمـ مـنـ بـعـضـ .ـ روـيـ الـبـخـارـيـ عـنـ عـائـشـةـ قـالـتـ :ـ لـمـ كـانـ يـوـمـ هـزـمـ الـمـشـرـكـونـ هـزـيمـةـ يـيـنةـ ،ـ فـصـاحـ إـبـلـيـسـ :ـ أـيـ عـبـادـ اللـهـ أـخـرـاـكـ -ـ أـيـ اـحـتـرـزـواـ مـنـ وـرـائـكـمـ -ـ فـرـجـعـتـ أـوـلـاهـمـ ،ـ فـاجـتـلـدـتـ هـيـ وأـخـرـاهـمـ ،ـ فـبـصـرـ جـذـيفـةـ ،ـ فـإـذـاـ هـوـ بـأـيـهـ الـيـانـ ،ـ فـقـالـ :ـ أـيـ عـبـادـ اللـهـ أـبـيـ أـبـيـ .ـ قـالـتـ :ـ فـوـالـلـهـ مـاـ اـحـتـجـزـوـ عـنـهـ حـتـىـ قـتـلـوـ ،ـ فـقـالـ حـذـيفـةـ :ـ يـغـفـرـ اللـهـ لـكـمـ ،ـ قـالـ عـرـوـةـ :ـ فـوـالـلـهـ مـاـ زـالـتـ فـيـ حـذـيفـةـ بـقـيـةـ خـيـرـ حـتـىـ لـحـقـ بـالـلـهـ^(١) .ـ

وهـذهـ الطـائـفـةـ حدـثـ دـاـخـلـ صـفـوفـهـ اـرـتـبـاكـ شـدـيدـ ،ـ وـعـمـتـهـ الـفـوضـىـ ،ـ وـتـاهـ مـنـهـ الـكـثـيـرـونـ ،ـ لـاـ يـدـرـونـ أـيـنـ يـتـوجـهـونـ ،ـ وـبـيـنـاـ هـمـ كـذـلـكـ إـذـ سـمـعـواـ صـائـحـاـ يـصـبـعـ :ـ إـنـ مـحـمـداـ قـدـ قـتـلـ .ـ فـطـارـتـ بـقـيـةـ صـوـابـهـ ،ـ وـانـهـارـتـ الـرـوـحـ الـمـعـنـوـيـةـ ،ـ أـوـ كـادـتـ تـنـهـارـ فـيـ نـفـوسـ كـثـيـرـ مـنـ أـفـرـادـهـ ،ـ فـتـوقـفـ مـنـ تـوقـفـ مـنـهـ عـنـ الـقـتـالـ ،ـ وـأـلـقـىـ بـأـسـلـحـتـهـ مـسـتـكـيـنـاـ ،ـ وـفـكـرـ آخـرـونـ فـيـ الـاتـصالـ بـعـدـ اللـهـ بـنـ أـبـيـ رـأـسـ الـمـنـافـقـينـ -ـ لـيـأـخـذـ لـهـ الـأـمـانـ مـنـ أـبـيـ سـفـيـانـ .ـ

وـمـرـ بـهـؤـلـاءـ أـنـسـ بـنـ النـضـرـ ،ـ وـقـدـ أـلـقـواـ بـأـيـدـيهـمـ فـقـالـ :ـ مـاـ تـنـتـظـرـوـنـ ؟ـ فـقـالـوـاـ :ـ قـلـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ الـلـهـ ،ـ قـالـ :ـ مـاـ تـصـنـعـوـنـ بـالـحـيـاـتـ بـعـدـهـ ؟ـ قـوـمـوـاـ فـمـوـتـوـاـ عـلـىـ مـاـ مـاتـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ،ـ ثـمـ

(١) صحيح البخاري ١/٥٣٩، ٢/٥٨١، ٧/٣٥١، ٣٦٢، ٣٦٣ وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقـتـ بـدـيـتـهـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ ،ـ فـزـادـ ذـلـكـ حـذـيفـةـ خـيـرـاـ عـنـ النـبـيـ ﷺ .ـ انـظـرـ مـخـتـصـرـ سـيـرـةـ الرـسـوـلـ للـشـيـخـ عـبـدـ اللـهـ النـجـدـيـ صـ٢٤٦ـ .ـ

قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، وأبراً إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فلقه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس : واهما لربيع الجنة يا سعد ، إني أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته – بعد نهاية المعركة – بينماه ، وبه بعض وثمانون ما بين طعنة برع ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم^(١) .

ونادى ثابت بن الدحداح قومه ، فقال : يا معشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل ، فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد ، فما زال يقاتلهم ، حتى قتله خالد بالرمح ، وقتل أصحابه^(٢) .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط في دمه ، فقال : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم^(٣) .

ويمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبي ، وأخذدوا سلاحهم ، يهاجمون تيارات المشركين ، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة ، وقدبلغهم أن خبر مقتل النبي عليه السلام كذب مخالق ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم ، فنجحوا في الإفلات عن التطويق ، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المريء ، وجالدوا بضراوة بالغة .

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله عليه السلام . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله عليه السلام ، وعمل التطويق في بدايته ، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة – عليه الصلاة والسلام والتحية – صاروا في مقدمة المدافعين .

(١) زاد المعاد ٩٣/٢ ، ٩٦ صحيح البخاري ٥٧٩/٢ .

(٢) السيرة الحلبية ٢٢/٢ .

(٣) زاد المعاد ٩٦/٢ .

احتدام القتال حول رسول الله - ﷺ :

وبينا كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق ، تطحن بين شقي رحى المشركين ، كان العراق مخدماً حول رسول الله ﷺ ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعه نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إلَيْ ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه ، فكرروا إلَيْه وهاجموه ، وما لوا إلَيْه بثقلهم قبل أن يرجع إلَيْه أحد من جيش المسلمين ، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ، ظهرت فيه نوادر الحب والتfanي والبسالة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أي القرشيين - ما أنصفنا أصحابنا^(١) .

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن ، قاتل حتى أثبته الجراحة فسقط^(٢) .

أخرج ساعة في حياة الرسول - ﷺ :

وبعد سقوط بن السكن بقي الرسول ﷺ في القرشيين فقط ، ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال : لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيها غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبي وقاص)^(٣) وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه ، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوق لشنه ، وأصبت رباعيته اليمني السفلي ، وكلمت شفته السفلية ، وتقدم إلَيْه عبد الله بن شهاب الزهري ، فشجه في

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ١٠٧/٢ .

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدنوه من رسول الله ﷺ ، فوسدَّ قدمه ، فمات ونحوه على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٢/٨١) .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٢٧ ، ٢/٥٨١ .

وجهه . وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة ، شكا لأجلها أكثر من شهر ، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجنته ضربة أخرى عنيفة كالأولى ، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله^(١) .

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته ، وشجع في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسرروا رباعيته وهو يدعوه إلى الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿لَيْسَ لِكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أُوْتَوْبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يَعْدِيهِمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٢) .

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله ، ثم مكت ساعة ثم قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(٣) . وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(٤) ، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون^(٥) .

ولا شك أن المشركين كانوا يهدرون القضاء على حياة رسول الله ﷺ ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة ، وقاتلوا ببسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتراكا – وهما اثنان فحسب – سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب ، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ .

فأما سعد بن أبي وقاص ، فقد تسل له رسول الله ﷺ كناته ، وقال : ارم فداك أبي وأمي^(٦) . ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد^(٧) .

(١) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة انصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمته ، فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح الباري ٣٧٣/٧) وعند الطبراني فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح الباري ٣٦٦/٧) .

(٢) صحيح البخاري ٥٨٢/٢ ، وصحيح مسلم ١٠٨/٢ .

(٣) فتح الباري ٣٧٣/٧ .

(٤) صحيح مسلم باب غزوة أحد ١٠٨/٢ .

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨١/١ .

(٦-٧) صحيح البخاري ١/٤٠٧ ، ٢/٥٨٠ ، ٢/٤٠٧ ، ٥٨١ .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار . قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : من القوم ، فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار ، وقتلهم واحداً بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم ، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة ، قال جابر : ثم قاتل طلحة قاتل الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه ، فقال : حسّ ، فقال النبي ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، قال : ثم رد الله المشركين^(١) . ووقع عند الحاكم في الإكيليل أنه جرح يوم أحد تسعًاً وثلاثين ، أو خمساً وثلاثين ، وشلت إصبعه ، أي السبابة والتي تليها^(٢) .

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد^(٣) .

وروى الترمذى أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ : « من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله »^(٤) .

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة^(٥) .

وقال فيه أبو بكر أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجحان وبؤأت المها العينا^(٦)
وفي ذلك الظرف الدقيق وال الساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، ففي الصحيحين عن سعد . قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيضاء ، كأشد القتال ، ما رأيتما قبل ولا بعد . وفي رواية يعني جبريل وميكائيل^(٧) .

(١) فتح الباري ٣٦١/٧ ، وسنن النسائي ٥٢/٢ ، ٥٣ .

(٢) نفس المصدر الأول ٣٦١/٧ .

(٣) صحيح البخاري ١/١ ، ٥٢٧/٢ ، ٥٨١/٢ .

(٤) مشكاة المصايف ٥٦٦/٢ ، ابن هشام ٨٦/٢ .

(٥) فتح الباري ٣٦١/٧ .

(٦) مختصر تاريخ دمشق ٨٢/٧ (من هامش شرح شذور الذهب ص ١١٤) .

(٧) صحيح البخاري ٢/٥٨٠ .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول - ﷺ :

وَقَعَتْ هَذِهِ كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ فِي لَحْظَاتٍ خَاطِفَةٍ . وَإِلَّا فَالْمَصْطَفَوْنَ الْأُخْيَارُ مِنْ صَاحْبَهِ ﷺ - الَّذِينَ كَانُوا فِي مَقْدِمَةِ صَفَوْفِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْقِتَالِ - لَمْ يَكَادُوا يَرَوْنَ تَطْوِيرَ الْمَوْقَفِ ، أَوْ يَسْمَعُونَ صَوْتَهِ ﷺ ، حَتَّى أَسْرَعُوهُ إِلَيْهِ ؛ لَعْلًا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ يَكْرَهُونَهُ ، إِلَّا أَنَّهُمْ وَصَلَوْا وَقَدْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا لَقِيَ مِنَ الْجَرَاحَاتِ - وَسَتَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قُدِّمُوا قَدْ قُتِلُوا ، وَالسَّابِعُ قَدْ أَثْبَتَهُ الْجَرَاحَاتُ ، وَسَعْدُ وَطَلْحَةُ يَكَافِحُانَ أَشَدَّ الْكَفَاحِ - فَلَمَّا وَصَلَوْا أَقَامُوا حَوْلَهُ سِيَاجًا مِنْ أَجْسَادِهِمْ وَسَلَاحِهِمْ ، وَبَالْغُوا فِي وَقَايَتِهِ مِنْ ضَرَبَاتِ الْعُدُوِّ ، وَرَدَ هَجْمَاتِهِمْ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ هُوَ ثَانِيهِ فِي الْغَارِ أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

رَوَى ابْنُ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ أَبُو بَكْرُ الصَّدِيقِ لِمَا كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ انْصَرَفَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَكَنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ إِلَيْهِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدِيهِ رَجُلًا يَقْاتِلُ عَنْهُ وَيَحْمِيهِ ، قَلْتُ : كَنْ طَلْحَةً ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ، كَنْ طَلْحَةً ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ أَدْرِكَنِي أَبُو عَبِيدَةَ بْنَ الْجَرَاحِ ، وَإِذَا هُوَ يَشْتَدُّ كَأْنَهُ طَيْرٌ ، حَتَّى لَحْقَنِي ، فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَإِذَا طَلْحَةُ بَيْنَ يَدِيهِ صَرِيعًا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « دُونُكُمْ أَحَاقِمْ قَدْ أَوْجَبْ » ، وَقَدْ رَمَيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ ، حَتَّى غَابَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلْقِ الْمَغْفِرَةِ فِي وَجْهِهِ ، فَذَهَبَتْ لِأَنْزَعَهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ : نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي . قَالَ : فَأَخْذَ بِفِيهِ ، فَجَعَلَ يَنْضَضُهُ كَرَاهِيَّةً أَنْ يَؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . ثُمَّ اسْتَلَ السَّهْمَ بِفِيهِ ، فَنَدَرَتْ ثَنِيَّةٌ أَبِي عَبِيدَةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ثُمَّ ذَهَبْتُ لِأَخْذِ الْآخِرِ ، فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ : نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي . قَالَ فَأَخْذَهُ فَجَعَلَ يَنْضَضُهُ حَتَّى اسْتَلَهُ ، فَنَدَرَتْ ثَنِيَّةٌ أَبِي عَبِيدَةَ الْآخِرِ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دُونُكُمْ أَحَاقِمْ ، قَدْ أَوْجَبْ » ، قَالَ : فَأَقْبَلْنَا عَلَى طَلْحَةَ نَعَالِجُهُ . وَقَدْ أَصَابَهُ بَعْضُ عَشْرَةِ ضَرْبَةٍ^(١) . (وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى مَدِى كَفَاءَةِ طَلْحَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الْكَفَاحِ وَالنَّضَالِ) .

وَخَلَالَ هَذِهِ الْلَّحْظَاتِ الْمُرْجَأَةِ اجْتَمَعَ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَصَابَةٌ مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْهُمْ أَبُو دَجَانَةَ ، وَمَصْعُبُ بْنِ عَمِيرٍ ، وَعَلَيْ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَسَهْلَ بْنِ حَنْيَفَ ، وَمَالِكَ بْنِ سَنَانِ وَالَّذِي أَبْيَ سَعِيدَ الْخَدْرِيَّ . وَأَمِّ عَمَّارَةَ نَسِيَّةَ بِنْتَ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةَ ، وَقَتَادَةَ بْنِ التَّعْمَانَ ، وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَابِ ، وَحَاطِبَ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَسَهْلَ بْنِ حَنْيَفَ ، وَأَبُو طَلْحَةَ .

(١) زَادَ المَعَادُ ٩٥/٢ .

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم ، وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها ، فجحشت ركبته ، وأخذ على بيده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، وقال نافع بن جبير : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً ، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ، ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه في ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا منوع . فخرجنا أربعة . فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك^(١) .

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة ، لم يعرف لها التاريخ نظيراً . كان أبو طلحة يسوز نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو . قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بمحفة له ، وكان رجلاً رامياً شديداً للتزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر معه بجعبه من النبل ، فيقول : « انثرها لأبي طلحة » . قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك^(٢) .

وعنه أيضاً قال : كان أبو طلحة يترس مع النبي ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ ، فينظر إلى موقع نبله^(٣) .

وقام أبو دجانة أمّام رسول الله ﷺ ، فترس عليه بظهره ، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك .

وبعد حاطب بن أبي بلتقة عتبة بن أبي وقاص - الذي يكسر الرباعية الشريفة - فضربه

(١) زاد المعاد ٩٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٨١/٢ .

(٣) نفس المصدر ٤٠٦/١ .

بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه . وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بائع رسول الله عليه السلام على الموت ، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين .

وكان رسول الله عليه السلام يباشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله عليه السلام رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها^(١) ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصييit يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله عليه السلام بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهم ، وجروح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فخرج .

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته حتى أنقاذه . فقال : « مجاه » . فقال : والله لا أمجأه أبداً . ثم أدرك يقاتل ، فقال النبي عليه السلام : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقتل شهيداً » .

وقاتلت أم عمارة ، فاعتبرضت لابن قمئة في أناس من المسلمين ، فضررها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف ، وضررت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها ، لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة ، يدافع عن النبي عليه السلام هجوم ابن قمئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برر عليه بصدره وعنقه حتى قتل ، وكان الذي قتلته هو ابن قمئة ، وهو يظن أنه رسول الله - لشبهه به - فانصرف ابن قمئة إلى المشركين ، وصاح : إن محمدًا قد قتل^(٢) .

إشاعة مقتل النبي - عليه السلام - وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياح دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبي عليه السلام في المشركين والمسلمين

(١) سيتها : ما عطف من طرفها .

(٢) انظر ابن هشام ٧٣/٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، وزاد المعاد ٩٧/٢ .

وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خفت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتل المسلمين .

الرسول - ﷺ - يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب أعطي رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب ، فقاتل قتالاً شديداً ، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولتهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم ، فعرفه كعب بن مالك - وكان أول من عرفه - فنادى بأعلى صوته : يا عشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن أصمت ؛ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون . إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون ، حتى تجمع حوله حوالي ثلاثين رجلاً من الصحابة .

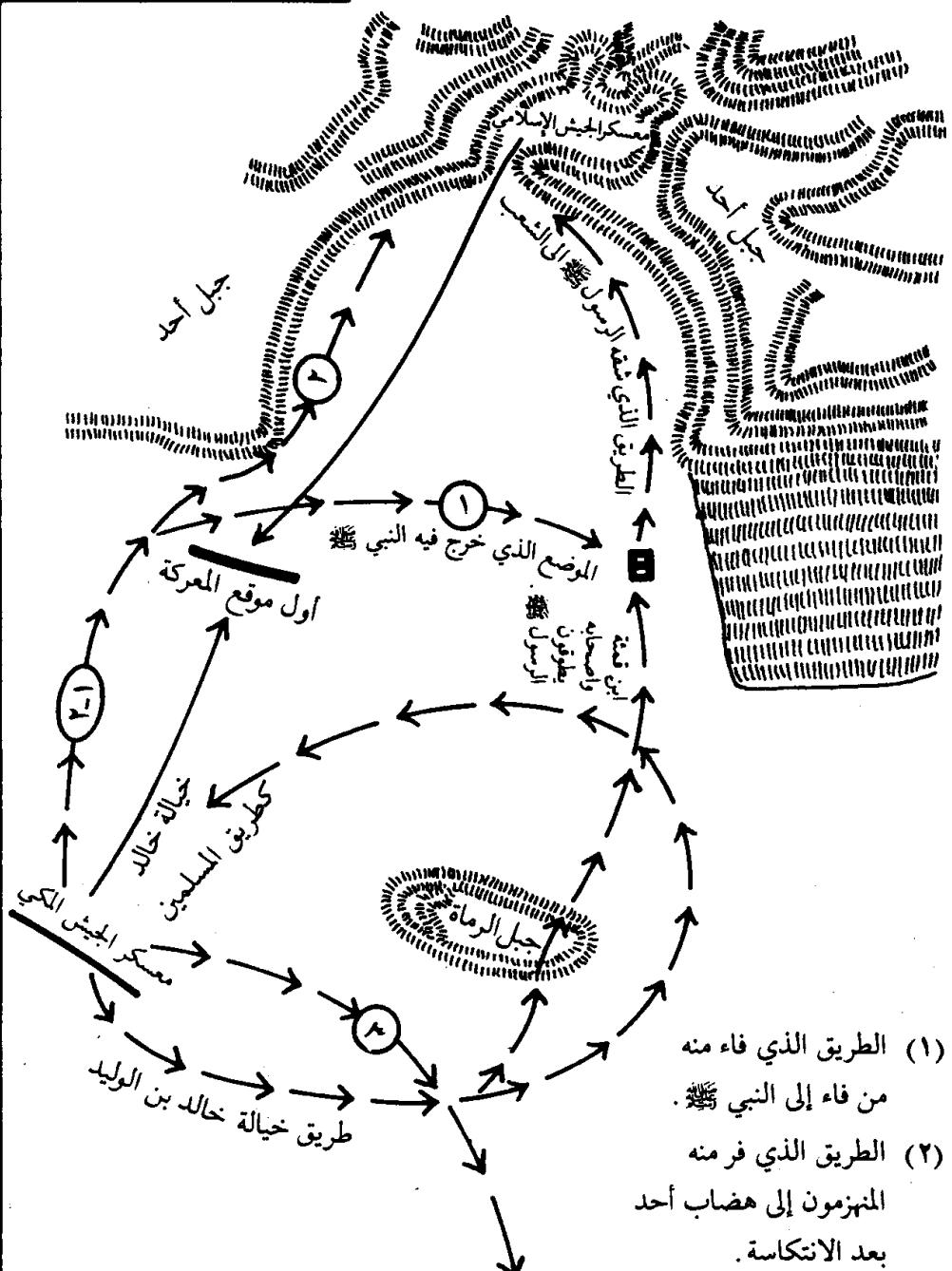
وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل ، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، و Ashton المشركون في هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدّم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله ﷺ مواجهته . إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر ، فنازله الحارث بن الصمة ، فضرب على رجله فأقعده ، ثم ذفف عليه ، وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه ، فجرحه حتى حمله المسلمون ، ولكن انقض أبو دجانة - البطل المغامر ذو العصابة الحمراء - على عبد الله بن جابر ، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المrier ، كان المسلمون يأخذهم العasca آمنة من الله ، كما تحدث عنه

خريطة غزوة أحد



القرآن . قال أبو طلحة : كنت فیمن تغشاه العاشر يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه^(١) .

ومثل هذه البسالة بلغت هذه الكتبية - في انسحاب منظم - إلى شعب الجبل وشق لبقة الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون ، فتلحق به في الجبل ، وفشل عقريه خالد أمام عقريه رسول الله ﷺ .

مقتل أبي بن خلف:

قال ابن إسحاق : فلما أرسن رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوت إن نجا ؟ . فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دعوه . فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انقض انتفاضة تطايروا عنه تطايير الشعر عن ظهر البعير إذا انقض ، ثم استقبله ، وأبصر ترقوته من فرجة بين ساقه الدرع والبيضة ، فطعنها فيها طعنة تبدأ - تدرج - منها عن فرسه مراراً ، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله إِنْ بَكَ مِنْ بَأْسٍ ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أُقتلك^(٢) فوالله لو بصرت على لقتلي ، فمات عدو الله بسرف ، وهم قافلون به إلى مكة^(٣) ، وفي رواية أبي الأسود عن عروة : أنه كان يخور خوار الثور ويقول : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعاً^(٤) .

طلحة ينهض بالنبي - ﷺ - :

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها

(١) صحيح البخاري ٥٨٢/٢ .

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبي هذا ، فيقول : يا محمد إن عندي العود فرساً أعلمه كل يوم فرقاً من ذرة ، أُقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ ، بل أنا أُقتلك إن شاء الله .

(٣) ابن هشام ٨٤/٢ ، زاد المعاد ٩٧/٢ .

(٤) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٠ .

ليعلوها ، فلم يستطع ، لأنَّه كان قد بَدَأَ وظاهر بين الدرعين ، وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليها وقال : أوجب طلحة^(١) ، أي الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب ؛ قام المشركون بأخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق : بينما رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ : اللهم إله لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل^(٢) .

وفي مغازي الأموي أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : أجبئهم - يقول : ارددهم - فقال : كيف أجبئهم وحدي ؟ فقال ذلك ثلاثة ، فأخذ سعد سهماً من كناته ، فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهماً أعرفه فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبيطوا من مكانهم ، قلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته في كناتي . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه^(٣) .

تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم ، وأخذدوا يتهيأون للرجوع إلى مكة ، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتل المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ، ويقررون البطون ، وبقررت هند بنت عتبة كبد حمزة ، فلاكتها فلم تستطع أن تسigliها ، فلفظتها ، وانخذلت من الآذان والأنوف خدماً - خلائيل - وقلائد^(٤) .

(١) ابن هشام ٨٦/٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) زاد المعاد ٩٥/٢ .

(٤) ابن هشام ٩٠/٢ .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفي هذه الساعة الأخيرة وقعت وقutan ، تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال ، ومدى استماتتهم في سبيل الله .

١ - قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتل المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع الأمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم^(١) ، وإذا رجل من المسلمين يتظاهر ، وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر بصربي ، فإذا الكافر أفضلهم عدة وهيبة ، فلم أزل أنتظراهم حتى التقى ، فضرب المسلم الكافر ضربة بلغت وركه وتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة^(٢) .

٢ - جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وأنهما لم يتمرتان - أرى خدم سوهما - تنزان القرب على متنهما ، تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملاهما ، ثم تحيطان فتفرغانه في أفواه القوم^(٣) . وقال عمر : كانت (أم سليط) تزور لنا القرب يوم أحد^(٤) .

وكانت في هؤلاء النساء أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يرتدون دخول المدينة ، أخذت تخوض في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وهلم سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقي الجرحى ، فرمها حبان (بالكسر) ابن العرقه بسهم ، فوقعت وتكتفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان ، فوقع مستلقياً حتى تكشف ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجهه ، ثم قال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته^(٥) .

(١) أي استجمعوا وانضموا .

(٢) البداية والنهاية ٤/١٧ .

(٣) صحيح البخاري ٤٠٣/١ ، ٥٨١/٢ .

(٤) نفس المصدر ٤٠١/١ .

(٥) السيرة الحلبية ٢٢/٢ .

بعد انتهاء الرسول - ﷺ - إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب ، حتى ملأ درقه الماء من المeras - قيل : هو صخرة منقرفة تسع كثيراً وقيل : اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحًا فعافه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه^(١) .

وقال سهل : والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء وما دووي ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلى بن أبي طالب يسكب الماء بالجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فالصقتها ، فاستمسك الدم^(٢) .

وجاء محمد بن مسلم بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبي ﷺ ، ودعاه بخير^(٣) ، وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح ، وصلى المسلمين خلفه قعوداً^(٤) .

شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهؤل المشركين للانصراف ، أشرف أبو سفيان على الجبل ، فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيئوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيئوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيئوه - وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال : أما هؤلاء فقد كفيتهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك ، فقال : قد كان فيكم مثلة لم أمر بها ولم تسئني .

ثم قال : اعمل هبل .

قال النبي ﷺ : ألا تجيئونه ؟ فقالوا : بما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

(١) ابن هشام ٨٥/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٨٤/٢ .

(٣) السيرة الحلبية ٣٠/٢ .

(٤) ابن هشام ٨٧/٢ .

ثم قال : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيسونه ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، وال Herb سجال .

فأجاب عمر ، وقال : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلناكم في النار .

ثم قال أبو سفيان : هلم إلی يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنسدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنك لستمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر^(١) .

مواعدة التلاقى في بدر:

قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل .

قال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينك موعد^(٢) .

التبث من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنحوا الخيل ، وامتنعوا الإبل فإنهم يريدون مكة .. وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقو الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسرى إليهم فيها ، ثم لأناجزهم . قال علي : فخررت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنحوا الخيل وامتنعوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة^(٣) .

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش . قال زيد بن ثابت : بعثني رسول

(١) ابن هشام ٩٣/٢ ، ٩٤/٢ ، زاد المعاد ٩٤/٢ ، صحيح البخاري ٥٧٩/٢ .

(٢) ابن هشام ٩٤/٢ .

(٣) ابن هشام ٩٤/٢ ، وفي فتح الباري أن الذي خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبي وقاص (٣٤٧/٧) .

الله عليه السلام يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله عليه السلام : كيف تجذك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو باخر رقم ، وفيه سبعون ضربة : ما بين طعنة برع ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، قلت : يا سعد ، إن رسول الله عليه السلام يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخربني كيف تجذك ؟ قال : وعلى رسول الله عليه السلام ، قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله عليه السلام وفيكم عين تطرف ، وفاقت نفسه من وقته^(١) .

ووجدوا في الجرحى الأصيرم - عمرو بن ثابت - وبه رقم يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباء ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سأله : ما الذي جاء بك ؟ أحدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام ؟ فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله عليه السلام حتى أصابني ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله عليه السلام ، فقال : هو من أهل الجنة . قال أبو هريرة : ولم يصل لله صلاة قط^(٢) .

ووجدوا في الجرحى قzman - وكان قد قاتل قاتل الأبطال ، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبته الجراحة ، فاحتملوه إلى داربني ظفر ، وبشره المسلمون فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولو لا ذلك ما قاتلت . فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكان رسول الله عليه السلام يقول : إذا ذكر له ، إنه من أهل النار^(٣) - وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفي جيش الرسول والصحابة .

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهودبني ثعلبة ، قال لقومه : يا معشر يهود والله لقد علمت أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالي محمد ، يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل ، فقال رسول الله عليه السلام : خير يرق خير يهود^(٤) .

(١) زاد المعاد ٩٦/٢ .

(٢) نفس المصدر ٩٤/٢ ، وابن هشام ٩٠/٢ .

(٣) نفس المصدر الأول ٩٧/٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، وابن هشام ٨٨/٢ .

(٤) ابن هشام ٨٨/٢ ، ٨٩ .

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء ، فقال : أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريمة يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيمة ، يدمى جرحه اللون لون الدم ، والربيع ريح المسك^(١) .

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فأمر أن يردوهم فيدفونهم في مضاجعهم ، وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود ، وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد ، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد ، ويقول : أئهم أكثر أخذنا للقرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيمة . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة^(٢) .

وفقدوا نعش حنظلة ، فتفقدوه ، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء ، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال : سلوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر . ومن هنا سمي حنظلة : غسيل الملائكة^(٣) .

ولما رأى ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتد حزنه ، وجاءت عمتها صفية تريد أن تنظر أنها حزنة ، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها ، لا ترى ما بأخيها ، فقالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأشرين إن شاء الله . فأتته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله ﷺ بدفعه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته ، وأخاه من الرضاعة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب ، وضعه في القبلة ، ثم وقف على جنازته ، وانتصب حتى نشع من البكاء^(٤) والنشع الشهيق .

(١) نفس المصدر ٩٨/٢ .

(٢) زاد المعاد ٩٨/٢ ، وصحيحة البخاري ٥٨٤/٢ .

(٣) زاد المعاد ٩٤/٢ .

(٤) رواه ابن شاذان ، انظر مختصر سيرة رسول الله ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٥ .

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء ، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإذخر^(١) .

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، وروي مثل ذلك عن خباب ، وفيه « فقال لنا النبي ﷺ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر »^(٢) .

الرسول - ﷺ - يثنى على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد ، لما كان يوم أحد وانكفا المشركون ، قال رسول الله ﷺ : استروا حتى أثني على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا منع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعم القيمة ، الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحياناً مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتوئين ، اللهم قاتل الكفراة الذين يكذبون رسالك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعداك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق^(٣) .

الرجوع إلى المدينة، ونواذر الحب والتفاني:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والشأن على الله والتضرع إليه انصرف راجعاً إلى

(١) رواه أحمد ، مشكاة المصايح ١٤٠/١ .

(٢) صحيح البخاري ٥٧٩/٢ ، ٥٨٤ .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، والإمام أحمد في مسنده ٤٢٤/٣ .

المدينة ، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة .

لقيته في الطريق حمنة بنت جحش ، فنعتها إليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت ولولت ، فقال رسول الله ﷺ : إن زوج المرأة منها لمكان^(١) .

ومر بأمرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحيين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعده جلل - تزيد صغيرة^(٢) .

وجاءت إليها أم سعد بن معاذ تدعو ، وسعد آخذ بلجام فرسه ، فقال : يا رسول الله أمي ، فقال : مرحباً بها . ووقف لها . فلما دنت عزازها بابتها عمرو بن معاذ . فقالت : أما إذ رأيتك سالماً ، فقد أشتويت المصيبة (أي استقللتها) . ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال : يا أم سعد أبشرني وبشر أهلكم أن قتلامهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهلكم جميعاً . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن ينكي عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبيتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا^(٣) .

الرسول - ﷺ - في المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ - إلى المدينة . فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : اغسل عن هذا دمه يا بنتي ، فوالله لقد صدقني اليوم . وناوحاً على بن أبي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً فاغسل عن دمه ، فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة^(٤) .

(١) ابن هشام ٩٨/٢ .

(٢) نفس المصدر ٩٩/٢ .

(٣) السيرة الحلبية ٤٧/٢ .

(٤) ابن هشام ١٠٠/٢ .

قتلى الفريقيين:

اتفق جل الروايات على أن قتل المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار ، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً ، واحد وأربعون من الخزرج ، وأربع وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتل المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً ، ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير ، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون . والله أعلم^(١) .

حالة الطوارئ في المدينة :

بات المسلمون في المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - بعد الرجوع عن معركة أحد - وهم في حالة الطوارئ ، باتوا - وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أي منال - يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدتهم الأعلى رسول الله عليه السلام خاصة ، إذ كانت تلاحقهم الشبهات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول عليه السلام وهو يفكر في الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي .

قال أهل المغازي ما حاصله : إن النبي عليه السلام نادى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أي يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبي : أركب مركب ؟ قال : لا ، واستجواب له المسلمين على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزدوج ، وقالوا : سمعاً وطاعة ،

(١) انظر ابن هشام ٢/١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ٢٥١/٧ ، فتح الباري

وغرفة أحد محمد أحمد باشميل ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠ .

واستأذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسول الله ، إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كت معك ، وإنما خلفني أبي على بناته ، فأذن لي ، أسير معك ، فأذن له .

وسار رسول الله ﷺ وال المسلمين معه ، حتى بلغوا حمراً الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسروا هناك .

وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الخلف ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك - فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبو سفيان فيخذه .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقاً ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبحتم شوكتم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجتمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتكم .

ويبدو أن هذا الرأي جاء سطحياً من لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرأً صحيحاً ، ولذلك خالفهم زعيم مسئول «صفوان بن أمية» ، قائلاً : يا قوم ، لا تفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أي من المسلمين في غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا الرأي رفض أمام رأي الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة ، ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبي معبد الخزاعي ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعناب دعائية عنيفة - : محمد ، قد خرج في أصحابه ، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : وبذلك ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

قال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإني ناصح .

وحيثند انهارت عزائم الجيش المكي ، وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة . ييد أن أبي سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي ، لعله ينفع في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وطبعاً فهو ينفع في الاجتناب عن لقائه ، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة ، وأوفر لكم راحتكم هذه زبيباً بعكاذاً إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم بحراء الأسد ، فأخبرهم بالذى قاله أبو سفيان ، وقالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهם ، فزادهم - أي زاد المسلمين قوله ذلك - إيماناً ﴿ وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَيَعْلَمُ الْوَكِيلُ ﴾ ١٧٣ فأنقلبوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمْسِهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أقام رسول الله ﷺ بحراء الأسد بعد - مقدمه يوم الأحد - الإثنين والثلاثاء والأربعاء - ٩/١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة . وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبو عزة الجمحى - وهو الذي كان قد من عليه من أسرى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على أن لا يظهر عليه أحداً ، ولكنه نكث وغدر ، فحضر الناس بشعره على النبي ﷺ وال المسلمين كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم في أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال : يا محمد أقلينى ، وامتن على ، ودعني لبني ، وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت ، فقال ﷺ : لا تensus عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمدًا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية إلى ابن عمته عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد

ثلاث قتله ، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً ، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قتلاه^(١) .

وما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، إنما هي جزء من غزوة أحد وتنتمي لها ، وصفحة من صفحاتها .

تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة ، هل كانت هزيمة أم لا ؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرین على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفصح ، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعاً ، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي ، لكن هناك أموراً تعنينا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين ، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يلتجيء إلى الفرار - مع الارتكاك الشديد والفوضى العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمعت حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي ، وأن أحداً من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام - كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال ، قبل أن يتركها المسلمون ، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال ، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، وكانت مفتوحة وخالية تماماً .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهما وجدوا فرصة ، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بال المسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٦٠ / ٢ إلى ١٢٩ ، وزاد المعاد ٩١ / ٢ إلى ١٠٨ ، وفتح الباري ٣٤٥ / ٧ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخاري ، ومحضر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧ ، وقد أحملنا على المصادر الأخرى في مواضعها .

بعد عمل التطويق - وكثيراً ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصراً وفتحاً فكلا وحاشا .

بل يؤكد لنا تعجيز أبي سفيان في الانسحاب والانصراف ؛ أنه كان يخاف على جيشه المعركة والهزيمة لو جرت صفحة ثلاثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكداً حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حراء الأسد .

وإذن بهذه الغزوة إنما كانت حرباً غير منفصلة ، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ، ثم حاد كل منهما عن القتال ، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة .

والى هذا يشير قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهْمُّوْا فِي أَبْيَغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَائِلَّمُوْنَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُوْنَ كَمَا تَأْلَمُوْنَ وَرَجُوْنَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُوْنَ﴾ (٤ : ١٠٤) فقد شبه أحد العسكريين بالآخر في واقع الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانوا مئتين ، وأن الفريقين رجعوا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

ونزل القرآن يلقي ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة ، ويدلي بتعليقات تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى التواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم في مثل هذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف التالية السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة ، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم ، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ، مع إزالة الشبهات والواسوس التي كانت تخليج بقلوب ضعفاء المسلمين ، والتي كان يشيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات الحمودة التي تمحضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبُوْيُ الْمُؤْمِنِيْنَ مَقْدِعَدَ لِلْقِتَالِ﴾ (٣ : ١٢١) وتترك في نهايتها تعليقاً جاماً على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ

عَلَّمَ أَنَّكُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْجِبِيلَ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلَعُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمِنْ رُسُلِهِ مَنِ يَشَاءُ فَمَا مِنْ أَبْرَارٍ إِلَّا هُوَ رَسُولٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَسْقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ (١٧٩: ٢).

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاماً^(١). وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشئم ارتکاب النبي ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تتبع وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسرموا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويع تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضم النفس ، وكسر الشامختها ، فلما ابتلي المؤمنون صبروا ، وجزع المنافقون . ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، ففيهم لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها . ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم . ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، ففيهم لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائهم ، فمحض بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين^(١).

(١) انظر زاد المعاد ٩٩/٢ إلى ١٠٨.

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين ، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبتهم عن النفوس ، وزادت المتابعة الداخلية والخارجية على المؤمنين ، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب ، وكاشف اليهود والمناقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تناول من المؤمنين ، بل طمعت في أن تقضي عليهم ، وتستأصل شأفتهم .

فلم يمض على هذه المعركة شهرين حتى تهافت بنو أسد للإغارة على المدينة ، ثم قامت قبائل عضيل وقاربة في شهر صفر سنة ٤ هـ بمكيدة ، سببها في قتل عشرة من الصحابة ، وفي نفس الشهر قامت بنو عامر بمكيدة مثلها ، سببها في قتل سبعين من الصحابة ، وتعرف هذه الواقعة بوعنة بئر معونة ، ولم تزل بنو نمير خالل هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٤ هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبي ﷺ ، وتحركات بنو غطفان ، حتى همت بالغزو على المدينة في جمادي الأولى سنة ٤ هـ .

فرفع المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين - إلى حين - يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هي حكمة محمد ﷺ التي صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والجد من جديد ، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حراء الأسد ، فقد حفظ بها مقداراً كبيراً من سمعة جيشه ، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمناقون في الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم ، بل زادت فيها ، وفي الصفحة الآتية شيء من تفاصيلها :

سرية أبي سلمة :

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة ، فقد نقلت استخبارات

المدينة أن طلحة وسلمة أبني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما ، يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ .

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلًا من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا في الأمر ، وأصاب المسلمين إبلًا وشاء لهم ، فاستاقوها ، وعادوا إلى المدينة سالين غائبين لم يلقوا حرباً .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة 4 هـ ، وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد ، فلم يلبث حتى مات^(١) .

بعث عبدالله بن أبي ابيه:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة 4 هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أبي ابيه ليقضي عليه .

وظل عبد الله بن أبي ابيه عن المدينة ثمانى عشرة ليلة ، ثم قدم يوم السبت لسبعين من المحرم ، وقد قتل خالداً وجاء برأسه ، فوضعه بين يدي النبي ﷺ ، فأعطاه عصا ، وقال : « هذه آية بيتي وبينك يوم القيمة ، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه »^(٢) .

بعث الرجيع:

وفي شهر صفر من نفس السنة - أي الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاماً . وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق وفي رواية البخاري أئمهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوبي - في قول ابن إسحاق وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء هذيل بناحية الحجاز

(١) زاد المعاد ١٠٨/٢ .

(٢) نفس المصدر ١٠٩/٢ ، وابن هشام ٦٢٠ ، ٦١٩/٢ .

بين رابع ونinthة - استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعوهم بقرب من مائة رام ، واقتضوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم - وكانوا قد جلأوا إلى فدفـ - وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا تقتل منكم رجلاً . فاما عاصم فأبا من النزول ، وقاتلهم في أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقي خبيب وزيد بن الدثنـة ورجل آخر فأعطوهـم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليـم ، ولكنـم غدرـوا بهـم وربطـوهـم بأوتـار قسيـمـ ، فقالـ الرجلـ الثالثـ : هذا أول الغـدرـ ، وأـلـىـ أنـ يـصـحـبـهـ ، فجـرـروـهـ وـعـالـجـوهـ عـلـىـ أـنـ يـصـحـبـهـ ، فـلـمـ يـفـعـلـ ، فـقـتـلـوهـ ، وـانـطـلـقـواـ بـخـبـيـبـ وـزيدـ فـبـاعـوـهـماـ بـمـكـةـ ، وـكـانـ قـلـاـ منـ رـؤـوسـهـمـ يـوـمـ بـدـرـ ، فـأـمـاـ خـبـيـبـ فـمـكـثـ عـنـهـمـ مـسـجـونـاـ ، ثـمـ أـجـمـعـواـ عـلـىـ قـتـلـهـ ، فـخـرـجـواـ بـهـ مـنـ الـحـرـمـ إـلـىـ التـنـعـيمـ ، فـلـمـ أـزـمـعـواـ عـلـىـ صـلـبـهـ قـالـ : دـعـونـيـ حـتـىـ أـرـكـعـ رـكـعـتـينـ ، فـتـرـكـوهـ فـصـلـاـهـماـ ، فـلـمـ سـلـمـ قـالـ : وـالـلـهـ لـوـلـاـ أـنـ تـقـولـواـ : إـنـ مـاـ بـيـ جـزـعـ لـرـدـتـ ، ثـمـ قـالـ : اللـهـمـ أـحـصـهـمـ عـدـدـاـ ، وـاقـتـلـهـمـ بـدـدـاـ ، وـلـاـ تـبـقـ مـنـهـمـ أـحـدـاـ ، ثـمـ قـالـ :

قـائـلـهـمـ وـاستـجـمـعـواـ كـلـ مـجـمـعـ
وـقـرـبـتـ مـنـ جـذـعـ طـوـيـلـ مـنـعـ
وـمـاـ جـمـعـ الأـحـزـابـ لـيـ عـنـدـ مـضـجـعـيـ
فـقـدـ بـضـعـواـ لـحـمـيـ وـقـدـ بـؤـسـ مـطـعـمـيـ
فـقـدـ ذـرـتـ عـيـنـايـ مـنـ غـيرـ مـدـعـ
عـلـىـ أـيـ شـقـ كـانـ فـيـ اللـهـ مـضـجـعـيـ
يـسـارـكـ عـلـىـ أـوـصـالـ شـلـوـ مـرـعـ

لـقـدـ أـجـمـعـ الأـحـزـابـ حـوـلـيـ وـأـلـبـواـ
وـقـدـ قـرـبـواـ أـبـنـاءـهـمـ وـنـسـاءـهـمـ
إـلـىـ اللـهـ أـشـكـوـ غـرـبـتـيـ بـعـدـ كـرـبـتـيـ
فـذـاـ عـرـشـ صـرـنـيـ عـلـىـ مـاـ يـرـادـ بـيـ
وـقـدـ خـيـرـوـنـيـ الـكـفـرـ وـالـمـوـتـ دـوـنـهـ
وـلـسـتـ أـبـالـيـ حـيـنـ أـقـتـلـ مـسـلـمـاـ
وـذـلـكـ فـيـ ذـاتـ إـلـهـ وـإـنـ يـشـأـ

فـقـالـ لـهـ أـبـوـ سـفـيـانـ : أـيـسـرـكـ أـنـ مـحـمـداـ عـنـدـنـاـ نـضـرـ بـعـنـقـهـ ، وـأـنـكـ فـيـ أـهـلـكـ ؟ـ فـقـالـ :
لـاـ وـالـلـهـ مـاـ يـسـرـنـيـ أـنـيـ فـيـ أـهـلـيـ وـأـنـ مـحـمـداـ فـيـ مـكـانـهـ الـذـيـ هـوـ فـيـهـ تـصـيـبـهـ شـوـكـةـ تـؤـذـيـهـ .

ثـمـ صـلـبـوـهـ وـوـكـلـوـهـ مـنـ يـحـرسـ جـثـتهـ ، فـجـاءـ عـمـرـوـ بـنـ أـمـيـةـ الـضـمـرـيـ ، فـاحـتـمـلـهـ بـخـدـعـةـ لـيـلـاـ ،
فـذـهـبـ بـهـ فـدـفـهـ ، وـكـانـ الـذـيـ تـولـىـ قـتـلـ خـبـيـبـ هـوـ عـقـبـةـ بـنـ الـحـارـثـ وـكـانـ خـبـيـبـ قـدـ قـتـلـ أـبـاهـ
حـارـثـاـ يـوـمـ بـدـرـ .

وـفـيـ الصـحـيـحـ أـنـ خـبـيـبـاـ أـوـلـ مـنـ الرـكـعـتـينـ عـنـدـ القـتـلـ ، وـأـنـهـ رـئـيـ وـهـوـ أـسـيـرـ يـأـكـلـ قـطـفـاـ مـنـ
الـعـنـبـ ، وـمـاـ بـمـكـةـ ثـمـةـ .

وأما زيد بن الدثة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظللة من الدبر - الزناير - فحملته من رسليهم ، فلم يقدروا منه على شيء . وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشركاً ، ولا يمس مشركاً ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته^(١) .

مأساة بئر معونة:

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة .

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؟ لرجوت أن يحببوا لهم ، فقال : « إني أخاف عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث معه أربعين رجلاً - في قول ابن إسحاق ، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذي في الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمعتق ليوت ، وكانتوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يحتطرون بالنهار ، يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بينبني عامر وحرة وبني سليم - فنزلوا هناك ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيلي ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أندلها فيه ورأى الدم قال حرام : الله أكبر ، فرت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لغورهبني عامر إلى قتال الباقيين ، فلم يحببوه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بني سليم ، فأجابته عصبية ورعل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد بن النجاشي ، فإنه ارث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم

(١) ابن هشام ١٦٩/٢ إلى ١٧٩ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، صحيح البخاري ٥٦٨/٢ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ .

على موضع الوعة ، فنزل المذعر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمري ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته ، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفضال المسلمين ، تذكر نكتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صادر قناة ، نزل في ظل شجرة وجاء رجالن من بني كلاب فنزلوا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخbir رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وخلفائهم اليهود^(١) ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير كما سيدكر .

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة^(٢) تألمًا شديداً ، وتغلب عليه الحزن والقلق^(٣) ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتوك في أصحابه ، ففي الصحيح عن أنس قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه بئر معونة ثلاثة صباحاً ، يدعوا في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصيبة ، ويقول : « عصبية عصت الله ورسوله » ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا فرقاً حتى نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قتوته^(٤) .

غزوة بني النضير:

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعاً من الحيل ، لإيقاع الإيذاء بال المسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ما كان بينهم وبين

(١) انظر ابن هشام ١٨٣/٢ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ .

(٢) ذكر الواقدي أن خبر أصحاب الرجيع وغير أصحاب بئر معونة أقى النبي ﷺ في ليلة واحدة .

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة « مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٠ .

(٤) البخاري ٥٨٦/٢ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

ال المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعةبني قينقاع ، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم ، فاستكانوا والتزموا المهدوء والسكوت .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذدوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سراً ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين^(١) .

وصبر النبي ﷺ ، حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعنوه في دية الكلابين اللذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري – وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة – فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس هنا حتى تقضي حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيومهم يتظرون وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه .

وخلال اليهود بعضهم إلى بعض ، وسؤال لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم ، فتآمروا بقتله ﷺ ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحي ، ويصعد فيلقها على رأسه يشدحه بها ؟ ... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام بن مشكם : لا تفعلوا ، فوالله ليخبرن بما هممت به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به ، فنهض مسرعاً ، وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك ، فأخبرهم بما همت به يهود .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن سلمة إلىبني النضير يقول لهم : اخرجوا من المدينة ولا تساكتوني بها ، وقد أجلتكم عشرأ ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه . ولم يجد يهود مناصأ من الخروج ، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبي – بعث إليهم أن اثبتوا وتنعوا ، ولا تخرجو من دياركم ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيما توتو دونكم ﴿لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَّنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيمَا كُمْ أَهَدَّ أَبَدًا وَإِنْ فُوَتَتْ مُنَصَّرَّنَّكُمْ﴾ وتنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتم ، واستقر رأيهم على المساواة ، وطبع رئيسهم حي بن أخطب فيها

(١) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ١١٦/٣ ، ١١٧ « عن المعبود شرح سنن أبي داود » .

قاله رأس المنافقين ، بعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

ولا شك أن الموقف كان حرجاً بالنسبة إلى المسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العاقب ، وقد رأيت كلَّ العرب عليهم ، وفتكتهم الشيع بعوشيهم ، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالكاره ، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً ، وضاعفت نقمتهم على مقتفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكن النتائج ..

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حي بن أخطب كبير وأكبر أصحابه ، ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم ، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم ، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، وكانت خيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفي ذلك يقول حسان :

وَهَانَ عَلَى سَرَّةِ بْنِ لَوَىٰ حَرِيقَ بِالْبَوِيرَةِ مُسْطَرِ
الْبَوِيرَةِ : اسْمُ لَنْخَلِ بْنِي النَّضِيرِ ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِسَنَةٍ أَوْ
رَكَّمْتُمْ هَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَيَأْذِنَ اللَّهُ﴾ (٥٩:٥٩) .

واعتزلتهم قريظة ، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً ، أو يدفع عنهم شراً ، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم :

﴿كَمِثْلِ الشَّيَطَنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ أَكَفَرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بِرَبِّيءٍ مِنْكَ﴾ (١٦:٥٩) .

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام وإلقاء السلاح ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج عن المدينة ، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفسهم وذرارتهم ، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

نزلوا على ذلك ، وخرروا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشباك ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاب وجدو السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستائة بعير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلم بن أبي الحقيق إلى خير ، وذهب طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم ، فوجد من السلاح خمسمائة درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً .

وكانت أموال بني النضير وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ، يضعها حيث يشاء ، ولم يخسها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمين عليها بخيلاً ولا ركاب ، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبو دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما ، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله .

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٢٥ م وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفيء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض ، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير^(١) .

غزوة نجد:

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون – في غزوة بني النضير – دون تضحيات توطد سلطانهم في المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران^(٢) ، وبليغت بهم الحرجة إلى أن أرادوا القيام بغير غزوة على المدينة .

(١) ابن هشام ١٩٠/٢ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، زاد المعاد ٧١/٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٧٤/٢ ، ٥٧٥ .

(٢) كلمة حمد الغزالى في فقه السيرة ص ٢١٤ .

فقبل أن يقوم النبي ﷺ بتأديب أولئك الغادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحسند جموع البدو والأعراب من بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان ، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج ، يجوس فيافي نجد ، ويلقي بذور الخوف في أ Qaeda أولئك البدو القساة ؟ حتى لا يعودوا منا كرهم التي ارتكبواها مع المسلمين .

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بقدم المسلمين إلا حذروا وتمعوا في رؤوس الجبال . وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازي والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون في أرض نجد في شهر ربيع الثاني أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلا شك فيه . وهذا الذي كانت تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التي كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب ، وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردتهم وغضرنهم ، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب – لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعاً ، بل كان لا بد من خضد شوكتهم ، وكف شرهم قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة التي كانوا يتوقعون وقوعها في رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التي قادها الرسول ﷺ في ربيع أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هي غزوة الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدتها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما . وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام ، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وافق النبي ﷺ بخيير . وإذاً فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف في غزوة عسفان ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق في أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانية:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكففوا شرهم ، أخذوا يتجهزون للاقتلة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش – في غزوة أحد – وحق

محمد ﷺ وصحابه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء^(١) .

ففي شعبان سنة ٤ هـ ينایر سنة ٦٢٦ مـ ، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواهه علي بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر ، فأقام بها يتظاهر المشركين .

وأما أبو سفيان ، فخرج في ألفين من مشركى مكة ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة - ماء في تلك الناحية .

خرج أبو سفيان ، من مكة متباشلاً ، يفكر في عقى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب ، واستولت على مشاعره الهيبة ، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع ، وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنني راجع فارجعوا .

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً ، فقد رجع الناس ولم يبدوا أي مصادمة لهذا الرأي وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيئتهم في النفوس وسادوا على الموقف .

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة وبدر الصغرى^(٢) .

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعرف بذلك الموالون والمعادون .

(١) كلمة محمد الغزالى في فقه المسيرة ٣١٥ .

(٢) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢١٠ ، ٢٠٩/٢ ، زاد المعاد ١١٢/٢ .

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل – قريباً من الشام – تقطع الطريق هناك ، وتهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جماعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ هـ ، وأخذ رجلاً منبني عذرة دليلاً للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكتمن النهار ؛ حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعايهم ، فأصاب من أصحاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ، وأقام رسول الله ﷺ أيامأ ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن ، ودومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام ، بينما وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإقدامات السريعة الخامسة ، وبهذه الخطط الحكيمـة الخازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن ، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتحفيـيف المتابعـ الداخـلـية والخارجـية التي كانت قد تـوالتـ عليهم ، وأحاطـهمـ من كلـ جانب ، فقد سـكتـ المنـافقـونـ واستـكانـواـ ، وتمـ إجلـاءـ قـبيلـةـ منـ اليـهـودـ ، وبـقيـتـ الأـخـرىـ تـظـاهـرـ بـإـيـفاءـ حقـ الجـوارـ وبـإـيـفاءـ العـهـودـ وـالـمـوـاثـيقـ ، واستـكانـتـ الـبـدوـ وـالـأـعـرـابـ ، وـحدـاتـ قـريـشـ عنـ مـهـاجـمةـ المسلمينـ ، وـوـجـدـ المـسـلـمـونـ فـرـصـةـ لـإـفـشـاءـ إـلـاسـلـامـ وـتـبـلـيـغـ رسـالـاتـ ربـ العـالـمـينـ .

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن ، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود – الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم – لم يفيقوا من غيهم ، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر ، فبعد نفيهم إلى خير ظلوا ينتظرون ما يحل بال المسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين . ولما تحول مجرب الأيام لصالح المسلمين ، وتم خضضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم ، وتوطد سلطانهم ، تحرق هؤلاء اليهود أي تحرق .

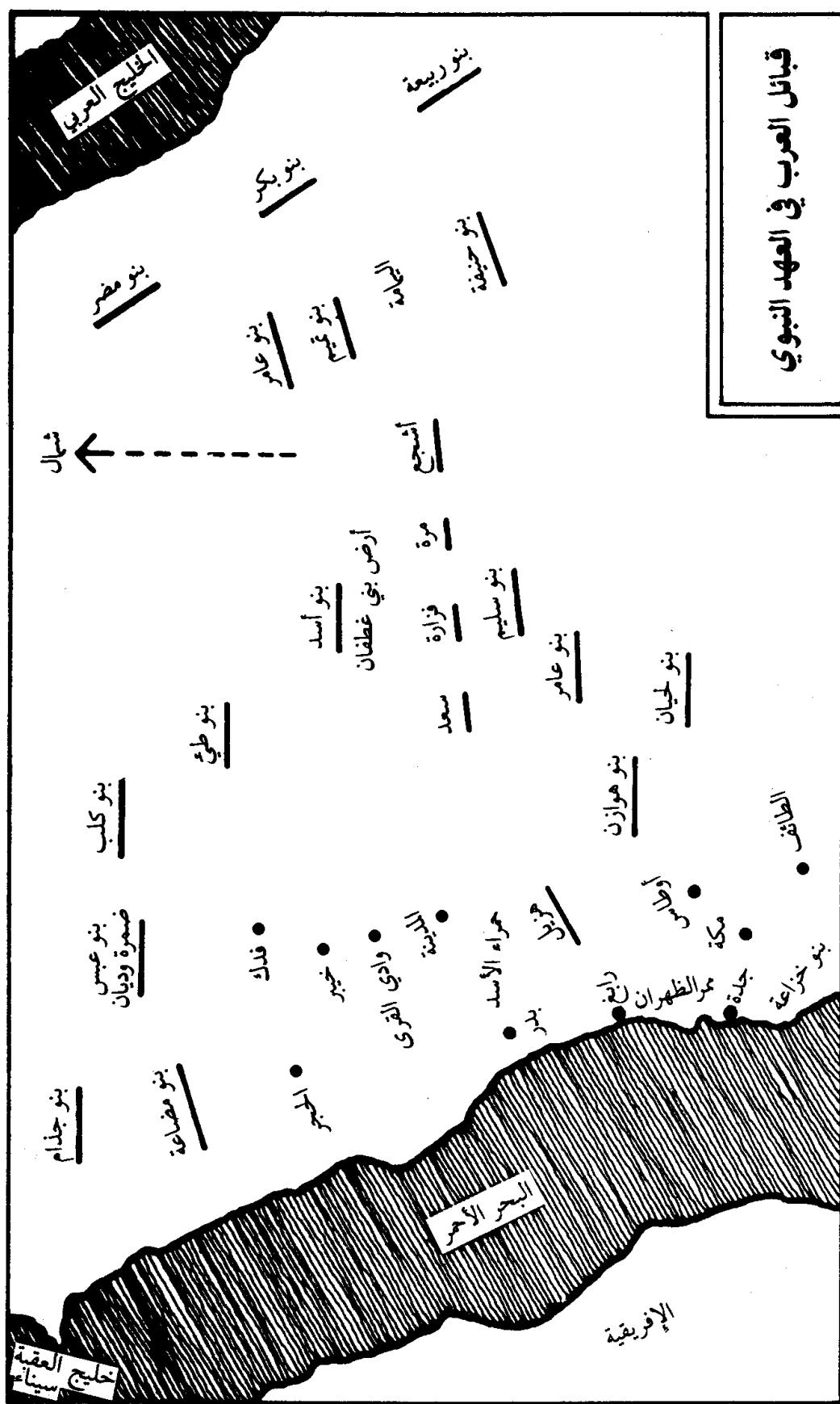
وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدون العدة ، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة ، يعرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويتوالونهم عليه ، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم ، فأجابتهم قريش ، وقريش قد أخلفت وعدها في الخروج إلى بدر ، فرأى في ذلك إنقاذه سمعتها والبر بكلمتها .

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً ، فاستجابوا لذلك ، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك ، فاستجاب له من استجاب ، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعوته والمسلمين .

وفعلاً خرجت من الجنوب قريش وكناة وحلفاؤهم من أهل تهامة – وقادتهم أبو سفيان – في أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم عبر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزارة ،

قبائل العرب في العهد النبوي



يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث بن عوف ، وبنو أشجع يقودهم مسرع بن رخيلا كا خرجت بني أسد وغيرها .

واتجهت هذه الأحزاب ، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه . وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش رما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ .

ولو بلغت هذه الأحزاب المخبزة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغية لكان أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس ، ربما تبلغ إلى استئصال الشافة وإبادة الخضراء ، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة ، تتجسس الظروف ، وتقدر ما يتم خوض عن مجرها ، فلم تكدر تحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الرمح الخطير .

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى ، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى ، اتفقوا على قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضي الله عنه . قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا – وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك – .

واسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً .

وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا ، ففي البخاري عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا^(١) ، فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار^(٢)
وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

(١) أكتادنا : بالمنتهى جمع كَتِد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢ .

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والهاجرة
قالوا مجبن له :

نَحْنُ الَّذِينَ بَسَيَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجَهَادِ مَا بَقِيَنَا أَبَدًا^(١)
وَفِيهِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : رَأَيْتَهُ عَلَيْهِ سَلَامٌ يَنْقُلُ مِنْ تَرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارِيَ عَنِ الْغَبَارِ
جَلْدَةً بَطْنَهُ ، وَكَانَ كَثِيرُ الشِّعْرِ ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلْمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التَّرَابِ ،
وَيَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدِينَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
قَالَ : ثُمَّ يَمْدُ بِهَا صَوْتَهُ بَآخِرِهَا ، وَفِي رِوَايَةٍ :

إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فَتْنَةً أَيْتَنَا^(٢)
كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ بِهَذَا النِّشَاطِ وَهُمْ يَقْاسِوُنَ مِنْ شَدَّةِ الْجُوعِ ، مَا يَفْتَنُ الْأَكْبَادَ قَالَ
أَنْسٌ : (كَانَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ) يَؤْتُونَ بَمْلُءَ كَفِيَّ مِنَ الشَّعِيرِ ، فَيَصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَيِّنَةً^(٣) تَوْضِعُ
بَيْنَ يَدِيِ الْقَوْمِ ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ ، وَهِيَ بَشْعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَهَا رَيْحُ مَنْ .

وَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ الْجُوعَ فَرَفَعْنَا عَنْ بَطْوَنَنَا عَنْ حَجْرٍ حَجْرٍ ،
فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ حَجْرَيْنِ^(٤) .

وَبِهَذِهِ الْمَنْاسِبَةِ وَقَعَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ آيَاتٍ مِنْ أَعْلَامِ النَّبُوَةِ ، رَأَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي
النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَصَاً شَدِيدًا ، فَذَبَحَ بَهِيمَةً وَطَحَنَتْ امْرَأَتُهُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ ثُمَّ التَّمَسَّ مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَرًا أَنْ يَأْتِي فِي نَفْرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَمِيعِ أَهْلِ الْخَنْدَقِ ، وَهُمْ
أَلْفٌ فَأَكَلُوا مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ وَشَبَعُوا ، وَبَقِيَتْ بِرْمَةُ الْلَّحْمِ تَغْطِيهُ كَاهِي ، وَبَقِيَ الْعَجِينُ يَخْبِزُ كَاهِي

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ٥٨٩/٢ .

(٣) نفس المصدر ٥٨٨/٢ . وَإِهَالَةً : الْدَّهْنُ الَّذِي يَؤْتَدُمُ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ زَيَّاً أَوْ سَمَّاً أَوْ شَحْمًا سَيِّنَةً : أَيْ تَغْيِيرُ
طَعْمِهَا وَلَوْنِهَا مِنْ قَدْمَهَا .

(٤) رواه الترمذى مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢ .

هو^(١) . وجاءت أخت النعمان بن بشير بمحنة من تم إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله ، فمرت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه . وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثوب^(٢) .

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال : إنا يوم الخندق نخفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر – ولبست ثلثة لا نذوق ذواقاً – فأخذ النبي ﷺ المعلول ، فضرب فعاد كثيراً أهيل أو أهيم^(٣) ، أي صار رملأ لا يتاسب .

وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها العاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعلول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآخر ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمين ، والله إني لأبصر أبواب صناعه من مكانه^(٤) .

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رضي الله عنه^(٥) .

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من التحليل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبي ﷺ يعلم كخير عسكري حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومحاجمة المدينة – لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق في هذا الجان .

وواصل المسلمون عملهم في حفره ، فكانوا يحفرون طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم في

(١) روى ذلك البخاري ٥٨٨/٢ ، ٥٨٩ .

(٢) ابن هشام ٢١٨/٢ .

(٣) صحيح البخاري ٥٨٨/٢ .

(٤) سنن النسائي ٥٦/٢ ، وأحمد في مسنده واللفظ ليس للنسائي ، وفيه عن رجل من الصحابة .

(٥) ابن هشام ٢١٩/٢ .

المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمم إلى أسوار المدينة^(١) .

وأقبلت قريش في أربعة آلاف ، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الحرف وزعابة ، وأقبلت غطfan ومن تعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد .

﴿ وَلَمَّا رَأَهُ الْمُؤْمِنُونَ أَلْأَحْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسَلِيمًا ﴾ (٣٣ : ٢٢) .

وأما المافقون وضعفاء النفوس فقد ترعرعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿ وَلَذِي قُولُ الْمُنْفَقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣٣ : ١٢) .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصلنا به ، والخندق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم « حم لا ينصرون » ، واستختلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها ، فالت杰أوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب ، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً ، يتحسرون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها ، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل ، حتى لا يجرئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتسموه ، أو يهليوا عليه التراب ، ليتبوا به طريقاً يكتمل لهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدو في ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فاتدب له علي بن أبي طالب ، وقال

(١) نفس المصدر ٣٣٠ / ٣ ، ٣٣١ .

كلمة حمي لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي ، فتجاولا وتصاولا ، حتى قتله علي رضي الله عنه ، وانهزم الباقيون حتى اقتحموا من الخندق هاربين ، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو . وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة ، لاقتحام الخندق ، أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلواهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ وال المسلمين ، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق ، فجعل يسب كفار قريش . فقال : يا رسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبي ﷺ : « والله ما صليتها » ، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان ، فتوضاً للصلوة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب^(١) .

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلوة حتى دعا على المشركين ، ففي البخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس^(٢) .

وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حبسوا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فصلاهن جميعاً . قال الترمذى : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام ، وهذا في بعضها . انتهى^(٣) .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياماً ، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيшиين لم يجر بينما قتال مباشر وحرب دامية ، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة .

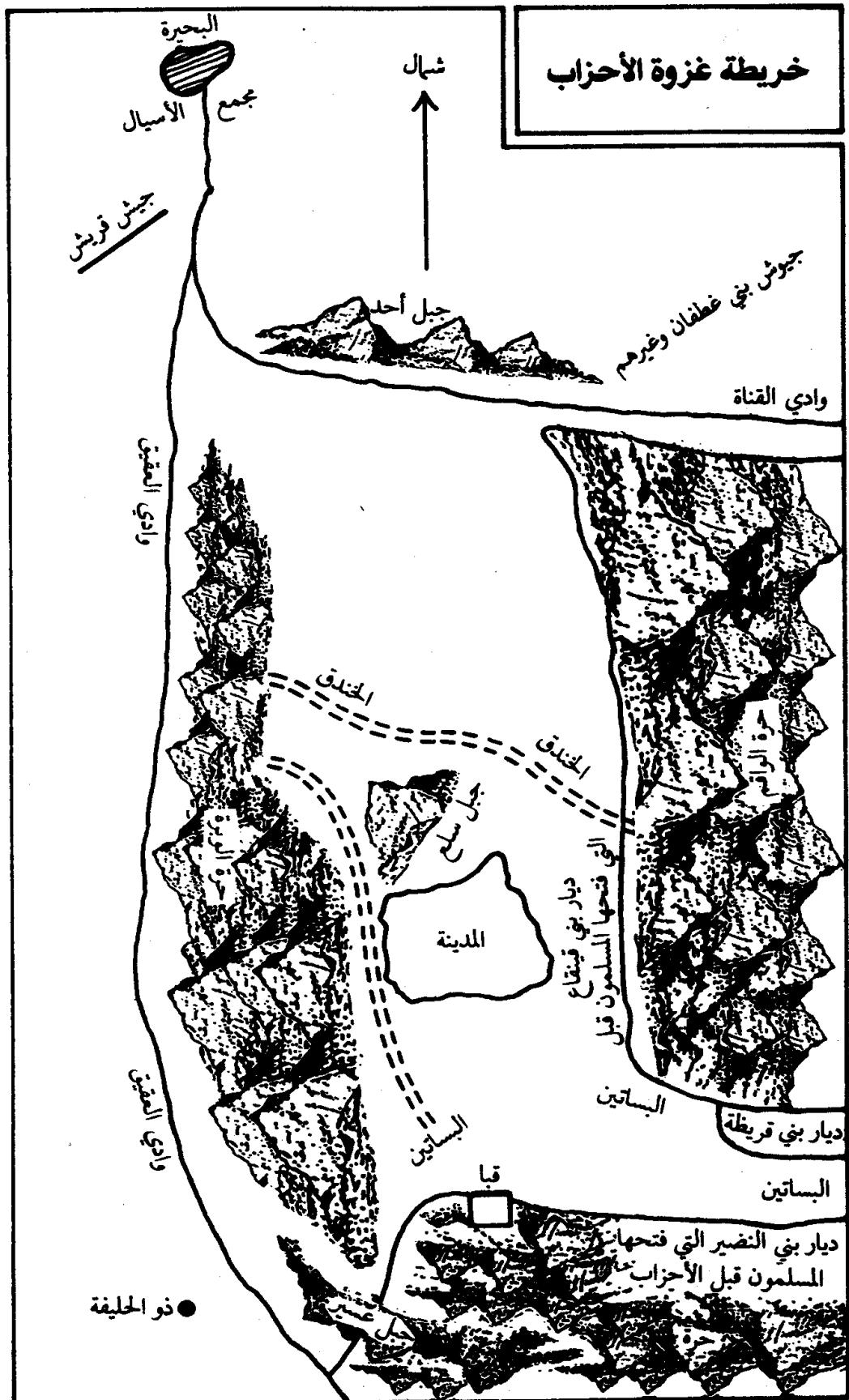
وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيшиين ، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٨٧ ، وشرح مسلم لل النووي ١/٢٢٧ .

خريطة غزوة الأحزاب



وفي هذه المراマة رُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة ، فدعا سعد : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقي لهم ؛ حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتني فيها^(١) . وقال في آخر دعائه : ولا تمني حتى تقر عيني من بني قريظة^(٢) .

وبينا كان المسلمون يواجهون هذه الشدائـد على جبهـة المعركة كانت أفاعـي الدس والتـامر تقلبـ في جحورـها ، تـريد إـصال السـم داخل أجـسادـهم . انطلقـ كـبير مجرـمي بـني النـضـير إلى دـيارـ بـني قـريـظـة ، فـأـتـيـ كـعبـ بـنـ أـسـدـ القـرـطـيـ - سـيدـ بـني قـريـظـةـ ، وـصـاحـبـ عـقـدـهـمـ وـعـهـدـهـ ، وـكـانـ قدـ عـاـقـدـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـىـ اللـهـ عـلـىـ أـنـ يـنـصـرـهـ إـذـ أـصـابـتـهـ حـرـبـ كـاـنـ تـقـدـمـ - فـضـرـبـ عـلـيـهـ حـيـ الـبـابـ ، فـأـغـلـقـهـ كـعبـ دـوـنـهـ ، فـمـاـ زـالـ يـكـلـمـهـ حـتـىـ فـتـحـ لـهـ بـابـهـ ، فـقـالـ حـيـ : إـنـيـ قـدـ جـثـتـكـ يـاـ كـعبـ بـعـ الدـهـرـ وـبـحـ طـامـ ، جـثـتـكـ بـقـريـظـةـ عـلـىـ قـادـتـهـاـ وـسـادـتـهـاـ ، حـتـىـ أـنـزـلـتـهـمـ بـمـجـمـعـ الـأـسـيـالـ مـنـ رـوـمـةـ ، وـبـغـطـفـانـ عـلـىـ قـادـتـهـاـ وـسـادـتـهـاـ حـتـىـ أـنـزـلـتـهـمـ بـذـنـبـ نـقـمـيـ إـلـىـ جـانـبـ أـحـدـ ، قـدـ عـاهـدـوـنـيـ وـعـاـقـدـوـنـيـ عـلـىـ أـنـ لـاـ يـرـحـواـ حـتـىـ نـسـأـلـ مـحـمـدـاـ وـمـعـهـ .

فـقـالـ لـهـ كـعبـ : جـثـتـنـيـ وـالـلـهـ بـذـلـ الدـهـرـ وـبـجـهـاـمـ قـدـ هـرـاقـ مـاـوـهـ ، فـهـوـ يـرـعـدـ وـيـرـقـ ، لـيـسـ فـيـ شـيـءـ ، وـيـحـكـ يـاـ حـيـ ! فـدـعـنـيـ وـمـاـ أـنـاـ عـلـيـهـ ، فـإـنـيـ لـمـ أـرـ مـنـ مـحـمـدـ إـلـاـ صـدـقاـ وـوـفـاءـ .

فـلـمـ يـزـلـ حـيـ بـكـعبـ يـفـتـلـهـ فـيـ الذـرـوـةـ وـالـغـارـبـ ، حـتـىـ سـمـحـ لـهـ عـلـىـ أـنـ أـعـطـاهـ عـهـداـ مـنـ اللـهـ وـمـيـشـاـقاـ : لـئـنـ رـجـعـتـ قـريـظـةـ وـغـطـفـانـ ، وـلـمـ يـصـبـيـوـاـ مـحـمـدـاـ أـنـ أـدـخـلـ مـعـكـ فـيـ حـصـنـكـ ، حـتـىـ يـصـبـيـنـيـ مـاـ أـصـابـكـ ، فـنـقـضـ كـعبـ بـنـ أـسـدـ عـهـدـهـ ، وـبـرـىـءـ مـاـ كـانـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ ، وـدـخـلـ مـعـ الـمـشـرـكـيـنـ فـيـ الـخـارـبـ ضـدـ الـمـسـلـمـيـنـ^(٣) .

وـفـعـلاـ قـدـ قـامـتـ يـهـودـ بـنـيـ قـريـظـةـ بـعـمـلـيـاتـ الـحـرـبـ . قـالـ اـبـنـ إـسـحـاقـ : كـانـ صـفـيـةـ بـنـتـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ فـيـ فـارـعـ حـصـنـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ ، وـكـانـ حـسـانـ فـيـ مـعـ النـسـاءـ وـالـصـيـانـ ، قـالـتـ

(١) صحيح البخاري ٥٩١/٣ .

(٢) ابن هشام ٢٣٧/٢ .

(٣) ابن هشام ٢٢٠/٢ ، ٢٢١ .

صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حارت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عننا ، ورسول الله ﷺ وال المسلمين في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أثانا آت ، قالت : فقلت يا حسان ، إن هذا اليهودي كاترى يطيف بالحصن ، وإن والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقته . قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتاجزت^(١) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتله ، ثم رجعت إلى الحصن ، وقلت : يا حسان انزل إليه فاسليه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي بسلبه من حاجة^(٢) .

وقد كان لهذا الفعل الجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والمحصون في منعة من الجيش الإسلامي - مع أنها كانت خالية عنهم تماماً - فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يمدون الغرفة الوثنين بالمؤن كدليل عملي على ابضماعهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمين من مؤنهم عشرين جملأً .

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجلي موقف قريظة ، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعديين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وحوات بين جبير ، وقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لخناً أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس ». فلما دنوا منهم وجدهم على أخته ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد . فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لخنا له ، وقالوا : عضل وقارة ، أي أنهم على غدر ، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

(١) احتجزت : شدت وسطها .

(٢) ابن هشام ٢٢٨/٢ . يحمل هذا الحديث على أن حساناً كان جباناً ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكروه ، وذلك أن الحديث منقطع الإسناد ، ولو صحي لمجيء به حسان ، وإن صحي الحديث فربما كان حسان معتلاً في ذلك اليوم ، وهذا أولى ما تأول .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس جلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أخرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونسائهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا غَتَ الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ﴿هُنَالِكَ أَبْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّلُوا زِلَّاً أَشَدِيدًا﴾ (٣٣ : ١١ ، ١٠) ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال : كان محمدًا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه : إن بيوتنا عورة من العدو ، فإذا ذكرنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة ، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا أَغْرِيَهُمْ وَإِذْ قَالَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهُلُ بِتَرِبَ لِأَمْقَامَ لَكُمْ فَأَتَرْجِعُوْا وَيَسْتَعْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ أَنَّهُنَّ يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوَنَاتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (٣٣ : ١٢ ، ١٣) .

أما رسول الله ﷺ فتفنع بشوبه حين أتاه غدر قريظة ، فاضطجع ومكث طويلاً ، حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبته روح الأمل ، فنهض يقول : « الله أكبر ، أبشروا يا معاشر المسلمين بفتح الله ونصره » ، ثم أخذ يخطط لمحابية الظرف الراهن ، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة ؛ لئلا يؤتي الذراري والنساء على غرة ، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم ، يفضي إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ؛ حتى ينصرفا بقومهما ، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً ، وجرت المراوضة على ذلك ، فاستشار السعديين في ذلك ، فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهداانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فصوب رأيهما وقال : « إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو ، وهزم جموعهم ، وفل حدهم ، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي - رضي الله عنه - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني ما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة » ، فذهب من فوره إلىبني قريظة - وكان عشيراً لهم في الجاهلية - فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت . قال : فإن قريشاً ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا للحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وبلدتهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن أصحابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم ، قالوا فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأي .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحني لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كان ليلة السبت من شوال - سنة ٥٥ هـ - بعثوا إلى اليهود : أنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخلف ، فانهضوا بنا حتى ناجز محمدًا ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم هو يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسليم بذلك قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى اليهود : إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا ، فاخرجوا معنا حتى ناجز محمدًا . فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان ، ودبّت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم .

وكان المسلمون يدعون الله تعالى : « اللهم استر عوراتنا وآمن رواعتنا » ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، قال : « اللهم متزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلّهم »^(١) .

(١) صحيح البخاري كتاب المجاد ٤١١/١ ، وكتاب المغازي ٥٩٠/٢ .

وقد سمع الله دعاء رسوله وال المسلمين ، وبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين ، وسرى بينهم التخاذل ، أرسل الله عليهم جنداً من الرياح ، فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدرأ إلا كفافها ، ولا طبأ إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جنداً من الملائكة يزيلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن عبيده بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهاؤا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره برحل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً ، وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهراً أو نحو شهر ، ويدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ، ونهايته في ذي القعدة ، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبعين بقين من ذي القعدة .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ؛ بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مريح ، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام ، تخضت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة ، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أنت به في الأحزاب ، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »^(١) .

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢ .

غزوة بنى قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاء به جبريل عليه السلام عند الظهر ، وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال : أَوْ قَدْ وَضَعَتِ السَّلَاحُ ؟ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضْعِ أَسْلَحَتِهِمْ ، وَمَا رَجَعَتِ الْآنِ إِلَّا مِنْ طَلْبِ الْقَوْمِ ، فَانهضْ بْنُ مَعْكَ إِلَى بْنِي قَرِيظَةَ ، فَإِنِّي سَائِرٌ أَمَامَكُمْ أَزْلَذُهُمْ حَصْوَنَهُمْ ، وَأَقْذَفُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَسَارَ جَبَرِيلُ فِي مَوْكِبِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَؤْذِنًا فَأَذَنَ فِي النَّاسِ : مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلَا يَصْلِيْنَ الْعَصْرَ إِلَّا بْنِي قَرِيظَةَ . وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أَمْ مَكْتُومَ ، وَأَعْطَى الرَايَةَ عَلَيْ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدَّمَهُ إِلَى بْنِي قَرِيظَةَ فَسَارَ عَلَى حَتَّى إِذْ دَنَا مِنْ حَصْوَنَهُمْ سَعَ مِنْهَا مَقَالَةً قَبِيْحَةً لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَوْكِبِهِ مِنَ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، حَتَّى نَزَلَ عَلَى بَئْرِ مِنْ آبَارِ قَرِيظَةَ يَقَالُ لَهَا بَئْرُ أَنَا ، وَبَادَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى امْتِنَالِ أَمْرِهِ ، وَنَهَضُوا مِنْ فُورِهِمْ ، وَتَحَرَّكُوا نَحْوَ قَرِيظَةَ ، وَأَدْرَكُتُهُمُ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا نَصْلِيْهَا إِلَّا فِي بْنِي قَرِيظَةَ كَمَا أَمْرَنَا ، حَتَّى أَنْ رَجَالًا مِنْهُمْ صَلَوَا الْعَصْرَ بَعْدَ الْعَشَاءِ الْآخِرَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَمْ يَرِدْ مَنَا ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ سَرْعَةَ الْخُرُوجِ ، فَصَلَوَاهَا فِي الطَّرِيقِ ، فَلَمْ يَعْنِفْ وَاحِدَةً مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ .

هَكَذَا تَحَرَّكَ الْجَيْشُ إِلَيْسَامِي نَحْوَ بْنِي قَرِيظَةَ أَرْسَالًا ، حَتَّى تَلَاقَوْا بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُمْ ثَلَاثَةَ آلَافَ ، وَالْخَيْلُ ثَلَاثُونَ فَرَسًا ، فَنَازَلُوا حَصْوَنَ بْنِي قَرِيظَةَ ، وَفَرَضُوا عَلَيْهِمُ الْحَصَارَ .

وَلَا اشْتَدَ عَلَيْهِمُ الْحَصَارُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ رَئِيسُهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسْدٍ ثَلَاثَ خَصَالٍ : إِمَّا أَنْ يَسْلِمُوا ، وَيَدْخُلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دِينِهِ ، فَيَأْمُنُوا عَلَى دَمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ – وَقَدْ قَالَ لَهُمْ : وَاللَّهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنِبِيٌّ مَرْسُولٌ ، وَأَنَّهُ الَّذِي تَجْدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ – وَإِمَّا أَنْ يَقْتَلُوا ذَرَارِيهِمْ وَنِسَاءَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيَنْخِرُجُوا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالسَّيْفِ مَصْلِتَيْنِ ، يَنْاجِزُونَهُ حَتَّى يَظْفِرُوا بِهِمْ ، أَوْ يَقْتَلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ يَهْجُمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَأَصْحَابِهِ ، وَيَكْبُسُوهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ ؛ لَأَنَّهُمْ قَدْ أَمْنَوْا أَنْ يَقْاتِلُوهُمْ فِيهِ ، فَأَبْوَا أَنْ يَجْبِيُوهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخَصَالِ الْثَلَاثِ ،

وحيثند قال سيدهم كعب بن أسد (في ازعاج وغضب) : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

ولم يق لقريطة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبو لبابة نستشيره ، وكان حليفاً لهم ، وكانت أمواله وولده في منطقتهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش النساء والصبيان ييكون في وجهه ، فرق لهم ، وقالوا : يا أبو لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد؟ قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه ، يقول إنه الذبح ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ ، حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف أن لا يحمله إلا رسول الله ﷺ بيده ، وأنه لا يدخل أرضبني قريطة أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استطاه - قال : أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له ، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

ويرغم ما وأشار إليه أبو لبابة قررت قريطة التزول على حكم رسول الله ﷺ ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؟ لتوفر المواد الغذائية والمياه والأبار ومناعة الحصون ، ولأن المسلمين كانوا يقايسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء ، مع شدة التعب الذي اعترافهم ؟ لواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب ، إلا أن حرب قريطة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وصاح علي : يا كتبية الإيمان ، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وحيثند بادروا إلى التزول على حكم رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري ، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء موالينا ، فأحسن فيماهم ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا : بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان في المدينة ، لم يخرج معهم ؛ للجرح الذي كان أصحاب أكحله في معركة الأحزاب ، فأركب حماراً ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون وهم كنفيه : يا سعد ، أجمل في مواليك فأحسن فيهم ، فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسين فيهم ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعي إليهم القوم .

ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة : قوموا إلى سيدكم . فلما نزلوه قالوا : يا سعد ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى من همها ؟ – وأعرض بوجهه ، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيمًا – قال : نعم وعلئـى . قال : فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات .

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف ، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع – كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسين ألفاً وخمسمائة سيف ، وألفين من الرماح ، وثلاثمائة درع ، وخمسمائة ترس وحجفة ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم .

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار ، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة ، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسلاً ، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم . فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد : ما تراه يصنع بنا ؟ فقال : أفي كل موطن لا تقولون أما ترون الداعي لا ينزع ؟ والذاهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، فضررت أعناقهم .

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة ، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكـد ، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أخرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم – وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحرب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام – .

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير ، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حبي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها ، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطfan ؛ وفأـء لكتعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء بشيره على الغدر والخيانة أيام

غزوة الأحزاب ، فلما أتى به – وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر ألمة لثلا يسلها – مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، قال لرسول الله ﷺ : أما والله ما لست نفسي في معاداتك ، ولكن من يغالب الله يغلب . ثم قال : أيها الناس ، لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ولهمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة ، كانت قد طرحت الراحا على خlad بن سعيد فقتلته ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت ، وترك من لم ينجب ، فكان من لم ينجب عطية القرظي ، قترك حيا ، فأسلم ، وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزير بن باطا وأهله وما له – وكانت للزير يد عند ثابت – فوهبهم له ، فقال ثابت بن قيس : قد وهبك رسول الله ﷺ إلى ، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك . فقال الزير بعد أن علم بمقتل قومه : سألك ييدي عندك يا ثابت إلا لحقتنى بالأحبة ، فضرب عنقه ، وألحقه بالأحبة من اليهود ، واستحياناً ثابت – من ولد الزير بن باطا – عبد الرحمن بن الزير ، فأسلم ، وله صحبة . واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس التجارية رفاعة بن سموأل القرظي ، فوهبه لها ، فاستحيته ، فأسلم ، وله صحبة .

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل التزول ، فحققوا دماءهم وأموالهم وذريتهم . وخرج تلك الليلة عمرو – وكان رجلاً لم يدخل معبني قريطة في غدرهم برسول الله ﷺ – فرأاه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوى ، فخلع سبيله حين عرفه ، فلم يعلم أين ذهب .

وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريطة بعد أن أخرج منها الخمس ، فأسلم للفارس ثلاثة أسمهم ، سهمان للفرس وسهم للفارس ، وأسهم للراجل سهماً واحداً ، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري ، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة ، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملوكه ، هذا ما قاله ابن إسحاق^(١) وقال الكلبي : إنه ﷺ أعتقها ، وتزوجها سنة ٦ هـ ، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفنتها بالبقيع^(٢) .

(١) انظر ابن هشام ٢٤٥/٢ .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٢ .

ولما أتى أمر قريظة أجيست دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه - التي قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب - وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغدو جرحه دماً ، فمات منها^(١) .

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ^(٢) . وصحح الترمذى من حديث أنس : قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله »^(٣) .

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خlad بن سويد ، الذي طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة ، ومات في الحصار أبو سنان بن محسن أخو عكاشه .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتبطاً ست ليال ، تأثيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلوة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سحراً ، وهو في بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت لي : يا أبي لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس ليطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبي ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة 5 هـ ، ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة^(٤) .

وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الواقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

(١) صحيح البخاري ٥٩١/٢ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٣٦ ، وصحيح مسلم ٢٩٤/٢ ، وجامع الترمذى ٢٢٥/٢ .

(٣) جامع الترمذى ٢/٢٢٥ .

(٤) ابن هشام ٢/٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٣٣ إلى ٢٧٣ وصحيف البخاري ٢/٥٩١ ، ٥٩٠ ، زاد المعاد ٢/٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمي اليهود ، الذين حربوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة^(١) ، وكان يؤذى رسول الله ﷺ ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتله ، وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس ، فرغبت الخزرج في إحراز فضيلة مثل فضيلتهم ؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستذان .

وأذن رسول الله ﷺ في قتله ، ونهى عن قتل النساء والصبيان ، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال ، كلهم من بني سلمة من الخزرج ، قائدتهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة ، واتجهت نحو خيبر ، إذ كان هناك حصن أبي رافع ، فلما دنووا منه - وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم - قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإني منطلق ومتعلطف للبواه ، لعلي أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بشوبه كأنه يقضي حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به الباب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإني أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على ود^(٢) قال : فقمت إلى الأغاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه سمه صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل . قلت : إن القوم لو نذروا بي لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فانتهيت إليه ،

(١) انظر فتح الباري ٣٤٣/٧ .

(٢) أي المفاتيح على وتد .

فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت . قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنت شيئاً ، وصاح ، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه ، فقلت : وما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمرك الويل ، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتلها . ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أنني قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بباباً باباً ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلي ، وأنا أرى أنني قد انتهيت إلى الأرض ، فوقيت في ليلة مقمرة ، فانكسرت ساق ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صاح الناعي على السور فقال : أنتي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي ﷺ ، فحدثته فقال : « ابسط رجلك ، فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكرها »^(١) .

هذه روایة البخاري ، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبي رافع ، واشتركوا في قتله ، وأن الذي تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس ، وفيه أنهم لما قتلوه ليلاً ، وانكسرت ساق عبد الله بن عتیک حملوه ، وأنواعاً من عيونهم فدخلوا فيه ، وأوقد اليهود اليران ، واشتدوا في كل وجه ، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى أصحابهم ، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتیک حتى قدموا على رسول الله ﷺ^(٢) .

كان مبعث هذه السرية في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٥٥ هـ^(٣) .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة ، واقتصر من مجرمي الحربأخذ يوجه حملات تأدبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة . القاهرة .

(١) صحيح البخاري ٥٧٧/٢ .

(٢) ابن هشام ٢٤٧/٢ ، ٢٧٥ .

(٣) رحمة للعلميين ٢٢٣/٢ مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في غزوة الأحزاب وقريظة .

سرية محمد بن مسلمة:

كانت أول سرية بعد الفراج من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثة راكباً .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء ، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد ، وبين ضرية والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطنبني بكر بن كلاب ، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم ، فاستنق المسلمون نعماً وشاء ، وقدموا المدينة للليلة بقيت من المحرم ومعهم ثامة بن أثال الحنفي سيدبني حنفة ، كان قد خرج متذمراً لاغتيال النبي ﷺ بأمر من مسلمة الكذاب^(١) ، فأخذوه المسلمون ، فلما جاءوا به ربظوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : « ما عندك يا ثامة » ؟ فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، قتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كارداً عليه أولاً ، ثم مرّ مرة ثالثة فقال - بعد ما دار بينهما الكلام السابق : أطلقوا ثامة ، فأطلقواه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى ، وإن خيلك أخذتنـي وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صبات يا ثامة ، قال : لا والله ، ولكنني أسلمت مع محمد ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من العيامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . وكانت عيامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ^(٢) .

غزوة بنى حيـان:

بنو حيـان هـم الذين كانوا قد غدرـوا بـعـشرـة من أصـحـاب رسـول الله ﷺ بالـرجـيع ، وتسـبـيـوا في إـعدـامـهـمـ ، ولـكـنـ لـمـ كـانـتـ دـيـارـهـمـ مـتوـغلـةـ فيـ الحـجازـ إـلـىـ حدـودـ مـكـةـ ، وـالـنـارـاتـ الشـدـيـدةـ قـائـمةـ

(١) السيرة الخلبية ٢٩٧/٢ .

(٢) زاد المعاد ١١٩/٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

بين المسلمين وقريش والأعراب ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوجل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنوا عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة 6 هـ في مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران - واد بين أمع وعسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم - وسمعت به بنو لحيان ، فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يومين بأرضهم ، وبعث السرايا ، فلم يقدروا عليهم ، فسار إلى عسفان ، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ، ثم رجع إلى المدينة ، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة .

متابعة البعثة والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعثة والسرايا . وهاك صورة مصغرة منها :

- ١ - سرية عكاشة بن محسن إلى الغمر ، في ربيع الأول أو الآخر سنة 6 هـ . خرج عكاشة في أربعين رجالاً إلى الغمر ، ماء لبني أسد ، فقر القوم ، وأصاب المسلمين مائتي ساقوها إلى المدينة .
- ٢ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصبة ، في ربيع الأول أو الآخر سنة 6 هـ . خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى القصبة في ديار بنى ثعلبة ، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلواهم ، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً .
- ٣ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصبة ، في ربيع الآخر سنة 6 هـ . وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، فخرج ومعه أربعون رجالاً إلى مصارعهم ، فساروا ليتهم مشاة ، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح ، فأغاروا عليهم ، فأعجزوه هرباً في الجبال ، وأصابوا رجالاً واحداً فأسلم ، وغنموا نعماً وشاء .
- ٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجموم ، في ربيع الآخر سنة 6 هـ . والجموم ماء لبني سليم في مر الظهران ، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محله من بنى

سلمي أصابوا فيها نعماً وشاء وأسرى ، فلما قفل بما أصاب ، وهب رسول الله ﷺ للمزنية نفسها وزوجها .

٥ - سرية زيد أيضاً إلى العيص ، في جمادى الأولى سنة ٦ هـ ، في سبعين ومائة راكب ، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ ، وأفلت أبو العاص ، فأتى زينب فاستجار بها ، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ، ففعلت ، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم ، فردوها الكثير والقليل والكبير والصغير ، حتى رجع أبو العاص إلى مكة ، وأدى الودائع إلى أهلها ، ثم أسلم وهاجر ، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاثة سنين ونيف . كما نبت في الحديث الصحيح^(١) ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك ، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى ، كما أنه ليس بصحيح سند^(٢) . والعجب من يتمسكون بهذا الحديث الضعيف ، فإنهم يقولون : إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح ، ثم يناقضون أنفسهم ، فيقولون : إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان . وقد بسطنا الدلائل في تعليقنا على بلوغ المرام ، وجنجح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ من قبل أبي بصير وأصحابه ، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ - سرية زيد أيضاً إلى الطرف أو الطرق ، في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ . خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة ، فهربت الأعراب ، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم ، فأصاب من نعمتهم عشرين بعيراً ، وغاب أربع ليال .

٧ - سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى ، في رجب سنة ٦ هـ . خرج زيد في اثنى عشر رجلاً إلى وادي القرى ؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك ، فهجم عليهم سكان وادي القرى ، فقتلوا تسعة ، وأفلت ثلاثة منهم زيد بن حارثة^(٣) .

(١) انظر سنن أبي داود مع شرحه عن المعبود باب إلى متى ترد عليه أمراته إذا أسلم بعدها .

(٢) انظر الكلام على الحديدين في تحفة الأحوذى ١٩٥/٢ .

(٣) رحمة للعلميين ٢٢٦/٢ ، وانظر هذه السرايا المصدر المذكور ، وزاد المعاد ١٢٠/٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، وحواشي تلقيع فهوم أهل الآخر ص ٢٨ ، ٢٩ .

٨ - سرية الخبط - تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ، قال جابر ، بعثنا النبي ﷺ في ثلاثة راكتب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيراً لقريش ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمى جيش الخبط ، فنحر رجل ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبو عبيدة نهاد ، فالقى إلينا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، وأدهنا منه ، حتى ثابت منه أجسامنا ، وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه ، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل ، فحمل عليه ، ومر تحته ، وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا المدينة ، أتينا رسول الله ﷺ ، فذكرنا له ذلك ، فقال : هو رزق أخرجك الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا ، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه ^(١) .

وإنما قلنا : إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لغير قريش بعد صلح الحديبية .

(١) صحيح البخاري ٦٢٥ / ٢ ، صحيح مسلم ١٤٥ / ٢ ، ٦٢٦ ، ١٤٦ .

غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريسيع (في شعبان سنة ٦ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل ، عريضة الأطراف ، من حيث الوجهة العسكرية ؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وتخضبت عن افتراض المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس . ونسرد الغزوة أولاً ، ثم نذكر تلك الواقائع .

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال^(١) . وسببها أنه بلغه عليهما السلام أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي ؛ لتحقيق الخبر فأتاهم ، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله عليهما السلام فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه عليهما السلام صحة الخبر ندب الصحابة ، وأسرع في الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها ، واستعمل على

(١) والدليل على ذلك ما ثبت في حديث الإفك من أن القضية كانت بعدما أُنزل الحجاب ، وأية الحجاب نزلت في شأن زبيب ، وزبيب إذ ذاك كانت تخته ، فإنه عليهما السلام سألاه عن عائشة فقالت : أحمي سمعي وبصري . قالت عائشة : وهي التي كانت تسامي بي من أزواج النبي عليهما السلام ، وأما ما وقع في حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تنازعا في أصحاب الإفك ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم الرواية ، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أبى سعيد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ١١٥/٢) والعجب من محمد الغزالى أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص ٢٢٣) مع أن كلامه في المدى (١١٥/٢) يأتى عن ذلك .

المدينة زيد بن حارثة ، وقيل أبا ذر ، وقيل نحيلة بن عبد الله الليثي ، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عيناً ؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي ، فألقى المسلمين عليه القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسيرة رسول الله ﷺ وقتلها عينه ، خافوا خوفاً شديداً ، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - بالضم فالفتح مصغراً ، اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل - فتهيؤوا للقتال ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ورابة المهاجرين مع أبي بكر الصديق ، ورابة الأنصار مع سعد بن عبادة ، فتaramوا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصرة . وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسي رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازي والسير ، قال ابن القيم : وهو وهم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسي ذرائهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون ، وذكر الحديث^(١) انتهى .

وكان من جملة النبي جويرية بنت الحارث سيد القوم ، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكتابها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فأعتق المسلمين بسبب هذا التزويج مائة أهل بيته من بني المصطلق قد أسلموا ، وقالوا : أصحاب رسول الله ﷺ^(٢) .

وأما الواقع التي حدثت في هذه الغزوة ؛ فلأجل أن مبعثها كان هو رأس التفاق عبد الله بن أبي وأصحابه ؛ نرى أن نورد أولاً شيئاً من أفعالهم في المجتمع الإسلامي .

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق:

قدمنا مراراً أن عبد الله بن أبي كان يحقق على الإسلام والمسلمين ، ولا سيما على رسول الله ﷺ حنقاً شديداً . لأن الأوس والخرج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ؛ ليتوجهوا إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن ابن أبي ، كان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلب ملوكه .

(١) وانظر صحيح البخاري كتاب العنق ٣٤٥/١ ، وانظر أيضاً فتح الباري ٣٤١/٧ .

(٢) زاد المعاد ١١٢/٢ ، ١١٣ ، ابن هشام ٢٨٩/٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

وقد ظهر حنقه هذا وحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ؛ ليعود سعد بن عبادة ، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ، فخمر ابن أبي أنه و قال : لا تغروا علينا . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : مجلس في بيتك ، ولا تغشنا في مجلسنا^(١) .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وما تظاهر به بعد بدر ، لم يزل إلا عدواً لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي ، وتهجين كلمة الإسلام ، وكان يوالى أعداءه ، وقد تدخل في أمربني قييقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفرق بين المسلمين ، وإثارة الارتباط والفوبي في صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه للمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه ، وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله ﷺ وينخطب ، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمون بشيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رcab الناس وهو يقول : والله لكأنا قلت بجراً أن قمت أشدّ أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : عليك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي^(٢) .

وكانت له اتصالات بيني النمير يؤامر معهم ضد المسلمين ، حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولئن قوتلت لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من : إثارة القلق والاضطراب ، والقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذَا قُولُوا مُنْفَقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۚ ۝ إِلَى قَوْلِهِ ۝ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَدْهُبُوا ۚ وَلَنِ

(١) ابن هشام ١/٥٨٤ ، ٥٨٧ . صحيح البخاري ٢/٩٢٤ ، وصحیح مسلم ٢/٩ .

(٢) ابن هشام ٢/١٠٥ .

يَأَتِ الْأَحْزَابُ يَوْمًا لَوْأَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوْنَ عَنْ أَبْنَائِكُمْ وَلَوْكَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝

ييد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والشركين كانوا يعرفون جيداً أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي ، وكثرة السلاح والجيوش والعدد ؛ وإنما السبب هي القيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي ، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ ، الذي هو المثل الأعلى – إلى حد الإعجاز – لهذه القيم .

كانوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين ، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح ، فقرروا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية . ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة ، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين . تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبي .

وقد ظهرت خطتهم هذه جليّة بعد غزو الأحزاب ، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل ابن الصليبي ، فكانوا يعتقدون حرمة حلية المتبنى على الرجل الذي تبناه ، فلما تزوج النبي ﷺ بزینب وجد المنافقون ثلمتين – حسب زعمهم – لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة ، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية : أن زینب كانت زوجة ابنه – متبناه – فالزواج بها من أكبر الكبائر ، حسب تقاليد العرب – وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل ، واختلفوا قصصاً وأساطير ، قالوا : إن محمدأ رأها بغترة ، فتأثر بحسنها فشغفه بها ، وعلقت بقلبه ، وعلم بذلك ابنه زيد فخل سبيلها الحمد ، وقد نشروا هذه الدعاية المختلفة نشرأ بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد

أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالأيات البينات ، فيها شفاء لما في الصدور ، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله : ﴿ هُوَ تَأْيِدًا لِّلَّهِ أَتَقَ الَّهُ وَلَا تُطِعُ الْكَفَرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْمًا حَكِيمًا ﴾ (٣٣: ١) . وهذه إشارات عابرة ، وصورة مصغرة لما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق ، وكان النبي ﷺ يكابر كل ذلك بالصبر واللين والتلطف ، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرمهم ، أو يتحملونه بالصبر ، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى ، حسب قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّةً ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ (٩: ١٢٦) .

دور المنافقين في غزوة بنى المصطلق:

ولما كانت غزوة بنى المصطلق ، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : ﴿ لَوْخَرَجُوا فَيُكَلُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَلَلَكُمْ بِغُونَتِكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ فقد وجدوا منفسين للتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ ، وهكذا بعض التفصيل عنها .

١. قول المنافقين: ﴿ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَ الْأَعْزَمُ مِنْهَا الْأَذْلُ ﴾

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيناً على المريسيع ، ووردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له جهجاه الغفاري ، فازدحم هو وسانان بن وبر الجهنمي على الماء ، فاقتلا ، فصرخ الجهنمي : يا معاشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معاشر المهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : أبدعواي المحاهلة وأنا بين أظهركم ؟ دعواها فإنها منتنة . وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فغضب - وعنه رهط من قومه ، منهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثر علينا في بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لعن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهن بلادكم ، وقاستموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم
ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنه عمر ، فقال عمر : مر
عبد بن بشر فليقتله . فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن مهداً يقتل أصحابه ؟ لا ،
ولكن أذن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتاح الناس ، فلقيه أسيد بن حضير
فيحياه ، وقال : لقد رحت في ساعة منكرة ؟ فقال له : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ يريد ابن
أبي ، فقال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال :
فأنت يا رسول الله ، تخوجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ،
ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجهوه ، فإنه يرى أنك استلبته
ملكاً .

ثم مشى الناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى
آذتهم الشمس ، ثم نزل الناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . فعل ذلك ؟
ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ ، وخلف بالله
ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله ، عسى أن يكون
الغلام قد أوهمن في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، فصدقه ، قال زيد : فأصابني هم لم يصبنني
مثله قط ، فجلست في بيتي ، فأنزل الله ﴿إِذَا جَاءَكُمْ مُنْتَفِقُونَ﴾ إلى قوله ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ إلى ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعْزَمِينَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ ،
فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقرأها على ، ثم قال : إن الله قد صدقك ^(١) .

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلاً صالحًا من الصحابة
الأخيار ، فتبرأ من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبي قال له :
والله لا تجوز من ه هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء

(١) انظر صحيح البخاري ٤٩٩/١ ، ٢٩٠/٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٧٢٨ ، ٧٢٧/٢ ، ٧٢٩ ، وابن هشام

النبي ﷺ أذن له ، فخل سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي : يا رسول الله إن أردت قتيله فمرني بذلك ، فأنا والله أحمل إليك رأسه^(١) .

٢. حديث الإفك :

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها ، وكانت تلك عادته مع نسائه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ، ففقدت عقداً لأنفها كانت أعارتها إياها ، فرجعت تلتسمه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها ، فجاء النفر الذين كانوا يرجلون هودجها فظنوا فيها فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها ، وأيضاً فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ، ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليهم الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذا ليس به داع ولا مجيب ، فقدت في المنزل ، وظننت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء ، فغلبتها عيناها ، فنامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟ – وكان صفوان قد عرس في آخريات الجيش لأنه كان كثير النوم ، فلما رأها عرفها ، وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها ، فركبتها ، وما كلمتها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش في نهر الظهرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكته ، وما يليق به ، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفساً ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكي الإفك ، ويستوشيه ، ويشعشه ، ويذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه ، فلما قدموا المدينة أفضى أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلّم ، ثم استشار أصحابه – لما استثبت الوحي طويلاً – في فراقها ، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها ، ويأخذ غيرها ، تلوياً لا تصريحاً ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء . فقام على المنبر يستعد من عبد الله بن أبي ، فأظهر أسيد بن حضير

(١) نفس المصدر الأخير ، وختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٧٧ .

سيد الأوس رغبته في قتله ، فأخذت سعد بن عبادة - سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي - الحمية القبلية ، فجرى بينهما كلام تناول له الحيان ، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة ؟ فما رجعت مرضت شهراً ، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئاً ، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي ، فلما نفحت خرجت مع أم مسطوح إلى البراز ليلاً ، فعثرت أم مسطوح في مرطها ، فدعت على ابنها ، فاستذكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ ؛ لتأتي أبوها وتستيقن الخبر ، ثم أتتها بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكي ، فبكى ليلتين ويوماً ، لم تكن تكتحل بنوم ، ولا يرق لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء فاتق كبدتها ، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك ، فتشهد وقال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسييرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرني الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحيثند قلص دمعها ، وقالت لكل من أبوها أن يجيءا ، فلم يدرريا ما يقولان ، فقالت : والله لقد علمت لقد سمعت هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلعن قلت لكم : إني بريئة - والله يعلم إني بريئة - لا تصدقوني بذلك ، ولكن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم إني منه بريئة - لتصدقني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف . قال : **﴿فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ أَمْسَعَانٌ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾**.

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحي ساعتها ، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لها أمها : قومي إليه .. فقالت عائشة - إدلاً ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ - : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

والذي أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عَصَبَةٌ مُّنْكَرٌ﴾** . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطوح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ، ولم يجد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك ، والذي تولى كبره ، إما لأن

المحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، وإنما للمصلحة التي ترك لأجلها قتله^(١) .

وهكذا وبعد شهر أقشع سحابة الشك والارتياح والقلق والاضطراب عن جو المدينة ، واقتضى رأس المنافقين افتضاحاً لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك ، قال ابن إسحاق : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قلت لي اقتلته لأرعدت له أُنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري^(٢) .

(١) صحيح البخاري ١/٣٦٤، ٢/٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، زاد المعاد ١١٣/٢، ١١٤، ١١٥ وابن هشام ٢٩٧/٢ إلى ٣٠٢ .

(٢) ابن هشام ٢٩٣/٢ .

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

- ١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدومة الجندل ، في شعبان سنة ٦ هـ . أقعده رسول الله ﷺ بين يديه ، وعممه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب ، وقال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبع ، وهي أم أبي سلمة ، وكان أبوها رأسهم وملكلهم .
- ٢ - سرية علي بن أبي طالب إلىبني سعد بن بكر بفذك ، في شعبان سنة ٦ هـ . وذلك أنه بلغ رسول الله أن بها جماعة يريدون أن يمدوا اليهود ، فبعث إليها علياً في مائتي رجل ، وكان يسير الليل ويكتن النهار ، فأصاب عيناً لهم ، فأقرّ أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلو لهم عمر خيبر ، ودل العين على موضع تجمعبني سعد ، فأغار عليهم علي ، فأخذ خمسة عشر ألفي شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وبر بن عليم .
- ٣ - سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى ، في رمضان سنة ٦ هـ . كان بطنه فزارة يريد اغتيال النبي ﷺ ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق . قال سلمة بن الأكوع : وخرجت معه ، حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشتنا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة وفيهم الذرازي ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتم ، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فهم امرأة هي أم قرفة عليها قشع من أديم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، فنفلني أبو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوباً ، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدي بها أسرى من

ال المسلمين هناك^(١) .

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ ، وجهزت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون .

٤ - سرية كرز بن حابر الفهري^(٢) إلى العرنين ، في شوال سنة ٦ هـ وذلك أن رهطاً من عكل وعرينة أظهروا الإسلام ، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في ذود في المرعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبواها ، فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ ، واستأقاوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم ، فبعث في طلبهم كرزا الفهري في عشرين من الصحابة ، ودعا على العرنين : اللهم أعم عليهم الطريق ، واجعلها عليهم أضيق من مسلك ، فعمى الله عليهم السبيل ، فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسلمت أعينهم ، جزاء وقصاصاً بما فعلوا ، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا^(٣) وحديثهم في الصحيح عن أنس^(٤) .

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة ، في شوال سنة ٦ هـ ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ، لأن أبو سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال ، لا هذا ، ولا ذاك ، ويذكرون أن عمراً قتل في الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون إن عمراً أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا السفر ، والمعروف أن خبيباً استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤ هـ ، فلا أدرى هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصور فوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة . والله أعلم .

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب ، وبني قريظة ، لم يجر في واحدة منها قتال مريح ، وإنما وقعت فيها وقعة مصادمة خفيفة ، فليست هذه البعثة إلا دوريات استطلاعية ، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . وبظهور بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء الإسلام كانت

(١) انظر صحيح مسلم ٨٩/٢ ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع .

(٢) هذا هو الذي كان قد أغاد على سرح المدينة قبل بدر في غزوة سفوان ثم أسلم وقتل شهيداً يوم فتح مكة .

(٣) زاد المعاد ١٢٢/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٦٠٢/٢ .

معنوياتهم في انهيار متواصل ، ولم يكن بقى لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وغضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلاح الخديبة ، فلم تكن المدننة إلا الاعتراف بقوة الإسلام ، والتسجيل على بقائهما في ربوع الجزيرة العربية .

وقعه الحديبية (في ذي القعدة سنة ٦ هـ)

سبب عمرة الحديبية:

ولما تقدم التطور في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين ، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً ، وبذات التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام ، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

أرأى رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم دخلوا مكة عامهم ذلك ، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين:

واستنفر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه ، فأبطنوا كثيراً من الأعراب ، وغسل ثيابه ، وركب ناقته القصواء ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو غليلة الليثي ، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة سنة ٦ هـ ، ومعه زوجته أم سلمة ، في ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيف في القرب .

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك في اتجاه مكة ، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدي وأشعره ، وأحرم بالعمرمة ، ليأمن الناس من حربه ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاها عينه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : « أترون نميل

إلى ذراري هؤلاء الذين أعنواهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، لم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فزوحوا، فراحوا».

محاولة قريش ضد المسلمين عن البيت:

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبي ﷺ عقدت مجلساً استشارياً، قررت فيه ضد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، وبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشاً نازلة بذى طوى، وأن مائتى فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغيم، في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة. وقد حاول خالد ضد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يتراى الجيشان، ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبننا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم في صلاة العصر - ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاقت الفرصة خالداً.

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي:

وأخذ رسول الله ﷺ طريقاً وعرأ بين شعاب، وسلك بهم ذات اليدين بين ظهري الحمش، في طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسي الذي يفضي إلى الحرم مارأ بالتنعيم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد قترة الجيش الإسلامي قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بشنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطبة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى

الحادية ، على ثمد^(١) قليل الماء ، إنما يتبرضه^(٢) الناس تبرضاً ، فلم يلبث أن نرحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانة ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا .

بديل يتوسط بين رسول الله - ﷺ - وقريش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة^(٣) نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي ، نزلوا أعداد مياه الحديبة ، معهم العوذ المطافيل^(٤) ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . قال رسول الله ﷺ : «إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شاءوا مادتهم ، وينخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس فعلوا ، وإن فقد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشاً : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قوله ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذو الرأي منهم هات ما سمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعثت قريش مكرز بن حفص ، فلما رأه رسول الله ﷺ قال : هذا رجل غادر ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحليس بن علقمة - : دعوني آته . فقالوا : آته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء

(١) ثمد : حوض .

(٢) يتبرض : يأخذ منه القليل .

(٣) عيبة نصح الرجل : موضع سره .

(٤) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن ، والعوذ : الإبل حديثة التاج ، والمطافيل : التي معها أولادها .

أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشارت ، وما أرى أن يصدوا ، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه .

قال عروة بن مسعود الثقي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آته فقالوا : آته ، فاتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبي ﷺ نحوا من قوله لم يدلي ، فقال له عروة عند ذلك : أي محمد ،رأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهل قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوباشاً من الناس خلقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امتص بظر اللات ، أتحن نفر عنه ، ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجزك بها لأجبيتك . وجعل يكلم النبي ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غدر ، أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء (وكان المغيرة ابن أخي عروة) .

ثم إن عروة جعل يمرق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظ أصحاب محمد مهداً ، والله إن تخنم خاتمة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيمياً له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

هو الذي كف أيديهم عنكم :

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامعون إلى الحرب ، رغبة زعمائهم في الصلح ، فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويجذبوا أحداً تشعل نار الحرب ، وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم

لِيَلًا فَهُبْطُوا مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ ، وَحَاوَلُوا التَّسْلِلَ إِلَى مَعْسَكِ الْمُسْلِمِينَ ، غَيْرَ أَنْ مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمَةَ قَاتَلَ الْخَرْسَ اعْتَقْلَهُمْ جَمِيعًا . وَرَغْبَةً فِي الصَّلَحِ أَطْلَقَ سَرَاحَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعْفًا عَنْهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ يُبَطِّنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) ٤٨ : ٢٤ (.

عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش:

وَحِينَئِذٍ أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَؤْكِدَ لِدِيَ قَرِيشٍ مَوْقِعَهُ وَهُدُفُهُ مِنْ هَذَا السَّفَرِ ، فَدَعَا عُمَرَ بْنَ الخطَّابَ لِيَرْسُلَ إِلَيْهِمْ ، فَاعْتَذَرَ قَائِلاً : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ لِي بِمَكَّةَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي كَعْبَ يَغْضِبُ لِي إِنْ أُوذِيتُ ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ ، فَإِنْ عَشِيرَتِهِ بِهَا ، وَإِنَّهُ مُبْلَغٌ مَا أَرْدَبَ ، فَدَعَاهُ ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى قَرِيشٍ ، وَقَالَ : أَخْبِرُهُمْ أَنَا لَمْ نَأْتُ لِقتَالِ ، وَإِنَّا جَهَنَّمَ عَمَارًا ، وَادْعُهُمْ إِلَى إِسْلَامٍ . وَأَمْرَهُ أَنْ يَأْتِي رِجَالًا بِمَكَّةَ مُؤْمِنِينَ ، وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ ، فَيُشَرِّهِمْ بِالْفَتْحِ ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ مَظَاهِرُ دِينِهِ بِمَكَّةَ ، حَتَّى لا يَسْتَخْفِي فِيهَا أَحَدٌ بِالْإِيمَانِ .

فَانْطَلَقَ عُثْمَانَ حَتَّى مَرَ عَلَى قَرِيشٍ بِيَلْدَحٍ ، فَقَالُوا : أَيْنَ تَرِيدُ ؟ فَقَالَ : بَعْثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَا وَكَذَا ، قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ ، فَانْفَذْ لِحَاجِتِكَ ، وَقَامَ إِلَيْهِ أَبْيَانَ بْنَ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ ، فَرَحِبَ بِهِ ثُمَّ أَسْرَجَ فَرْسَهُ ، فَحَمَلَ عُثْمَانَ عَلَى الْفَرْسِ ، وَأَجَارَهُ وَأَرْدَفَهُ حَتَّى جَاءَ مَكَّةَ ، وَبَلَغَ الرِّسَالَةَ إِلَى زُعمَاءِ قَرِيشٍ . فَلَمَّا فَرَغَ عَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ ، لَكِنَّهُ رَفَضَ هَذَا الْعَرْضَ ، وَأَلْقَى أَنْ يَطُوفَ حَتَّى يَطُوفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

وَاحْتَبَسَتْهُ قَرِيشٌ عِنْدَهَا – وَلِعِلْمِهِمْ أَرَادُوا أَنْ يَتَشَافَّرُوا فِيمَا يَبْيَهُمْ فِي الْوَضْعِ الْرَاهنِ ، وَيَرْمَوْهُمْ أَمْرُهُمْ ، ثُمَّ يَرْدُوْنَ عُثْمَانَ بِجَوابِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ – وَطَالَ الْاحْتِيَاطُ ، فَشَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَلْفَتُهُ لِمَا بَلَغَهُ تِلْكَ الإِشَاعَةُ : لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَاجِزَ الْقَوْمَ ، ثُمَّ دَعَا أَصْحَابَهُ إِلَى الْبَيْعَةِ ، فَتَارُوا إِلَيْهِ يَبْيَعُونَهُ عَلَى أَنْ لَا يَفْرُوا ، وَبَأْيَعَتْهُ جَمَاعَةٌ عَلَى الْمَوْتِ ، وَأُولُوْنَ مِنْ بَايِعِهِ أَبُو سنَانَ الْأَسْدِيَّ ، وَبَايِعَهُ سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعَ عَلَى الْمَوْتِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَوَسَطُهُمْ وَآخِرُهُمْ ، وَأَخْذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ نَفْسِهِ وَقَالَ : هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ ، وَلَا مَنْتَ الْبَيْعَةَ جَاءَ

عنان فبأيعه ، ولم يختلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس .

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذًا بيده ، ومعقل بن يسار آخذًا بغضن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبِعُونَكُمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الآية (٤٨ : ١٨) .

ابرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش حراجة الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رأه عليه السلام قال : قد سهل لكم أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فجاء سهيل فتكلم طويلاً ، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي هذه :

١ - الرسول - ﷺ - يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثة ، معهم سلاح الراكب ، السيف فيقرب ، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض .

٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكتف بعضهم عن بعض .

٣ - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق ، فائي عدواناً تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

٤ - من أتي محمدًا من قريش من غير إذن وليه - أي هارباً منهم - رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من مع محمد - أي هارباً منه - لم يرد عليه .

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب ، فأملأ عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فهو الله لا ندرى ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم . فأمر النبي ﷺ علياً بذلك . ثم أملأ (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صدتناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال : إني رسول الله وإن كذبتمني ،

وأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله ، ويمحو لفظ رسول الله ، فأُلقي على أن يمحو هذا اللفظ ، فمحاه عليه السلام بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله عليه السلام - وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا في أوائل المقالة ، فكان دخولهم في هذا العهد ؟ تأكيداً لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

رد أبي جندل:

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يوسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقضيك عليه على أن ترده . فقال النبي عليه السلام : إنما لم نقض الكتاب بعد . فقال : فوالله إدأ لا أقضيك على شيء أبداً . فقال النبي عليه السلام فأجزه لي . قال : ما أنا بمجيئه لك . قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه ، وأخذ بتلاييه وجراه ؛ ليؤديه إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معاشر المسلمين أردد إلى المشركين يفتونني في ديني ؟ فقال رسول الله عليه السلام : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً وخرجاً ، إنما قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم .

فوتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

النحر والحلق للحل عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله عليه السلام من قضية الكتاب قال : قوموا ، فانحرروا ، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تحر بدنك ، وتدعو حالتك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنك ، ودعا حالته فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحرروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد

بعضهم يقتل بعضاً غماً ، وكانوا نحرروا البذنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ جملأً كان لأبي جهل ، كان في أنفه برة من فضة ، ليغيب به المشركين ، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثةً بالمغفرة وللمقصرين مرة وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك في شأن كعب بن عجرة .

الاباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياًهن أن يردهن عليهم بالعهد الذي تم في الحديبية ، فرفض طلبيهم هذا ، بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدق هذا البند هي : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا)^(١) فلم تدخل النساء في العقد رأساً . وأنزل الله في ذلك **﴿إِنَّمَا يَنْهَا أَذِنَّا مَأْمُونًا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ مُهَاجِرِينَ فَأَمْتَحِنُهُمْ فَإِنْ ثَمَنَ حُنُونٌ فَلَا يُرْجِعُوهُنَّا هُنَّا بِعِصْمِ الْكَوَافِرِ﴾** حتى بلغ بعضهم الكوافر ، فكان رسول الله ﷺ يتحمّن بقوله تعالى **﴿إِنَّمَا يَنْهَا أَذِنَّا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ مُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكُنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾** إخ ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : قد بايعتك . ثم لم يكن يردهن .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . تزوج بإحداهما معاوية ، وبالأخرى صفوان بن أمية .

ماذا يتم خض عن بنود المعاهدة:

هذه هي هدنة الحديبية ، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم لل المسلمين ، فقريش لم تكن تعرف بال المسلمين أي اعتراف ، بل كانت تهدف استغلال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم ، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية ، وبين الناس ، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدرارة الدنيوية في جزيرة العرب ، و مجرد الخروج إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل لفحوه على أن قريشاً نسبت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية ، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها ، فلا يهم ذلك قريشاً ، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل . أليس هذا فعلاً ذريعاً بالنسبة إلى

(١) صحيح البخاري ٣٨٠/١

قريش؟ وفتحاً مبيناً بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها – بالنسبة إلى المسلمين – مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفقاء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكُفُرْ﴾**. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزاءه ولوازمه، وبطريق رما لا يحصل به في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة، فبياناً كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهجرة؛ صار عدد الجيش الإسلامي في ستين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني؛ فهو جزء ثانٌ لهذا الفتح المبين، فالMuslimون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى **﴿وَهُمْ بَدَءُوا كُمْ أَوَّلَ مَرَّةً﴾**، أما المسلمين فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها، وصدتها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع المحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره.

أما البند الأول؛ فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضاً فشل لقريش، وليس فيه ما يشفى قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للMuslimين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جداً، ليس فيها شيء يضر المسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للMuslimين، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله^(١)، وأما من أسلم من أهل مكة – فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيلاً – لكن أرض الله واسعة، لم تكن الحبشة واسعة للMuslimين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله « ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً وخرجاً »^(٢).

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ١٠٥/٢ .

(٢) نفس المصدر .

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش ، لكنه في الحقيقة ينبيء عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم ، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني ، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار ، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين ، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على ثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي - ﷺ :

هذه هي حقيقة بنود هذه المدنة ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد ، الأولى : أنه كان قد أخربهم أنا سنأتي البيت فنطوف به ، فماهه يرجع ولم يطف به ؟ الثانية : أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه ، فماهه قبل ضغط قريش ، وأعطي الدنيا في الصلح ؟ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون . وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريمة ، بحيث غالب لهم والحزن على التفكير في عوائق بنود الصلح . ولعل أعظمهم حزناً كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أنسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلامهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فقيم نعطي الدنيا في ديننا ، ونرجع لما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري ، ولن يضيعني أبداً . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به .

ثم انطلق عمر متغياً فألقى أبي بكر ، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ ، ورد عليه أبو بكر ، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . ثم نزلت **﴿إِذَا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحَمَّيْنَا﴾** إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم . فطابت نفسه ورجعا .

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً . قال عمر : فعلت لذلك أ عملاً ، مازلت أصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى

رجوت أن يكون خيراً^(١).

انحلت أزمة المستضعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، من كان يعذب من مكة ، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش ، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الخليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً . فاستله الآخر ، فقال : أجل . والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد .

وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رأه : لقد رأى هذا ذرعاً ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل صاحبي ، وإنني لم قتول ، فجاء أبو بصير وقال : يا نبي الله ، قد والله أوف الله ذمتك ، قد ردتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال رسول الله : ويل أمه ، مسرع حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلتحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلواهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاها فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فقدموا عليه المدينة^(٢).

إسلام أبطال من قريش:

وفي أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والمدينة ، فتح الباري ٤٣٩/٧ إلى ٤٥٨ ، صحيح البخاري ١/٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٥٩٨/٢ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، ٦٠٠ ، صحيح مسلم ٢/١٤٠ ، ١٤٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٣٠٨/٢ إلى ٣٢٢ ، زاد المعاد ٢/١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٠٧ إلى ٣٠٥ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) المصادر السابقة .

وعثمان بن طلحة ، ولا حضروا عند النبي ﷺ قال : إن مكة قد أفلت إلينا أفالذ كبدها^(١) .

(١) اختلفوا كثيراً في تعيين السنة التي أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشي معروفة ، وأسلم خالد وعثمان بن طلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه في الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبي ﷺ وأسلموا وهذا يقتضي أنهم أسلموا في أوائل سنة سبع . والله أعلم .

المرحلة الثانية طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام ، وال المسلمين ، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندتها وألدها في عداء الإسلام ، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام ، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرة العرب ، انخفضت حدة مشاعر الوثنين ، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير ، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازاً كبيراً بعد هذه الهدنة ، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خير بعد جلاهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر . كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ ، وتوجع نار الفتنة ، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم ، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر .

ولكن هذه المرحلة التي بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة ، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال ، وبرز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري . ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة على قسمين :

(١) النشاط في مجال الدعوة ، أو مكاتبة الملوك والأمراء .

(٢) النشاط العسكري .

وقبل أن نتابع النشاط العسكري في هذه المرحلة ، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ، إذ الدعوة الإسلامية هي المقدم طبعاً ، بل ذلك هو الهدف الذي عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام ، والحروب والفتن ، والقلائل والاضطرابات .

مكاتبته الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقبلون إلا عليه خاتم ، فاختذ النبي ﷺ خاتماً من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، هكذا :

الله

رسول^(١)

محمد

واختار من أصحابه رسلًا لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصور فوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام^(٢) . وفيما يلي نصوص هذه الكتب ، وبعض ما تمخضت عنه .

١. الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة:

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضرمي في آخر سنة ست أو في المحرم سنة سبع من الهجرة . وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق في ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة في العهد المكى ،

(١) صحيح البخارى ٨٧٢/٢ ، ٨٧٣ .

(٢) رحمة للعلميين ١/١٧١ .

فقد ورد في آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرأ و معه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم و دع التجير) .

وروى البهقي عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا : هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشه ، سلام على من اتبع الهدي ، وأمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاه الإسلام ، فإني أنا رسوله فأسلم تسلّم ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا إِنَّمَّا يَنْهَا إِلَّا اللَّهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّ تَوْلَوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه في الماضي القريب - كما أورده ابن القيم مع الاختلاف في الكلمة فقط - وبذل الدكتور في تحقيق ذلك النص جهداً بليغاً واستعان في ذلك كثيراً باكتشافات العصر الحديث ، وأورد صورته في الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشه ، سلام على من اتبع الهدي ، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته . ألقاها إلى مريم البطل الطيبة الحصينة فحملت بعيسي من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنني أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتعبني ، وتومن بالذي جاءني فإني رسول الله ﷺ ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدي^(١) .

وأكيد الدكتور المختار أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديثية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديثية فلا دليل عليه ، والذي أورده البهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي

(١) انظر رسول أكرم كي سياسي زندكي (بالأردو) ص ١٠٨، ١٢٣، ١٢٢، ١٠٩، ١٢٤، ١٢٥، وفي زاد المعاد : أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهداي . انظر زاد المعاد . ٦٠/٣

كثبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة : ﴿ يَأْتِي أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَى الْوَالِئَ كَلِمَةً ﴾ الخ كما كان دأبه في تلك الكتب ، وقد ورد فيه اسم الأصححة صريحاً ، وأما النص الذي أورده الدكتور حميد الله ، فالأغلب عندي أنه نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصححة إلى خليفته ، ولعل هذا هو السبب في ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندي عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤديها نصوص هذه الكتب . والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذي أورده البيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصححة إلى خليفته مع أن اسم أصححة وارد في هذا النص صريحاً والعلم عند الله^(١) .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي ، ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب . وكتب إلى النبي ﷺ بذلك ، وهاك نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصححة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، والله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت بها إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه الله رب العالمين^(٢) .

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة ، فأرسلهم في سفيتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخير^(٣) . توفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، ونعيه النبي ﷺ يوم وفاته ، وصلى عليه

(١) انظر هذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله « رسوم أكرم كي سياسي زندكي » ص ١٠٨ ، إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١ .

(٢) زاد المعاد ٦١/٣ .

(٣) ابن هشام ٣٥٩/٢ .

صلاة الغائب . ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتاباً آخر
ولا يدرى هل أسلم أم لا؟^(١) .

٤ . الكتاب إلى المقوس ملك مصر:

وكتب النبي ﷺ إلى جرجس بن متى^(٢) ، الملقب بالمقوس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتوك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط . **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ لَا تَنْعَبِدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا إِنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣) .**

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة . فلما دخل حاطب على المقوس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه رب الأعلى ، فأخذته الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

قال المقوس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه .

قال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسي إلا ك بشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا ك دعائكم أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكلنبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت من أدركه هذا النبي ، ولستنا نهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

(١) ر بما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٩٩/٢ .

(٢) هذا على رأي العلامة المصوروفري في كتابه رحمة للعالمين ١/١٧٨؛ وقال الدكتور حميد الله « إن اسمه بنiamين » انظر : رسول أكرم کی سیاسی زندگی ص ١٤١ .

(٣) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٦١/٣ والذى أورده الدكتور حميد اللهأخذًا من صورة الكتاب الذى عثر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ، ففيه « فأسلم تسلم يؤتوك الله » الخ . وفيه « إثم القبط » بدل قوله « إثم أهل القبط » انظر : رسول أكرم کی سیاسی زندگی ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

فقال المقوس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجده لا يأمر بمزهد فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، وووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبراء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبي ﷺ ، فجعله في حق من عاج ، وختم عليه ودفع به إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » محمد بن عبد الله من المقوس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعوه إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ، وكانت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، هما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغة لتركها ، والسلام عليك .

ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجاريتان مارية ، وسيرين ، والبغلة دلدل بقيت إلى زمن معاوية^(١) ، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له ، وهي التي ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطتها لحسان بن ثابت الأنباري .

٣. الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع المهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعابة الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلّم ، فإن أبيت فإن إثم المحوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي ، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين ، ولا ندري هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجالاته ، أم بعث عبد الله السهمي ، وأياً ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه ، وقال في غطرسة : عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : مزق الله ملكه ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على حين : أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتيا

(١) زاد المعاد ٦١/٣ .

به . فاختار باذان رجلين من عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدموا المدينة ، وقابلوا النبي ﷺ قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثني إليك لتنطلق معي ، وقال قوله تهديدياً ، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقيه غداً .

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شIROYEH بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء عشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع^(١) ، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي ، فلما غدوا عليه أخبارها بذلك : فقالا : هل تدرى ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عني ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهي إلى منتهى الخف والخافر . وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء ، فخرجا من عنده حتى قدموا على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شIROYEH لأبيه ، وقال له شIROYEH في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى .

وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن^(٢) .

٤. الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله رسوله إلى هرقل عظم الروم ، سلام على من اتبع المهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتوك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأربسين ، **هَيَا هَلَّ الْكِتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّ فَقُولُوا أَشْهَدُوا إِنَّا مُسْلِمُونَ ». ^(٣)**

(١) فتح الباري ١٢٧/٨ .

(٢) محاضرات تاريخ الأم الإسلامية للحضرى ١٤٧/١ ، ١٢٧/٨ ، ١٢٨ ، وانظر رحمة للعالمين أيضاً

ج .

(٣) صحيح البخاري ٤/٤ ، ٥ .

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبو سفيان بن حرب أخирه أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارةً بالشام في المدة التي كان رسول الله عليه ﷺ مأذنها أبو سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بـ إيليا^(١) ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنهنبي؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدناه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوا ، فوالله لو لا الحياة من أن يأثروا على كذبنا .

ثم قال : أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم؟ فقلت : هو فيما ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت : لا . قال : فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقضون؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت : لا . قال : فهل تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها – قال : ولم تكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة – قال : فهل قاتلتموه؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إيه؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وتنال منه . قال : ماذا يأمركم؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها ، وسائلك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله ، وسائلك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب

(١) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيليا – بيت المقدس – من حمص ، شكر أبا من الله عليه من إلحاق المزعنة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٩٩/٢) ، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبوريز ، وصالحوا الروم على رد ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر ، وردوا إليه الصليب الذي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيصر قد جاء إلى إيليا (بيت المقدس) سنة ٦٢٩ م (أي سنة ٧ هـ) يضع الصليب في موضعه ، ويشكر الله على هذا الفتح المبين .

ملك أئمه ، وسألتك هل كتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكتذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبواه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبواه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أين يزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدینه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تختلط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلوة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثُر اللغط ، وأمر بنا فأنحرجنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا ، لقد أمر ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملكبني الأصغر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام^(١) .

هذا ما رأه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيس ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة بن الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية بحسبي في الطريق لقيه ناس من جدام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئاً ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حaritha إلى حسمى ، وهي وراء وادي القرى في خمسائة رجل ، فشن زيد الغارة على جدام ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، واستافق نعمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسببي مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جدام موادعة ، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقدیم الاحتجاج إلى النبي ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق ، فقبل النبي ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسببي .

(١) صحيح البخاري ٤/٤ ، صحيح مسلم ٩٨/٢ ، ٩٩ .

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيسر كان بعد الحديبية . ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك^(١) .

٥. الكتاب إلى المنذر بن ساوي:

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي موسى ويهود ، فأحدثت إلي في ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثروا عليك خيراً ، وإنني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعلية الجزية»^(٢) .

٦. الكتاب إلى هودة بن علي صاحب اليهادة:

وكتب النبي ﷺ إلى هودة بن علي صاحب اليهادة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هودة بن علي ، سلام على من اتبع المدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحاfer ، فأسلم وسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك» .

واختار لحمل هذا الكتاب سليمان بن عمرو العامري ، فلما قدم سليمان على هودة بهذا الكتاب مختوماً أنزله ، وحياه ، وقرأ عليه الكتاب ، فرد عليه رداً دون رد ، وكتب إلى النبي ﷺ :

(١) انظر زاد المعاد ١٢٢/٢ ، وحاشية تلقيع فهوم أهل الأثر ص ٢٩ .

(٢) زاد المعاد ٦١/٣ ، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخذناً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في أناضي القريب يختلف في كلمة واحدة ، ففيه «لا إله غيره» بدل قوله : «لا إله إلا هو» .

ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطاً بجائزه ، وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخирه ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : لو سألكي قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما في يديه . فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هودة مات ، فقال النبي ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبئ ، يقتل بعدي ، فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان كذلك^(١) .

٧. الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق:

كتب إليه النبي ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع المدى ، وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، ي Quincy لك ملكك » .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه . ولم يسلم^(٢) .

٨. الكتاب إلى ملك عمان:

وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع المدى ، أما بعد ، فإني أدعوكا بدعاية الإسلام ، أسلماً تسلماً ، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكمما إن أقررتما بالإسلام وليتكمما ، وإن أبیتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككمما زائل ، وخليل تحمل بساحتكمما ، وتظهر نبوتي على ملككمما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه . قال عمرو : فخررت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقاً - فقلت : إني رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم على بالسن والملك ،

(١) زاد المعاد ٦٣/٣ .

(٢) نفس المصدر ٦٢/٣ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرمي ١٤٦/١ .

وأنا أوصلك إلـيـه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعـو إلـيـه ؟ قلت : أدعـو إلـى الله وحـده لا شـريك له ، وتخـلـع ما عـبد من دونـه ، وتشـهد أنـ مـحمدـاً عـبـدـه ورـسـولـه . قال : يا عـمـرو ، إـنـك ابنـ سـيدـ قـومـك ، فـكـيفـ صـنـعـ أـبـوك ؟ فـإـنـ لـنـا فـيـهـ قـدـوةـ . قـلتـ : مـاتـ وـلـمـ يـؤـمـنـ بـمـحـمـدـ عـلـيـهـ الـتـهـ ، وـوـدـدـتـ أـنـهـ كـانـ أـسـلـمـ وـصـدـقـ بـهـ ، وـقـدـ كـنـتـ أـنـاـ عـلـىـ مـثـلـ رـأـيـهـ حـتـىـ هـدـانـيـ اللهـ لـإـسـلـامـ . قالـ : فـمـقـىـ تـبـعـتـهـ ؟ قـلتـ : قـرـيـباـ . فـسـأـلـنيـ أـيـنـ كـانـ إـسـلـامـكـ ؟ قـلتـ : عـنـ النـجـاشـيـ ، وـأـخـبـرـتـهـ أـنـ النـجـاشـيـ قـدـ أـسـلـمـ ، قالـ : وـكـيفـ صـنـعـ قـوـمـهـ بـمـلـكـهـ ، فـقـلـتـ أـقـرـوـهـ وـاتـبـعـوـهـ . قالـ : وـالـأـسـاقـفـةـ والـرـهـبـاـنـ تـبـعـوـهـ ؟ قـلتـ : نـعـمـ . قالـ : اـنـظـرـ ياـ عـمـروـ ماـ تـقـولـ ، إـنـهـ لـيـسـ مـنـ خـصـلـةـ فـيـ رـجـلـ أـفـضـحـ لـهـ مـنـ الـكـذـبـ . قـلتـ : مـاـ كـذـبـتـ ، وـمـاـ نـسـتـحـلـهـ فـيـ دـيـنـاـ ، ثـمـ قـالـ : مـاـ أـرـىـ هـرـقـلـ عـلـمـ بـإـسـلـامـ النـجـاشـيـ . قـلتـ : بـلـ ، قالـ : فـبـأـيـ شـيـءـ عـلـمـتـ ذـلـكـ ؟ قـلتـ : كـانـ النـجـاشـيـ يـخـرـجـ لـهـ خـرـجاـ ، فـلـمـ أـسـلـمـ وـصـدـقـ بـمـحـمـدـ عـلـيـهـ الـتـهـ ، قالـ : لـاـ وـالـلـهـ لـوـ سـأـلـنـيـ دـرـهـاـ وـاحـدـاـ مـاـ أـعـطـيـتـهـ ، فـبـلـغـ هـرـقـلـ قـوـلـهـ فـقـالـ لـهـ الـنـيـاقـ أـخـوـهـ : أـتـدـعـ عـبـدـكـ لـاـ يـخـرـجـ لـكـ خـرـجاـ ، وـيـدـيـنـ بـدـيـنـ غـيرـكـ دـيـنـاـ ؟ قـالـ هـرـقـلـ : رـجـلـ رـغـبـ فـيـ دـيـنـ ، فـاخـتـارـهـ لـنـفـسـهـ ، مـاـ أـصـنـعـ بـهـ ؟ وـالـلـهـ لـوـلـاـ الضـنـ بـمـلـكـيـ لـصـنـعـتـ كـاـ صـنـعـ . قـالـ : اـنـظـرـ مـاـ تـقـولـ يـاـ عـمـروـ ؟ قـلتـ : وـالـلـهـ صـدـقـتـكـ . قـالـ عـبـدـ : فـأـخـبـرـنـيـ مـاـ الـذـيـ يـأـمـرـ بـهـ وـيـنـهـ عـنـهـ ؟ قـلتـ : يـأـمـرـ بـطـاعـةـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ ، وـيـنـهـ عـنـ مـعـصـيـتـهـ ، وـيـأـمـرـ بـالـبـرـ وـصـلـةـ الرـحـمـ ، وـيـنـهـ عـنـ الـظـلـمـ وـالـعـدـوـانـ ، وـعـنـ الزـنـاـ ، وـعـنـ الـخـمـرـ ، وـعـنـ عـبـادـةـ الـحـجـرـ وـالـوـثـنـ وـالـصـلـيـبـ . قـالـ : مـاـ أـحـسـنـ هـذـاـ الـذـيـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ ، لـوـ كـانـ أـخـيـ يـتـابـعـنـيـ عـلـيـهـ لـرـكـبـنـاـ حـتـىـ نـؤـمـنـ بـمـحـمـدـ عـلـيـهـ الـتـهـ وـنـصـدـقـ بـهـ ، وـلـكـنـ أـخـيـ أـضـرـ بـمـلـكـهـ مـنـ أـنـ يـدـعـهـ وـيـصـيـرـ ذـنـبـاـ . قـلتـ : إـنـ إـنـ أـسـلـمـ مـلـكـهـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ الـتـهـ عـلـىـ قـوـمـهـ . فـأـخـذـ الصـدـقـةـ مـنـ غـنـيـمـهـ فـيـرـدـهـاـ عـلـىـ فـقـيرـهـمـ ، قـالـ : إـنـ هـذـاـ خـلـقـ حـسـنـ . وـمـاـ الصـدـقـةـ ؟ فـأـخـبـرـتـهـ بـمـاـ فـرـضـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ الـتـهـ فـيـ الصـدـقـاتـ فـيـ الـأـمـوـالـ حـتـىـ اـنـتـهـيـتـ إـلـىـ إـلـبـلـ . قـالـ : يـاـ عـمـروـ ، وـتـؤـخـذـ مـنـ سـوـاـمـ مـوـاـشـيـنـاـ الـتـيـ تـرـعـيـ الشـجـرـ وـتـرـدـ المـيـاهـ ؟ فـقـلتـ : نـعـمـ ، فـقـالـ : وـالـلـهـ مـاـ أـرـىـ قـوـمـيـ فـيـ بـعـدـ دـارـهـمـ وـكـثـرـةـ عـدـدـهـمـ يـطـيـعـونـ هـذـاـ . قـالـ : فـمـكـثـتـ بـيـاـبـهـ أـيـامـاـ ، وـهـوـ يـصـلـ إـلـىـ أـخـيـهـ فـيـخـبـرـهـ كـلـ خـبـرـيـ ، ثـمـ إـنـهـ دـعـانـيـ يـوـمـاـ فـدـخـلـتـ عـلـيـهـ ، فـأـخـذـ أـعـوـانـهـ بـضـبـعـيـ ، فـقـالـ : دـعـوهـ ، فـأـرـسـلـتـ ، فـذـهـبـتـ لـأـجـلـسـ ، فـأـبـواـ أـنـ يـدـعـنـيـ أـجـلـسـ ، فـنـظـرـتـ إـلـيـهـ فـقـالـ : تـكـلـمـ بـحـاجـتـكـ ، فـدـفـعـتـ إـلـيـهـ الـكـتـابـ مـخـتـومـاـ ، فـقـضـ خـاتـمـهـ ، وـقـرـأـ حـتـىـ اـنـتـهـيـ إـلـىـ آخـرـهـ ، ثـمـ دـفـعـهـ إـلـىـ أـخـيـهـ فـقـرـأـهـ مـثـلـ قـرـاءـتـهـ ، إـلـاـ أـنـيـ رـأـيـتـ أـخـاهـ أـرـقـ مـنـهـ ، قـالـ : أـلـاـ تـخـبـرـنـيـ عـنـ قـرـيـشـ كـيـفـ

صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقوبهم مع هدي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلّم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال: دعني يومي هذا، وارجع إلى غداً.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكته. حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجالاً ما في يدي، وهو لا يبلغ خيله هنا، وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كفتال من لاق. قلت: أنا خارج غداً، فلما أيقن بمحرجي خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلي، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدق النبي ﷺ، وخلبا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني^(١).

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيراً عن كتب بقية الملوك، والأغلب أنه كان بعد الفتح.

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض. فمنهم من آمن به ومنهم من كفر. ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

(١) زاد المعاد ٦٢، ٦٣/٣.

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزاره قامت بعمل القرصنة في لقاح
رسول الله ﷺ .

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية ، وقبل خير . ذكر البخاري في ترجمة
باب أنها كانت قبل خير بثلاث ، وروى ذلك مسلم مسنداً من حديث سلمة بن الأكوع .
وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل
المغازي^(١) .

وخلالصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله ﷺ
بظهره مع غلامه رياح ، وأنا معه بفرس أبي طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد
أغار على الظهر ، فاستقه أجمع ، وقتل راعيه ، فقلت : يا رياح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ،
وأنبئ رسول الله ﷺ . ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثاً : يا صياداه ، ثم
خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبيل وأرجوز ، أقول :

أنَا ابن الأكوع واليُوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إلى فارس جلست في أصل الشجرة ، ثم رميته
فعقرت به ، حتى إذا دخلوا في تضائق الجبل علوته ، فجعلت أرميهم بالحجارة ، فما زلت
كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بغير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري ،
وخلوا بيدي وبيني ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رحاً يستخفون ،

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة ذات قرد ٦٠٣/٢ ، وصحیح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٣/٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٠/٧ ، وفتح الباري ١٢٠/٢ ، زاد المعاد ١٢٠/٢ .

ولا يطرون شيئاً إلا جعلت عليه آراما من الحجارة ، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا متضايقاً من ثنية فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلى منهم أربعة في الجبل ، قلت : هل تعرفوني ؟ أنا سلمة بن الأكوع ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركه ، ولا يطلبني فيدركتني ، فرجعوا . فما برأت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . فإذا أولهم أخرم ، وعلى أثره أبو قنادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتقى عبد الرحمن وأخرم ، فعقر عبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحول على فرسه ولحق أبو قنادة بعد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، تتبعهم ، أعدوا على رجي ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه بناء يقال له ذا قرد ، ليشربوا منه ، وهم عطاش ، فأجليتهم عنه ، مما ذاقوا قطرة منه ، ولحقني رسول الله ﷺ والخيل عشاء ، فقلت : يا رسول الله إن القوم عطاش ، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح ، وأخذت بأعناق القوم ، فقال : يا ابن الأكوع . ملكت فأسجح ^(١) ، ثم قال : إنهم ليقرون الآن في غطفان .

وقال رسول الله ﷺ : خير فرسانا اليوم أبو قنادة ، وخير رجالنا سلمة . وأعطاني سهرين ، سهم الرجل وسهم الفارس ، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة . استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو ^(٢) .

(١) أسجح : أي سهل والمعنى قدرت فاعف .

(٢) انظر المصادرين السابقين ، وزاد المعاذ ١٢٠/٢ .

(غزوة خيبر ووادي القرى)

(في المحرم سنة ٥٧ هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جمة الشمال ، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوخامة .

سبب الغزوة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمناً باتاً بعد المدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين – اليهود وقبائل نجد – حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود المدح في المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هي الجديرة بالغفات المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حذبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأناروا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين – الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي – وبقطبان وأعراب البدية – الجناح الثالث من الأحزاب – وكانوا هم أنفسهم يهبون للقتال ، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محنتها متواصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ ، وإزاء ذلك اضطر المسلمين إلى بعثة متواتلة ، وإلى الفتكت برأس هؤلاء المتأمرين ، مثل سلام بن أبي الحقيق ، وأسir بن رزام ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك . وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعناد منهم – وهي قريش – كانت مجاهدة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجاهدة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر:

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر .

قال المفسرون : إن خيبر كانت وعداً وعدها الله تعالى بقوله : **وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ** (٤٨ : ٢٠) يعني صلح الحديبية ، وبالمغامن الكثيرة خيبر

عدد الجيش الإسلامي :

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً : **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَفَانِيرِ تَأْخُذُوهَا ذَرُونَاهُنَّ يَعْكِمُ بِرِيدُوكُمْ** **أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَبَيَّنُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** (٤٨ : ١٥) .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر ، أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعين .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وقال ابن إسحاق : نميلة بن عبد الله الليثي ، والأول أصح عند الحفظين^(١) .

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلماً ، فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعاً فزوده ، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكل المسلمين فأشرکوه وأصحابه في سهامهم .

اتصال المنافقين باليهود :

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر : **أَنْ حَمَدًا قَصْدَكُمْ وَتَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ ، فَخَذُوا حَذْرَكُمْ ، وَلَا تَخَافُوا مِنْهُ ، فَإِنْ عَدْتُمْ كُثِيرًا ، وَقَوْمٌ مُحَمَّدٌ شَرْذَمَةٌ قَلِيلُونَ ، عَزَّلَ لَا سِلَاحٌ مَعَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ . فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ أَهْلُ خَيْرٍ ، أَرْسَلُوا كَنَانَةَ بْنَ أَبِي الْحَقِيقِ وَهُوَذَةَ بْنَ قَيْسٍ إِلَى غَطْفَانَ . يَسْتَمْدُونَهُمْ ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا حَلْفَاءَ يَهُودَ**

(١) انظر فتح الباري ٤٦٥/٧ ، زاد المعاد ١٣٣/٢ .

خير ، ومظاهرين لهم على المسلمين . وشرطوا لهم نصف ثمار خير إن هم غلبوا المسلمين .

الطريق إلى خير:

وسلك رسول الله ﷺ في اتجاهه نحو خير جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له الرجيع ، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهافت غطفان وتوجهوا إلى خير ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا بعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً ، فظنوا أن المسلمين أغروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خير .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش – وكان اسم أحدهما حسيل – ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خير من جهة الشمال – أي جهة الشام – فيحول بين اليهود وبين طريق فارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدللك يا رسول الله – ﷺ – ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصود ، فأمر أن يسمى لها واحداً واحداً . قال : اسم واحد منها حزن فأني النبي ﷺ من سلوكه ، وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضاً وقال : اسم آخر حاطب . فامتنع منه أيضاً ، وقال حسيل : مما بقي إلا واحداً قال عمر : ما اسمه قال : مرحب ، فاختار النبي ﷺ سلوكه .

بعض ما وقع في الطريق:

١ - عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى خير فسرنا ليلاً ، فقال ، رجل من القوم لعامر : يا عامر ألا تسمعنا من هنياتك ؟ – وكان عامر رجلاً شاعراً – فنزل يحدو بال القوم . يقول :

اللهم لو لا أنت ما اهتدينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
والقين سكينة علينا
إذا صيغ بنا أيننا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق » ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : « يرحمه الله » . قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمنتنا به^(١) .

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد^(٢) ، وقد وقع في حرب خيبر .

٢ - وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ : « أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إنكم تدعون سمعياً قريباً^(٣) .

٣ - وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسوق فأمر به فتري ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، وممضمض الناس . ثم صل ولم يتوضأ^(٤) ، ثم صل العشاء^(٥) .

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبي ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمين ، فخرج أهل خيبر بمساحيم ومكاثلهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخمس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر . إنما إذا نزلنا بساحة قوم فسأء صباح المنذرين^(٦) .

وكان النبي ﷺ اختار لعسكره منزلًا ، فأتاه حباب بن المنذر فقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأي في الحرب ؟ قال : « بل هو الرأي » ، فقال : يا رسول الله

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢ ، صحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢ .

(٢) نفس المصدر الأخير .

(٣) صحيح البخاري ٦٠٥/٢ .

(٤) نفس المصدر ٦٠٣/٢ .

(٥) مغازي الواقدي (غزوة خيبر ص ١١٢) .

(٦) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٤ ، ٦٠٣/٢ .

إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة ، وجميع مقاتلي خير فيها ، وهم يدررون أحوالنا ، ونحن لا ندري أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا . وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضاً هذا بين النخلات ، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد تتخذه معسراً . قال عليه السلام : « الرأي ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر » .

ولما دنا من خير وأشرف عليها قال : « قعوا » . فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإننا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله » ^(١) .

التهيؤ للقتال وحصون خير:

ولما كانت ليلة الدخول قال : « لاعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله عليه السلام ، كلهم يرجو أن يعطىها فقال : « أين علي بن أبي طالب » ، فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه ^(٢) . قال : « فأرسلوا إليه » . فأتى به ، فبصق رسول الله عليه السلام في عينيه ودعا له فبرئ ، كان لم يكن به وجع ، فأعطياه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : « انفذ على رسليك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجالاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم » ^(٣) .

وكانت خير منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ - حصن ناعم .

٢ - حصن الصعب بن معاذ .

٣ - حصن قلعة الزبير .

٤ - حصن أبي .

(١) ابن هشام ٣٢٩/٢ .

(٢) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف في أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

(٣) صحيح البخاري باب غزوة خير ٦٠٦ ، ٥٠٥/٢ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلي كان بعد فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهم . والراجح عند المحققين هو ما ذكرنا .

٥ - حصن التزار .

والمحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطة) ، وأما الحصان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثاني ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

- ١ - حصن القموص (كان حصنبني أبي الحقيق من بنى النمير) .
- ٢ - حصن الوطيع .
- ٣ - حصن السلام .

وفي خير حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها .

والقتال المريء إنما دار في الشطر الأول منها ، أما الشطر الثاني فمحصونها الثلاثة مع كثرة المغاربين فيها سلمت دونما قتال .

بعد المعركة وفتح حصن ناعم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه المحصون الثمانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي ، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يعد بالآلاف .

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بال المسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، فرفضوا هذه الدعوة ، ويرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة . قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خير خرج ملكهم مرحب ينطر بسيفه يقول :

قد علمت خير أنى مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فهز له عمي عامر فقال :

قد علمت خير أنى عامر شاكي السلاح بطل م GAMER

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحباً في ترس عمي عامر ، وذهب عامر يسفل له ، وكان سيفه قصيراً ، فتناول به ساق اليهودي ليضر به ، فيرجع ذباب سيفه ، فأصاب عين ركبته فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : « إِنَّ لَهُ لَأْجَرَيْنَ وَجْمَعَ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ ، إِنَّهُ جَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلْ عَرَبِيٌّ مُشِيْبٌ بَهَا مُثْلِهِ »^(١) .

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله : قد علمت خير أني مرحباً .. إلخ ، فبرز له علي بن أبي طالب . قال سلمة بن الأكوع : فقال علي : أنا الذي سنتني أمي حيدره كليث غابات كربلا المنظرة
أوفهم بالصاع كيل السندره
فضرب رأس مرحباً فقتله ، ثم كان الفتح على يديه^(٢) .

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصنهم اطلع يهودي من رأس الحصن ، وقال : من أنت ، فقال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخوه مرحباً وهو يقول : من ييارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يا رسول الله ، يقتل ابني ؟ قال : « بل ابنك يقتله » . فقتله الزبير .

ودار القتال المريض حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويوخذ من المصادر أن هذا القتال دام أياماً لا يقاس ، المسلمين فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود ينسوا من مقاومة المسلمين ، فتسلىوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتصر المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمين

(١) صحيح مسلم باب غزوة خير ١٢٢/٢ ، باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢ ، صحيح البخاري باب غزوة خير ٦٠٣/٢ .

(٢) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحباً ، وفي اليوم الذي قتل فيه ، وفتح هذا الحصن . وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضاً ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخاري .

بالمجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنباري ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث ، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

وروى ابن إسحاق : أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء ، فقال : « اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غباء ، وأكثرها طعاماً وودكاً ». فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما يخbir حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه^(١) .

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بني أسلم هم المقاديم في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن . ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووُجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاء إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع في رأس قلة ، لا تقدر عليه الخيول والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصرةً ثلاثة أيام . فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم ثرياباً وعيوناً تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيما ينتهيون منك ، فإن قطعت مشربهم عليه أصحرروا لك . فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العשרה من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

(١) ابن هشام ملخصاً ٢٣٢/٢ ، والودك : دسم اللحم .

فتح قلعة أبي:

وبعد فتح قلعة الزيير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمين عليهم الحصار ، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهمما أبطال المسلمين ، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجانية سماك بن خرشة الأنصاري صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانية بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش الإسلامي ، وجرى قتال مميت داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن التزار آخر حصن في الشطر الأول .

فتح حصن النزار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء ، بينما كانوا قد أخلوا منها القلائع الأربع السابقة .

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكن الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه ، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيفة برشق النبال ، وبالقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن التزار على قوات المسلمين ، أمر النبي ﷺ ببنصب آلات المنجنيق ، وبيدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مميت في داخل الحصن ، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا - من فروا - من هذا الحصن تاركين للمسلمين نسائهم وذرارتهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنبع تم فتح الشطر الأول من خير ، وهي ناحية النطاة والشق ، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى ، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أخلوا هذه الحصون ، وهردوا إلى الشطر الثاني من بلدة خير .

فتح الشطر الثاني من خيبر:

ولما فتح ناحية النطأة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتبية والوطيع والسلام حصن أبي الحقيق من بني النضير ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطأة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص . بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضة للاستسلام^(١) .

أما الواقدي ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلمتا إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتبية - فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً ، واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالحملة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفاوضة:

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ : أنزل فأكلمك ؟ قال : نعم فنزل ، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، وينحرجون من خيبر وأرضها بذرارتهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان^(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتوني شيئاً ، فصالحوه على ذلك^(٣) . وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خيبر .

(١) ابن هشام ٢/٣٢١، ٣٢٦، ٣٢٧ .

(٢) ولكن صرخ في رواية أبي داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلاهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركبهم (انظر سنن أبي داود ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٢/٧٦) .

(٣) زاد المعاد ٢/١٣٦ .

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالاً كثيراً، غيّباً مسكاً فيه مال وحلّ حبي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الريبع ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال : رسول الله ﷺ لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟ قال : نعم ! فأمر بالخربة ، فحفرت ، فأنخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي ، فأبى أن يؤدّيه . فدفعه إلى الزير ، وقال : عذبه حتى تستحصل ما عنده ، فكان الزير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحي ، وهو يستظل بالحدار فمات) .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبي الحقيق ، وكان الذي اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وبسي رسول الله ﷺ صفية بنت حبي بن أخطب ، وكانت تحت كنانة ابن أبي الحقيق ، وكانت عروساً حدثة عهد بالدخول .

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يجعل اليهود من خيبر ، فقالوا : يا محمد ، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم . وكان عبد الله بن رواحة يحرصه عليهم .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهماً ، وجمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ وال المسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله ﷺ سهم كسبه أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم ،

سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الخديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعينائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسمهم ، وللراجل سهم واحد^(١) .

ويدل على كثرة مغافن خيبر ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر^(٢) . ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائهم التي كانوا منحوهن إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل^(٣) .

قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعريين :

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمّه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمين ، فخرجنَا مهاجرين – أنا وأخوان لي – في بعض وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينتين ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفراً وأصحابه عندَه ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقموا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأئمهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا ممن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم^(٤) .

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه قبله ، وقال : والله ما أدرِي بأيِّهما أُفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر^(٥) .

(١) زاد المعاد ١٣٧/٢ ، ١٣٨ .

(٢) صحيح البخاري ٦٠٩/٢ .

(٣) زاد المعاد ١٤٨/٢ ، صحيح مسلم ٩٦/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٤٤٣/١ ، وانظر أيضاً فتح الباري ٤٨٤/٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ .

(٥) زاد المعاد ١٣٩/٢ .

وكان قدومن هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاؤوا إلى المدينة قبل ذلك^(١) .

الزواج بصفية:

ذكرنا أن صافية جعلت في السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره ، ولما جمع النبي جاء دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : يا نبي الله ، أعطني جارية من السبي . فقال : اذهب فخذ جارية . فأخذ صافية بنت حبي ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صافية بنت حبي سيدة قريظة وبني النضير ، لا تصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها . فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من النبي غيرها ، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصباء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروسأً بها ، وأولم عليها بخيس من التمر والسمن والسوق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبني بها^(٢) .

ورأى بوجهها خضراء ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيت قبل قدمك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجري ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجي ، فلطم وجهي . فقال : تخين هذا الملك الذي بالمدينة^(٣) .

أمر الشاة المسمومة:

ولما أطمأن رسول الله بخیر بعد فتحها أهداه زينب بنت الحارث ، - امرأة سلام بن مشكم - شاة مصلبة ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكلت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلما منها مضغة ، فلم يسعها ، ولفظها ، ثم قال : إن هذا

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى ١٢٨/١ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٤ ، ٦٠٤/٢ ، ٦٠٦ ، زاد المعاد ١٣٧/٢ .

(٣) نفس المصدر الآخر ، وابن هشام ٢/٣٣٦ .

العظم ليخبرني أنه مسموم . ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها .

وكان معه بشر بن البراء بن معروف ، أخذ منها أكلة ، فأساغها ، فمات منها .

واختلفت الروايات في التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا بأنّه تجاوز عنها أولاً ، فلما مات بشر قتلها قصاصاً^(١) .

قتلى الفريقيين في معارك خيبر:

وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلاً ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ، والباقيون من الأنصار .

ويقال : إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ١٨ رجلاً . وذكر العلامة المنصور فوري ١٩ رجلاً ، ثم قال : إني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسماً ، واحد منها في الطيري فقط ، وواحد عند الواقدي فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة ، وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر . والصحيح أنه قتل في بدر^(٢) .

أما قتل اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً .

فدرك:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر ، بعث محبصة بن مسعود إلى يهود فدرك ، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ بصالحونه على النصف من فدرك ، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فدرك لرسول الله ﷺ خالصة ، لأنّه لم يوجد على المسلمين بخييل ولا ركاب^(٣) .

(١) انظر زاد المعد ١٣٩/٢ ، ١٤٠ ، فتح الباري ٤٩٧/٧ ، وأصل القصة مروية في البخاري مطولاً وختصاراً ، ٤٤٩/١ ، ٤٤٩/٢ ، ٦١٠ ، ٨٦٠ ، ٢٣٧/٢ ، ٢٣٧/٢ ، وفي ابن هشام ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

(٢) رحمة للعلميين ٢/٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) ابن هشام ٢/٢٣٧ ، ٣٥٣ .

وادي القرى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خير ، انصرف إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة ، فقتل مدعوم عبد لرسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنئنا له الجنة ، فقال النبي ﷺ : كلا . والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خير من المغام ، لم تصبها المقاصم ، لتشتعل عليه ناراً . فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشرك أو شراكين ، فقال النبي ﷺ : شراك من نار أو شراكان من نار^(١) .

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواهه إلى سعد بن عبادة ، ورایة إلى الحباب بن المنذر ، ورایة إلى سهل بن حنيف ، ورایة إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصللي بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بآيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمته الله أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً .

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ما أصاب به ، وترك الأرض والتخلف بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها^(٢) (كما عامل أهل خير) .

تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خير استسلام أهل خير ثم فدك ووادي القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون للصلح . فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم^(٣) ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبني

(١) صحيح البخاري ٦٠٨/٢ .

(٢) زاد المعاد ١٤٦/٢ ، ١٤٧ .

(٣) نفس المصدر ١٤٧/٢ .

عاديا ، إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب
خالد بن سعيد^(١) .

العودة إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة ، وفي مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام في آخر الليل
بعض الطريق ، وقال لبلال : « اكلا لنا الليل » فغلبت بلال عيناه ، وهو مستند إلى راحاته ،
فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم
خرج من ذلك الوادي ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة في غير هذا
السفر^(٢) .

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في
ربيع الأول سنة ٧ هـ .

سرية أبان بن سعيد:

كان النبي ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تماماً بعد انقضاء
الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعاً ، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب
والسلب أو أعمال القرصنة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب ، تحت قيادة أبان بن
سعيد ، بينما كان هو إلى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجباً عليه ، فوافى
النبي ﷺ بخيبر ، وقد افتحها .

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧ هـ . ورد ذكر هذه السرية في البخاري^(٣) .
قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية^(٤) .

(١) ابن سعد .

(٢) ابن هشام ٢/٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث : وانظر زاد المغاد ١٤٧/٢ .

(٣) انظر صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٨/٢ ، ٦٠٩ .

(٤) فتح الباري ٤٩١/٧ .

بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة ؛ تفرغ تماماً للالتفات إلى الجناح الثالث ، أي إلى الأعراب القساة الصاريين في فيافي نجد ، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى .

ولما كان هؤلاء البدو لا تجتمعهم بلدة أو مدينة ، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلع ، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخمام نار شرهم تماماً تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخبير ، ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب ، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى .

ولفرض الشوكة - أو لاجتثاث البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأدبية عرفت بغزوة ذات الرقاع .

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة ، ولكن مساهمة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما في هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خير ، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ .

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي ﷺ سمع باجتماع أمراء أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان ، فأسرع بالخروج إليهم في أربعينية أو سبعينية من أصحابه ، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ، ولقي جماعاً من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف .

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بينما بغير نعقبه ، فنقتب أقدامنا ، ونقتب قدماء ، وسقطت أظفاره ، فكان نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا^(١) .

وفيه عن جابر : كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتيتنا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فمنا نومة ؟ فجاء رجل من المشركين ، فاختلط سيف رسول الله ﷺ ، فقال : أخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اختلط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلنا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس . ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ .

وفي رواية : وأقيمت الصلاة فصلى بطاقة ركعين ، ثم تأحرروا ، وصلوا بالطاقة الأخرى ركعين ، وكان للنبي ﷺ أربع ، وللقوم ركعتان^(٢) .

وفي رواية أبي عوانة : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؟ قال الأعرابي : أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخل سبيله . فجاء إلى قومه ، فقال جنكم من عند خير الناس^(٣) .

وفي رواية البخاري قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث^(٤) قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور ، وأنه أسلم . لكن ظاهر كلامه أنهما قضنان في غزوتين والله أعلم^(٥) .

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق

(١) صحيح البخاري باب غزوة ذات الرقاع ٥٩٢/٢ ، وصحیح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ١١٨/٢ .

(٢) صحيح البخاري ١/٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٥٩٣/٢ .

(٣) ختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤ ، وانظر فتح الباري ٤١٦/٧ .

(٤) صحيح البخاري ٢/٥٩٣ .

(٥) فتح الباري ٧/٤٢٨ .

دماً في أصحاب محمد ﷺ ، فجاء ليلًا ، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيعة^(١) لل المسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عباداً وهو قائم يصلي بهم فتزعه ، ولم يبطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسمهم ، فلم يصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله ، هلا نبهني ، فقال : إني كنت في سورة فكرت أن أقطعها^(٢) .

كان هذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة ؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تخترى أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنيناً ، وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطى صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتح البلدان والممالك الكبيرة ، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧ هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا ، وهاك بعض تفصيلها :

١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بقديد ، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧ هـ . كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر . فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقو النعم ، وطاردهم جيش كبير من العدو ، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين . ونجح المسلمون في بقية الانسحاب .

٢ - سرية حسمى في جمادى الثانية سنة ٧ هـ ، وقد مضى ذكرها في مکاتبة الملوك .

٣ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧ هـ . ومعه ثلاثون رجلاً ، كانوا

(١) ربيعة : الشخص المخصص للمراقبة .

(٢) زاد المعاد ١١٢/٢ ، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٣/٢ ، إلى ٢٠٩ ، زاد المعاد ٢/١١٠ ، ١١٢ ، ١١٢ ، فتح الباري ٤١٧/٧ إلى ٤٢٨ .

يسرون الليل ويستخفون في النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محالم ، فلم يلق أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٤ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧ هـ ، في ثلاثة رجالاً . خرج إليهم واستأق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرمومهم بالنبل حتى فني نبل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعاً إلا بشير فإنه ارتث إلى فدك ، فأقام عند يهود ، حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧ هـ إلى بني عوال ، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة ، وقيل إلى الحرقات من جهة في مائة وثلاثين رجالاً ، فهمجموا عليهم جميعاً ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستأقوا نعماً وشاء ، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد مرداس بن نهيك بعد أن قال : لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ ، هلا شفقت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

٦ - سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثة راكباً . وذلك أن أسيراً أو بشيراً بن رزام كان يجمع غطfan لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيراً في ثلاثة من أصحابه ، وأطعموه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين .

٧ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالفتح ، أرض لغطfan وقيل لفرازة وعدرة) في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثة من المسلمين ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة . فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسيرة بشير هربوا ، وأصاب بشير نعماً كثيرة ، وأسر رجلين ، فقدم بهما إلى المدينة ، إلى رسول الله ﷺ ، فأسلموا .

٨ - سرية أبي حدرد الأسلمي إلى الغابة . ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملخصها أن رجالاً من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله ﷺ أبو حدرد مع رجلين فاختار أبو حدرد خطة حرية حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستأق الكثير من الإبل والغم (١) .

(١) زاد المعاد ١٤٩/٢ ، ١٥٠ ، وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢٢٩/٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، زاد المعاد ١٤٨/٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، تلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيه ص ٣١ ومحضر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

عمره القضاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه عليه السلام لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتروا قضاء عمرتهم ، وأن لا يختلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتربين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . أهـ^(١) .

واستخلف على المدينة عويف أبا رهم الغفارى ، وساق ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جنبد الأسلمي ، وأحرم للعمره من ذي الخليفة ، ولنى ، ولنى المسلمين معه ، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة ، خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يأجوج وضع الأداة كلها ، الحجف ، والجان ، والنبل ، والرماح ، وخلف عليها أوس بن خولي الانصاري في مائتي رجل ، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب^(٢) .

وكان رسول الله عليه السلام عند الدخول راكباً على ناقته القصواء ، والمسلمون متواشحو السيوف ، محدقون برسول الله عليه السلام يليون .

وخرج المشركون إلى جبل قعيقان - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيما بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وهنتم حمى يثرب ، فأمر النبي عليه السلام أصحابه أن يرملاوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركين . ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملاوا الأشواط كلها إلا الإبقاء ، وإنما أمرهم بذلك ليري المشركين قوته^(٣) ، كما أمرهم بالاضطباب ، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى ، ويضعوا طرف الرداء على اليسرى .

(١) فتح الباري ٧/٧٠٠ .

(٢) نفس المصدر وزاد المعاد ٢/١٥١ .

(٣) صحيح البخاري ١/٢١٨ ، ٢١٩ ، ٦١١ ، ٦١٠ ، صحيح مسلم ١/٤١٢ .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الشية التي تطلعه على الحجـون - وقد صـف المـشـرـكـون يـنظـرون إـلـيـه - فـلم يـزـلـ يـلـبـيـ حتى اـسـتـلـمـ الرـكـنـ بـمحـجـنـه ، ثـمـ طـافـ ، وـطـافـ الـمـسـلـمـونـ ، وـعـبـدـ اللهـ بنـ رـوـاـحـةـ بـيـنـ يـدـيـ رسولـ اللهـ ﷺ يـرـجـزـ متـوشـحاـ بـالـسـيـفـ :

خلوا بـنـيـ الـكـفـارـ عـنـ سـبـيـلـهـ
قدـ أـنـزـلـ الـرـحـمـنـ فـيـ تـنـزـيلـهـ
يـاـ رـبـ إـنـيـ مـؤـمـنـ بـقـيـلـهـ
بـأـنـ خـيـرـ الـقـتـلـ فـيـ سـبـيـلـهـ
ضـرـبـأـ يـزـيلـ الـهـامـ عـنـ مـقـيـلـهـ^(١)
وـفـيـ حـدـيـثـ أـنـسـ قـالـ عـمـرـ : يـاـ بـنـ رـوـاـحـةـ بـيـنـ يـدـيـ رسولـ اللهـ ﷺ ، وـفـيـ حـرـمـ اللهـ تـقـولـ
الـشـعـرـ ؟ـ فـقـالـ لـهـ النـبـيـ ﷺ : «ـ خـلـ عـنـهـ يـاـ عـمـرـ ، فـلـهـوـ أـسـرـعـ فـيـهـ مـنـ نـضـعـ الـنـبـلـ »^(٢).

ورـمـلـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ وـالـمـسـلـمـونـ ثـلـاثـةـ أـشـواـطـ ، فـلـمـ رـأـهـ المـشـرـكـونـ قـالـوـاـ : هـؤـلـاءـ الـذـينـ
زـعـمـتـ أـنـ الـحـمـىـ قـدـ وـهـنـتـ ، هـؤـلـاءـ أـجـلـدـ مـنـ كـذـاـ وـكـذـاـ^(٣).

وـلـمـ فـرـغـ مـنـ الطـوـافـ سـعـيـ بـيـنـ الصـفـاـ وـالـمـرـوـةـ ، فـلـمـ فـرـغـ مـنـ السـعـيـ ، وـقـدـ وـقـفـ الـهـدـيـ عـنـ
الـمـرـوـةـ ، قـالـ : «ـ هـذـاـ النـحـرـ وـكـلـ فـجـاجـ مـكـةـ مـنـحرـ »ـ . فـنـحـرـ عـنـدـ الـمـرـوـةـ وـحـلـقـ هـنـاكـ ، وـكـذـلـكـ
فـعـلـ الـمـسـلـمـونـ ، ثـمـ بـعـثـ نـاسـاـ إـلـيـ يـأـجـجـ ، فـيـقـيمـوـاـ عـلـىـ السـلاـحـ ، وـيـأـتـيـ الـآخـرـونـ فـيـقـضـوـنـ
نـسـكـهـمـ فـقـعـلـوـاـ .

وـأـقـامـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ بـمـكـةـ ثـلـاثـاـ ، فـلـمـ أـصـبـحـ مـنـ يـوـمـ الـرـابـعـ أـتـوـاـ عـلـيـاـ ، فـقـالـوـاـ : قـلـ
لـصـاحـبـكـ : اـخـرـجـ عـنـاـ ، فـقـدـ مـضـىـ الـأـجـلـ ، فـخـرـجـ النـبـيـ ﷺ ، وـنـزـلـ بـسـرـفـ فـأـقـامـ بـهـاـ .

وـلـأـرـادـ الـخـرـوجـ مـنـ مـكـةـ تـبـعـتـهـ اـبـنـةـ حـبـزـةـ ، تـنـادـيـ يـاـ عـمـ ، فـتـنـاوـلـهـاـ عـلـيـ ، وـاـخـتـصـ فـيـهاـ
عـلـىـ وـجـعـفـرـ وـزـيـدـ ، فـقـضـيـ النـبـيـ ﷺ لـجـعـفـرـ ، لـأـنـ خـالـتـهـ كـانـتـ تـختـهـ .

وـفـيـ هـذـهـ الـعـمـرـ تـزـوـجـ النـبـيـ ﷺ بـمـيمـونـةـ بـنـتـ الـحـارـثـ الـعـامـرـيـةـ ، وـكـانـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ قـبـلـ

(١) اـضـطـرـبـتـ الـأـشـعـارـ وـتـرـتـيـبـهاـ فـيـ الـرـوـاـيـاتـ فـجـمعـنـاـ بـيـنـ شـتـيـتـهـاـ .

(٢) رـوـاهـ التـرـمـذـيـ ، أـبـوـابـ الـإـسـتـدـانـ وـالـأـدـبـ ، بـابـ ماـ جـاءـ فـيـ إـنـشـادـ الـشـعـرـ ١٠٧/٢ .

(٣) صـحـيـحـ مـسـلـمـ ٤١٢/١ .

الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة ، فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها إيه ، فلما خرج من مكة خلف أبو رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي ، فبني بها بسرف^(١) .

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية ، والوجه الثاني رجحه المحققون^(٢) وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضبة ، والقصاص ، والصلح^(٣) .

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا ، هاكم تفصيلها :

١ - سرية ابن أبي العوجاء ، في ذي الحجة سنة ٧٦هـ ، في خمسين رجلاً بعثه رسول الله إلى بني سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا ، ثم قاتلوا قتالاً شديداً ، جرح فيه أبو العوجاء ، وأسر رجلان من العدو .

٢ - سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفذك في صفر سنة ٨٨هـ . بعث في مائتي رجل ، فأصابوا من العدو نعماً ، وقتلوا منهم قتيلاً .

٣ - سرية ذات أطلع في ربيع الأول سنة ٨٨هـ . كانت بنو قضاعة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله عليه السلام كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً ، فلقو العدو ، فدعوه إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجل واحد ، فقد ارتث من بين القتلى^(٤) .

٤ - سرية ذات عرق إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ٨٨هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسد في خمسة وعشرين رجلاً ، فاستيقوا نعماً من العدو ، ولم يلقوا كيداً^(٥) .

(١) زاد المعاد ٢/١٥٢ .

(٢) انظر زاد المعاد ١/١٧٢ ، فتح الباري ٧/٥٠٠ .

(٣) انظر نفس المصدر الأخير .

(٤) رحمة للعلميين ٢/٢٣١ .

(٥) نفس المصدر وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الموزي ص ٣٣ حاشية .

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ ، وهي مقدمة وتمهيد لفتح بلاد النصارى ، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ .

مؤتة (بالضم فالسكون) هي قرية بأدنى بلقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان .

سبب المعركة :

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني – وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيسر – فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل^(١) ، وهو أكبر جيش إسلامي ، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب .

أمراء الجيش ووصيّة رسول الله - ﷺ - إليهم :

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : « إن قتل زيد فجعلت ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة ^(٢) . وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة ^(٣) .

(١) زاد المعاد ١٥٥/٢ ، فتح الباري ٥١١/٧ .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٧ .

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا ولا استعنوا بالله عليهم ، وقاتلوهم ، وقال لهم : « اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدوا ، ولا تغروا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منزلاً بصومعة ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ، ولا تهدموا بناء »^(١) .

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة

ولما تهأ الجيش الإسلامي للخروج حضر حضرة رسول الله عليه السلام ، وسلموا عليهم ، وحيثند بكى أحد أمراء الجيش ، عبد الله بن رواحة ، فقالوا : ما يكبك ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ، ولا صباية بكم ، ولكنني سمعت رسول الله عليه السلام يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وَإِنْ تَنْكِمُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَيْكَ حَسْنًا مَقْضِيًّا ﴾ (١٩ : ٧١) فلست أدرى كيف لي بالصدر بعد الورود ؟ فقال المسلمين : صحبكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم ، وردمكم إلينا صالحين غافلين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسائل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ^(٢) تفذ الزبدا
أو طعننة ييدي حران مجهرة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مرروا على جهنمي^(٣) أرشده الله من غاز ، وقد رشدا
ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله عليه السلام مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف
وودعهم^(٤) .

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغنته حالة رهيبة:

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان ، من أرض الشام ، مما يلي الحجاز الشمالي ، وحيثند نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بما يقارب من ألف البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام وبليقين وبهراء وبلي مائة ألف .

(١) نفس المصدر ، ورحمة للعالمين ٢/٢٧١ .

(٢) الفرغ : السعة .

(٣) الحديث : القبر .

(٤) بن هشام ٢/٣٧٢ ، ٣٦٤ ، زاد المعاد ٢/١٥٦ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٤٢٧ .

المجلس الاستشاري بمعان:

لم يكن المسلمين أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرم ، الذي يوغلوا به في هذه الأرض البعيدة – وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلف مقاتل فحسب ، على جيش كبير عرم ، مثل البحر الخضم ، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمين ، وأقاموا في معان ليترين يفكرون في أمرهم ، وينظرون ويتشاورون ، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فاما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي ، وشجع الناس ، قائلاً : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظهور وإنما شهادة . وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو:

وحيثند بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليترين في معان ، تحركوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤنة ، ففسكروا هناك ، وتبعاً للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قادة العذري ، وعلى ميسرة عبادة بن مالك الأنصاري .

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك في مؤنة التقى الفريقان ، وببدأ القتال المrier ، ثلاثة آلف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدتها الدنيا بالدهشة والخيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجبائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة – حب رسول الله ﷺ – وجعل يقاتل بضراوة بالغة ، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم ، وخر صريراً .

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، وطقق يقاتل قحلاً منقطع النظير ، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قطعت شماليه ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل . يقال : إن رومياً ضربه ضربة قطعته نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة ، يطير بهما حيث يشاء ، ولذلك سمي بـجعفر الطيار ، وبـجعفر ذي الجناحين .

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره . يعني ظهره^(١) .

وفي رواية أخرى قال ابن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فاتقى علينا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية^(٢) . وفي رواية العمري عن نافع زيادة « فوجدنا ذلك منها أقبل من جسده »^(٣) .

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقى
بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيلة ، ثم قال :
أقسمت ينـا نـفـس لـتـزـلـنـه كـارـهـة أو لـتـطـاوـعـنـه
إـن أـجـلـبـ النـاسـ وـشـدـوـ الرـنـه مـالـي أـرـاكـ تـكـرـهـيـنـ الجـنـه
ثـمـ نـزـلـ ، فـأـتـاهـ اـبـنـ عـمـ لـهـ بـعـرـقـ مـنـ لـحـمـ فـقـالـ : شـدـ بـهـذـاـ صـلـيـكـ ، فـإـنـكـ قدـ لـقـيـتـ فيـ أـيـامـكـ
هـذـهـ مـاـ لـقـيـتـ ، فـأـخـذـهـ مـنـ يـدـهـ فـانـتـهـسـ مـنـ نـهـسـةـ ، ثـمـ أـلـقـاهـ مـنـ يـدـهـ ثـمـ أـخـذـ سـيفـهـ فـتـقـدـمـ ، فـقـاتـلـ
حـتـىـ قـتـلـ .

الراية إلى سيف من سيف الله:

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان - اسمه ثابت بن أرقم - فأخذ الراية وقال : يا عشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على

(١) صحيح البخاري ، باب عزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٢) نفس المصدر / ٦١١ .

(٣) انظر فتح الباري ١٢/٥ ، وظاهر الحدیثین التخالف في العدد ، وجمع بأن الزیادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام ، انظر المصدر المذکور .

خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قاتلاً مريضاً ، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، مما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية^(١) . وفي لفظ آخر : لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية^(٢) .

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبراً بالوحى ، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال - : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تدراقان - حتى أخذ الراية سيف من سيف الله ، حتى فتح الله عليهم^(٣) .

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريتين كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطّاطم من جيوش الروم ، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبيوته في تخلص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه .

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً . وبطبيعة الحال في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، في أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية ، تلقي الرعب في قلوب الرومان ؛ حتى ينجح في الانحياز المسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من براثنهم صعب جداً لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش ، وعيّنه من جديد ، فجعل مقدمته ساقه ، وميّنته ميسرة ، وعلى العكس ، فلما رأهم الأعداء أنكروا حا لهم ، وقالوا : جاءهم مدد ، فرّعوباً ، وصار خالد - بعد أن ترأّى الجيشان ، وتناولوا ساعة - يتأخر المسلمين قليلاً ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكّر في القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمين في

(١) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٢) نفس المصدر ٦١١/٢ .

(٣) نفس المصدر ٦١١/٢ .

الانجیاز سالمین ، حتى عادوا إلى المدينة^(۱) .

قتلى الفريقين:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً ، أما الرومان ، فلم يُعرف عدد قتلامهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثورتهم .

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر ، الذي عانوا ممارتها لأجله ، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والخيبة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء هذا الجيش الصغير – ثلاثة آلاف مقاتل – مع ذلك الجيش الضخم العمرم الكبير – مائتا ألف مقاتل – ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر ، كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكّد أن المسلمين من طراز آخر غير ما أفتته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقاً ، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفڑار وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان ، فكانت توطئة وتمهيداً لفتح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية .

* * *

سرية ذات السلاسل:

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقاطن مشارف الشام في معركة مؤتة ، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين ، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرق بينها وبين الرومان ، وتكون سبباً للاتفاق بينها وبين المسلمين ، حتى لا تحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

(۱) انظر فتح الباري ۵۱۳/۷ ، ۵۱۴ ، زاد المعاد ۱۵۶/۲ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصادرين والتي قبلهما .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي ، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٦٨ هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم ، ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جماعاً من قضاة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنو من أطراف المدينة ، فبعثه إليهم ، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معاً .

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواءً أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرساناً ، وأمره أن يستعين به من بلي وعدرة وبليقين ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جماعاً كثيراً ، فبعث رافع بن مكث الجوني إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبو عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جماعاً ولا يختلفا ، فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يوم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت على مددًا ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبيدة ، فكان عمرو يصل بالناس .
وسار حتى وطى بلاد قضاة ، فدخلوها حتى أتى أقصى بلادهم ، ولقي في آخر ذلك جماعاً ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعي يريدًا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقوتهم وسلامتهم ، وما كان في غزاتهم .

وذات السلسل (بضم السنين الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادي القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، فسمى ذات السلسل^(١) .

سرية أبي قتادة إلى خضرة:

كانت هذه السرية في شعبان سنة ٦٨ هـ . وذلك لأن بني غطفان كانوا يتحشدون في خضرة - وهي أرض محارب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبو قتادة في خمسة عشر رجلاً فقتل منهم ، وسى وغم ، وكانت غيته خمس عشرة ليلة^(٢) .

(١) انظر ابن هشام ٢/٦٢٣، ٦٢٤، ٦٤٥، ٦٢٦، ٦٤٥ . زاد المعاد ٢/١٥٧ .

(٢) رحمة للعالمين ٢/٢٢٣ ، تلقيح فهوم أهل الآخر ص ٣٣ .

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم : هـو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنته وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين ، من أيدي الكفار والمرتكبين ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، وضررت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً هـ^(١) .

سبب الغزوة :

قدمنا في وقعة الحديبية أن بنداً من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد - ﷺ - وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق ، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواً على ذلك الفريق .

وبحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، ووَقَعَتْ هذه المدنة ، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمتها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيروا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوافل بن معاوية الدبلي في جماعة من بنو بكر في شهر شعبان سنة ٨ هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له « الوتير » فأصابوا منهم رجالاً ، وتناولوا وقتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إلـيـهـ قالـتـ بـنـوـ بـكـرـ : يا نوافل ، إـنـاـ

(١) زاد المعاد ٢/٦٠ .

قد دخلنا الحرم ، إهلك إهلك . فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بني بكر ، أصيروا ثأركم ،
فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ، أ فلا تصيبون ثأركم فيه ؟
ولما دخلت خزاعة مكة جلأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ، وإلى دار مولى لهم يقال له
رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي ، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فوقف
عليه ، وهو جالس في المسجد بين ظهري الناس فقال :

يا رب إني ناشرد محمداً حلف أينَا وأيَّهُ الأَنْلَد ^(١)	قد كُنْتَ ولدًا وَكَنَا وَالَّدَا ^(٢)
ثَمَّةَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَتَرْعِ يَدَا ^(٣)	فَانْصَرَ ، هَدَاكَ اللَّهُ ، نَصَرَا أَيْدَا
وَادْعُ عَبْدَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا	فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ، قَدْ تَجَرَّدَا
أَيْضَ مُشَلَّ الْبَدْرِ ، يَسْمُو صَدَدَا	إِنْ سَيِّمْ خَسْفَاً وَجْهَهُ تَرَبَّدَا
فِي فَيْلَقِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا	إِنْ قَرِيشَا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقْضُوا مِثَاقَكَ الْمُؤْكَدَا	وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءِ رَصَدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ أَدْعُو أَحَدَا	وَهُمْ أَذْلُ ، وَأَقْلُ عَدَدَا
هُمْ بَيْتُونَا بِالْوَتِيرِ هَجَدَا	وَقَتَلُونَا رَكْعَاً وَسَجَدَا ^(٤)

قال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال :
إن هذه السحابة لتسهل بنصربني كعب .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ
المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وعظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضًا ونقضاً صريحاً للميثاق لم يكن له أي

(١) الأتلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٢) يشير إلى أم عبد مناف - وهي حبي زوجة قصي - كانت من خزاعة .

(٣) يقول : قطتنا وقد أسلمنا .

مير ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها ، وخففت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعقدت مجلساً استشارياً ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان مثلاً لها ؛ ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم . قال : كأنكم بأني سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة .

وخرج أبو سفيان - حسب ما قررته قريش - فلقي بديل بن ورقاء بعسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال : من أين أقبلت يا بديل ؟ - وظن أنه أتي النبي ﷺ - فقال : سرت في خزانة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا .

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لعن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتي مbrick راحلته ، فأخذ من بعرها فقتله ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنتي ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدي شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : آنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجده إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنه فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمرني ابنك هذا فيغير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يغير بين الناس ، وما يغير أحد على رسول الله ﷺ .

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عني أبي سفيان ، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج و Yas وقوط : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحتي . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك . ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغناً عنك شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنني لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد علي شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجده فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، قد أشار علي بشيء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يعني عني شيئاً أم لا ؟ قالوا : وهم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

التهيؤ للغزو ومحاولة الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق ثلاثة أيام - أن تجهزه ، ولا يعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال : يا بنتي ما هذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدرى . فقال : والله ما هذا زمان غزوبني الأنصاف ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لا علم لي . وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً ، وارتجز : يا رب إني ناشد محمداً .. الآيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بدليل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة . وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قحافة بن ربيع إلى بطن إضم فيها بين ذي خشب وذي المروءة على ثلاثة برد من المدينة ، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ، ليظنون الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتهذيب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثها أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ

خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته^(١) .

وكتب حاطب بن أبي بلتقة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من النساء بما صنع حاطب ، فبعث عليها والمقداد ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعاذى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلها ، وقالا : مunk كتاب؟ فقالت ما معك كتاب ، ففتحا رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها علي : أحلف بالله ، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخرين الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليها ، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : (من حاطب بن أبي بلتقة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، فدعى رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب؟ فقال : لا تعجل على يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالشّورسوله ، وما ارتدت ولا بدلت ، ولكني كنت امراً ملصقاً في قريش لست من أنفسهم ، ولهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أأخذ عندهم يداً يحمون بها قرافي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شتم فقد غفرت لكم ، فذررت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم^(٢) .

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال .

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبيط ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله حملم بن جثامة لشيء كان بينهما ، وأخذ بغيره ومتبعه ، فأنزل الله ﷺ ولا تقولوا لمن ألقى إلينكم السلام لست مؤمناً الآية ، وجاؤوا بحملم ليستغفرا له رسول الله ﷺ ، فلما قام بين يديه قال : اللهم لا تغفر حلم ، وقاما ثلثا ، فقام وإنه ليتعلق دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قوله أنه استغفرا له بعد ذلك . انظر زاد المعاد ١٥٠/٢ ، وابن

هشام ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ .

(٢) انظر صحيح البخاري ٤٢٢/١ ، ٦١٢/٢ .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متوجهًا إلى مكة ، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم واستخلف على المدينة أبو رهم الغفارى . ولما كان بالحجفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجرًا ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية ، فأعرض عنهما ؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقي الناس بك . وقال علي لأبي سفيان بن الحارث : أئت رسول الله ﷺ من غيل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف : ﴿قَالُوا تَأَلَّهُ لَقَدْ مَا ثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كَانَ الْخَطِيبُ﴾ (٩١ : ١٢) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قوله . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿لَا تَغْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْرِبُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحْمَمِينَ﴾ (٩٢ : ١٢) فأنشد أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحمل راية لتبغل خيل اللات خيل محمد
لكمالدجل الحيران أظلم ليه فهذا أولني حين أهدى فأهلدي
هداني هاد غير نفسي ودنلي على الله من طردته كل مطرد
فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردني كل مطرد^(١) .

الجيش الإسلامي ينزل بصر الظهران:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد – وهو ماء بين عسفان وقديد – فأفطر وأفطر الناس معه^(٢) ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران – وادي فاطمة – نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأودعوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) حسن إسلام أبي سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وشهد له بالحننة ، وقال : أرجو أن يكون خلفاً من حمزة . ولا حضرته الوفاة قال : لا تبكوا علي ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ١٦٢/٢ ، ١٦٣ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٦١٢ .

أبو سفيان بين يدي رسول الله - ﷺ -

وركب العباس - بعد نزول المسلمين بمرا الظهران - بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الخطابة أو أحداً يخبر قريشاً ؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن زرقاء يتتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إني لأسيء عليها - أي على بغلة رسول الله ﷺ - إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسيراً . قال : يقول بديل : هذه والله خزانة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزانة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكتها .

قال العباس : فعرفت صوته ، قلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي . قلت : هذا رسول الله ﷺ في الناس ، واصبح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت : والله لعن ظفر بك ليضر بن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمه لك ، فركب خلفي ، ورجع أصحابه .

قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنا عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبي سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، علو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، قلت : والله لا ينادي الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر ،

فواهله لو كان من رجالبني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً يا عباس ، فوالله لا إسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بي إلا أنا قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

قال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلتك ، فإذا أصبحت فاتني به ، فذهبت ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأه قال : ويحلك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظنست أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عن شيفاً بعد .

قال : ويحلك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً . فقال له العباس : ويحلك أسلم ، وشهاد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً . قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

الجيش الإسلامي يغادر من الظهران إلى مكة:

وفي هذا الصباح - صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة 8 هـ - غادر رسول الله ﷺ من الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل^(١) ، حتى تمر به جنود الله فبراهما ، ففعل ، فمرت القبائل على رياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فيقول - مثلاً - : سليم ، فيقول : مالي ولسلم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالي ولزينة ؟ حتى نفت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأله العباس عنها ، فإذا أخبره قال مالي ولبني فلان ؟ حتى مر به رسول الله ﷺ في كيبيته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الجديد ، قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين

(١) الخطم : الأنف ، شيء يخرج من الجبل بضيق به الطريق .

والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت رأية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرماء ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ فقال : كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل : بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معاشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميات الدسم الأخمش الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وبثوا أوباشا لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيءٌ كنا معهم ، وإن أصييوا أعطينا الذي سئلنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفاوها مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل من بني بكر - حماس بن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحاً ، فقالت له أمراته : لماذا تعدد ما أرى ؟ قال : محمد وأصحابه قال : والله ما يقوم محمد وأصحابه شيء . قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إِنْ يُقْبَلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِي عَلَيْهِ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَاللّٰهُ
وَذُو غَارِبٍ سَرِيعُ السُّلْطَةِ^(١)

(١) عَلَهُ : يقال عَلَهُ الرجل يعل من المرض ، غاربين : حدبين ، السلة : الانتشال والسحب .

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخدمة .

الجيش الإسلامي بذى طوى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذي طوى - وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرجل - وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى - وفيها أسلم وسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافقوني على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره أن يدخل مكة من أعلىها - من كداء - وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجال والحرس - وهم الذين لا سلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادي ، حتى ينصب ملكة بين يدي رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يدخل مكة:

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها فاما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أسلموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن ربيعة ، كان قد شذا عن الجيش ، فسلكا طريراً غير طريقه فقتلا جميعاً ، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخدمة فناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس - الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته ، فقال لأمرأته : أغلقي علي بابي . فقالت : وأين ما كت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخدمة
يا سيف المسلم
ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

(١) التهيت والمهمة : أصوات .

وأقبل خالد يجوس مكة حتى واف رسول الله ﷺ على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يربح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

الرسول - ﷺ - يدخل المسجد الحرام ويظهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت عليه ثلثمائة وستون صنناً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَطْلُ إِنَّ الْبَطْلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١ : ١٧) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّيُ الْبَطْلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٣٤ : ٤٩) والأصنام تتراقص على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محramaً يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط . ورأى في الكعبة حماماً من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحبت .

الرسول - ﷺ - يصلی في الكعبة ثم يخطب أمام قريش:

ثم أغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك ، ثم دار في البيت ، وكثير في نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضاً من الباب ، وهم تحته ، فقال :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ

شبه العمد - السوط والعصا - فقيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّةٍ وَأَنْتُمْ وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَقَبَائلًا لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَسِيرٌ﴾ (٤٩ : ١٣) .

لاتثريب عليكم اليوم:

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿لَا تَثِرِّبُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علي رضي الله عنه ، ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجاجة مع السقاية ، صلى الله عليك ، وفي رواية : أن الذي قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

بلال يؤذن على الكعبة

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغطيه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأنخبرت عن هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم : قد علمت الذي قلت ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخيرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب ، فاغتسل وصلى ثانية ركعات في بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانئ حموين لها ، فقال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلها ، فأغلقت عليهما باب بيتها ، وسألت النبي ﷺ ، فقال لها ذلك .

إهدر دماء رجال من أكابر المجرميين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعه نفر من أكابر المجرميين ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقيتان كانتا لاين خطل ، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ ، وسارة مولاية لبعضبني عبد المطلب ، وهي التي وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، ف جاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه فحقن دمه ، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك وهواجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن ، فاستأمنت له امرأته ، فأن منه النبي ﷺ فبعثه ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل فكان متعلقاً بأستار الكعبة ، ف جاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال : اقتله . فقتله .

وأما مقيس بن صبابة فقتلته غليلة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ، ثم عدا على رجل من الأنصار قتلته ، ثم ارتد ولحق بالمرشكين .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة ، فقتله علي .

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت ،

فتخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنبيها ، ففر هارب يوم مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

وأما القيستان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر : وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي قتله علي ، وذكر الحاكم أيضاً من أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك ، وأسلم ومدح ، ووحشى بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت ، وأربب مولاية ابن خطل أيضاً قتلت ، وأم سعد ، قتلت فيها ذكر ابن إسحاق ، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أربب وأم سعد القيستان ، اختلف في اسمهما ، أو باعتبار الكنية واللقب^(١) .

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان من أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فآمنه ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جهة إلى اليمين فرده ، فقال لرسول الله ﷺ : أجعلني بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرها على النكاح الأول .

وكان فضالة رجلاً جريحاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، وهو في الطواف ، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم .

خطبة الرسول - ﷺ - في اليوم الثاني من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهل ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة ، فلا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، أو

(١) فتح الباري ١١/٨ ، ١٢ .

يغضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما حللت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي رواية : لا يغضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلي خلاه ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر .

وكان خزاعة قتلت يومئذ رجلاً من بني ليث بقتلهم لهم في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : يا معاشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع ، لقد قلتم قتيلاً لأدينه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بغير النظرين ، إن شاؤوا فدم قاتله ، وإن شاؤوا فعقله .

وفي رواية : فقام رجل من أهل البين يقال له « أبو شاه » فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأنبي شاه^(١) .

تحوف الأنصار من بقاء الرسول - ﷺ - في مكة:

وما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهي بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلدءه أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه - فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم ينزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله الحيا محياك ، والممات مماتك .

أخذ البيعة:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ وال المسلمين تبين لأهل الحق ، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يباعي الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فباعوه على السمع والطاعة فيها استطاعوا .

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ١/٢٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦١٥/٢-٢ ، ٦١٧ ، وصحيف مسلم ١/٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٢٨ ، وابن هشام ٢/٤١٥ ، ٤١٦ ، أبو داود ١/٢٧٦ .

وفي المدارك^(١) : روي أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يباعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متذكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، لما صنعت بمحنة ، فقال رسول الله ﷺ : أباعنك على أن لا تشركن بالله شيئاً ، فباع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : ولا تسرفن . فقالت هند : إن أبي سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : وإنك هند ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك .

قال : ولا يزنين . قالت : أو تزني الحرثة ؟ قال : ولا يقتلن أولادهن . قالت : ربناهم صغراً ، وقتلتهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله ﷺ .

قال : ولا يأتين بهتان . قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمننا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولا يعصينك في معروف . قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور .

إقامةه - بمكة، وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً ، يجدد معلم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى ، وخلال هذه الأيام أمر أبيأسيد الخزاعي ، فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادي مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنعاً إلا كسره .

السرايا والبعوث:

١ - ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزي ، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدئها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقرיש وجيع بنى كنانة ،

(١) انظر مدارك التزيل للنسفي تفسير آية البيعة .

وهي أعظم أصنامهم ، وكان سلطتها بني شيبان ، فخرج إليها خالد في ثلاثة فارساً حتى انتهى إليها ، فهدمها ، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئاً؟ قال : لا قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها ، فرجع خالد متغيطاً قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزها باثنين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العزى ، وقد أبىت أن تعبد في بلادكم أبداً .

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليهدهم ، وهو صنم لهذيل برهاط ، على ثلاثة أميال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما ت يريد؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قال : لم؟ قال : تخنعوا . قال : حتى الآن أنت على الباطل؟ وبحكم ، فهل يسمع أو يصر؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا فيه شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمت الله .

٣ - وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشلي في عشرين فارساً إلى مناة ، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها : ما ت يريد؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعوا بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصائبك ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدهمه وكسره ، ولم يجدوا في خزانته شيئاً .

٤ - ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شعبان من نفس السنة (٨٨هـ) إلى بني جذيمة ، داعياً إلى الإسلام ، لا مقابلاً . فخرج في ثلاثة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم ، فانتهى إليهم ، فدع عليهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : « صبأنا صبأنا » فجعل خالد يقتتلهم ويأسرهم ، ودفع إلى كل رجل من كان معه أسيراً ، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره ، فألف ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ ، فذكروا له ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم إني أبراً إليك مما صنع خالد - مرتين -^(١) .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسرابهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري / ١، ٤٥٠، ٦٢٢/٢ .

عليها فودى لهم قتلامن وما ذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك ، فبلغ عليهما صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ فقال : مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان أحد ذهاباً ، ثم أنفنته في سبيل الله ما أدركني غدوة رجل من أصحابي ولا روحته^(١) .

تلك هي غزوة فتح مكة ، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاء باتاً ، لم يترك لبقائها مجالاً ولا ميرراً في ربوع الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تتضرر مما يتمخض عنه العراق والاصطدام الذي كان دائراً بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جيداً أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أي تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهللوكوا وجعلوا كعصف مأكلو .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسيبه بشر كثير في الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامي الذي لم يزد في الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر في هذه الغزوة في عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام . وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني كلّيهما معاً في طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدينية .

فالطور الذي كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم ، وكمل بهذا الفتح المبين ، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماماً ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماماً . ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ ، فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم ، وقد تم استعدادهم لذلك في ستين آتيتين .

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢٨٩/٢ إلى ٤٣٧ ، وصحيحة البخاري ١/كتاب الجهاد وكتاب المساسك ٤٣٩ إلى ٦١٢ ، ٦٢٢ ، ٦١٥ ، فتح الباري ٣/٨ إلى ٢٧ ، وصحيحة مسلم ١/٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ١٠٢/٢ ، ١٣٠ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ٢/١٦٠ إلى ١٦٨ ، وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٢٢ إلى ٣٥١ .

المرحلة الثالثة

وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلائل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية ، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاماً .

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمين في هذه الأعوام ، تغير لأجله مجرى الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب في ذلك تبع لهم ، فخضع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى في جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين :

(١) صفحة المجاهدة والقتال .

(٢) صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام .

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة ، ووقعت كل واحدة منها خلال الأخرى ، إلا أنها اختلفنا في الترتيب الوضعي ، أنا نأتي على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظراً إلى أن صفحة القتال أصدق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب .

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شدّه لها العرب ، وبوغت القبائل المجاورة بالأمر الواقع ، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تتنّع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة ، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف ، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال – وكلها من قيس عيلان – رأت هذه البطون من نفسها عزاً وأنفقة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع ، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس

ولما أجمع القائد العام – مالك بن عوف – المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار حتى نزل بأوطاس – وهو واد في دار هوازن بالقرب من حنين ، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين ، وحنين واد إلى جنب ذي الحجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات^(١) .

محرب الحروب يغلط رأي القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة – وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً – قال دريد : بأي واد أنت؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيول ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصبي وثغاء الشاء؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم

(١) انظر فتح الباري ٢٧/٨ ، ٤٢ .

وأبناءهم ، فدعوا مالكاً وسأله عما حمله على ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وما له ليقاتل عنهم ، فقال : راعي ضأن والله ، وهل يرد المهزم شيئاً ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . ثم سأله عن بعض البطون والرؤساء ، ثم قال : يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ، ثم ألق الصباة على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من ورائك ، وإن كانت عليك الفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ولكن مالكاً - القائد العام - رفض هذا الطلب قائلاً : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لنطعني هوازن أو لأنكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكراه أن يكون لدري ذكر أو رأي ، فقالوا : أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

ياليتني فيها جذع أخب فيها وأضع
أقحواد وطفاء الدمع كأنها شاة صدوع

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصاهم . قال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، والله ما تمسكنا أن أصابنا ما ترى .

سلاح استكشاف رسول الله - ﷺ :

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو ، فبعث أبو حبيب الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .

الرسول - ﷺ - يغادر مكة إلى حنين:

وفي يوم السبت - السادس من شهر شوال سنة ٦٨هـ - غادر رسول الله ﷺ مكة - وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة - خرج في الثاني عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف من كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثوا عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسد .

ولما كان عشيّة جاء فارسٍ ، فقال : إني طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبئم بظعنهم ونعمهم وشائمهم ، فتسلم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرضد الغنوبي^(١) .

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة حضراء يقال لها ذات أنواع ، كانت العرب تطلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عذابها ريمكرون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول ﷺ : اجعل لنا ذات أنواع ، كما لهم أنواع . فقال : الله أكبر ، قلت والذى نفس محمد بيده كا قال قوم موسى : اجعل لنا إلهنا كما لهم إله ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركين سنن من كان قبلكم^(٢) .

وقد كان بعضهم قال نظراً إلى كثرة الجيش : لن نغلب اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يياغنه بالبراعة والمهاجمين :

انهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشرين خلون من شوال ، وكان مالك بن عموف قد سبقهم ، فأدخل جوشه بالليل في ذلك الوادي ، وفرق كعباته في الطريق والمداخل ، والشعب والأحياء والمضائق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما ظنعوا ، ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس ، وفي عمایة الصبع استقبل المسلمون وادى حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه ، وهم لا يدركون بوجود كعبات العدو في مضائق هذا الوادي تباينهم ينحطون إذا هم تنظر عليهم النبال ، وإذا كاتب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانصر المسلمون راجعين ، لا يلوى أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - الأخر - وصرخ جبلة أو كلدة بن الجنيد : ألا بطل السحر اليوم .

(١) انظر سنن أبي داود .

(٢) روى ذلك الترمذى .

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : هلموا إلـي أهـلـا الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولم يـقـ معـهـ فيـ مـوقـهـ إـلاـ عـدـ قـلـيلـ منـ المـهاـجـرـينـ وأـهـلـ بـيـتـهـ .
وحيـثـ ظـهـرـتـ شـجـاعـةـ النـبـيـ ﷺ التـيـ لاـ نـظـيرـ لـاـ . فـقـدـ طـفـقـ يـرـكـزـ بـغـلـتـهـ قـبـلـ الـكـفـارـ وـهـ يـقـولـ :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
يـدـ أـبـاـ سـفـيـانـ بـنـ الـخـارـثـ كـانـ آـخـذـاـ بـلـجـامـ بـغـلـتـهـ ، وـالـعـبـاسـ بـرـكـابـهـ ، يـكـفـانـهـ ، أـنـ
لـاـ تـسـرـعـ . ثـمـ نـزـلـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـاستـصـرـ رـبـهـ قـائـلـاـ : اللـهـمـ أـنـزـلـ نـصـرـكـ .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمّه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا ليك ، يا ليك^(١) . وذهب الرجل ليثني بعره فلا يقدر عليه ، فأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعره ، وينخل سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتلوها .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا عشر الأنصار ، يا عشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج ، وتلاحتت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة . وتجاذب الفريقان بحالة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتم ، فقال : « الآن حمي الوطيس » . ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهـتـ الـوـجـوهـ ، فـمـاـ خـلـقـ اللـهـ إـنـسـانـاـ إـلـاـ مـلـأـ عـيـنـيهـ تـرـابـاـ مـنـ تـلـكـ الـقـبـضـةـ ، فـلـمـ يـزـلـ حـدـهـمـ كـلـيـلاـ وـأـمـرـهـمـ مـدـبـراـ .

انكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة:

وما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمي القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة ، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين ، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وطن .

(١) صحيح مسلم ١٠٠/٢ .

وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله : ﴿وَيَوْمَ حِنْينٍ إِذَا عَجَّبْتُمْ كَثُرْتُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنِّي كُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحْبَتْ ثُمَّ وَلَيْسُ مُدِيرِينَ ﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودَ الْأَتْرُوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى خلة ، وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري ، فتناولوا الفريقيان القتال قليلاً ، ثم انهزم جيش المشركين ، وفي هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا خلة ، فأدركـت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع .

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف ؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنائم:

وكانت الغنائم : السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر منأربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ، ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى ، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت في السبي الشيبة بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فلما جاءها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمتها ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردها إلى قومها .

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النصري - وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر - شوال سنة ٥٨هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر في طريقه على النخلة اليانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف في ذلك ، فقيل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل : ثانية عشر ، وقيل : خمسة عشر ^(١) .

ووقعت في هذه المدة مramaة ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحه ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقدف به القذائف ، حتى وقعت شدحة في جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة ^(٢) ، ودخلوا بها إلى المدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محممة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمواهم بالنبيل وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلحاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأعناب وتخريقها . فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته ثقيف أن يدعها الله والرحم ، فتركها الله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون ^(٣) رجلاً فيهم أبو بكرة - تصور حصن الطائف وتدل منه بيكرة مستديرة يستقي عليها ، فكناه رسول الله ﷺ «أبا بكرة» - فأعتقدتهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

(١) فتح الباري ٤٥/٨ .

(٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقوه وهم في جوفها ، أو ليدخلوا من الثقبات .

(٣) صحيح البخاري ٦٢٠/٢ .

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيّوا من رشق النبال وبسکك الحديد الممّا - وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نوبل بن معاوية الديلي فقال : هم ثعلب في حجر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحيثئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس : إنما قافلوكن غداً إن شاء الله ، فشق عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ : اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : إنما قافلوكن غداً إن شاء الله ، فسرروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قولوا : آييون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم .

قسمة الغنائم بالجعرانة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف ؛ مكت بـ الجعرانة بـ بعض عشرة لـية لا يـقـسمـ الغـنـائـمـ ، ويـتـأـنـ بـهاـ ، يـتـغـيـرـ أـنـ يـقـدـمـ عـلـيـهـ وـفـدـ هوـازـنـ تـائـيـنـ ، فـيـحرـزـواـ ماـ فـقـدـواـ ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـبعـهـ أـحـدـ ، فـبـدـأـ بـقـسـمـةـ الـمـالـ ، لـيـسـكـتـ الـمـتـطـلـعـيـنـ مـنـ رـؤـسـاءـ الـقـبـائـلـ وـأـشـرافـ مـكـةـ ، فـكـانـ الـمـؤـلـفـةـ قـلـوـبـهـمـ أـوـلـ مـنـ أـعـطـيـ وـحـظـيـ بـالـأـنـصـبـةـ الـحـزـلـةـ .

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابني يزيد ؟ فأعطاه مثلها ، فقال : ابني معاوية ؟ فأعطاه مثلها ، وأعطى حكيم بن حرام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها . وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة - كذا في الشفاء^(١) ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل ، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة من الإبل ، وأعطى آخرين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه فقال : أيها الناس ردوا على ردائى ، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ، ثم ما أفيتني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٨٦/١

ثم قام إلى جنب بيته فأخذ من سمامه وبرة ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها ، فقال : أيتها الناس ، والله مالي من فيكم ، ولا هذه الوربة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعين من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة .

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة ، فإن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تهدى إليها فمهما حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له^(١) .

الأنصار تجد على رسول الله - ﷺ :

وهذه السياسة لم تفهم أول الأمر ، فأطلقت السنة شتى بالاعتراض ، وكان الأنصار من وقعت عليهم مغامر هذه السياسة ، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصاراً ، وهما هم أولاء يرون أيدي الفارين ملائى ، وأما هم فلم ينحووا شيئاً قط^(٢) .

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطایا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحبي من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحبي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ؟ قسمت في قومك ، وأعطيت عطایا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحبي من الأنصار منها شيء . قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي : قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة » ، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم

(٢-١) كلمة محمد الغزالى في فقه السيرة ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معاشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدتها وجذبها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغنكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم » ؟ قالوا : بلى ، والله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : « ألا تجربوني يا معاشر الأنصار » ؟ قالوا : بماذا نجبيك يا رسول الله ؟ الله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شتم لقلم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وخدولاً فنصرناك ، وطريداً فآتيناك ، وعائلاً فآسيناك .

أوجدمت يا معاشر الأنصار في أنفسكم في لعنة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسوا ، ووكلتم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معاشر الأنصار أن يذهب الناس بالشدة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لو لا الهجرة لكونت امراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ؛ لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القوم حتى أخذلوا لحاظهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا^(١) .

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وهم أربعة عشر رجلاً ، ورأسمهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فسألوه أن يمين عليهم بالسيبي والأموال ، وأدلووا إليه بكلام ترق له القلوب ، فقال : « إن معي من ترون ، وإن أحبت الحديث إلى أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقال : « إذا صليت الغداة - أي صلاة الظهر - فقوموا فقولوا : إننا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبياناً » ، فلما صلوا الغداة

(١) ابن هشام ٤٩٩/٢ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخاري ٦٢٤/٢ ، ٦٢١ .

قاموا فقالوا ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسائل لكم الناس » ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال الأقرع بن حabis : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عبيدة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرادس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنت سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال العباس بن مرادس : وهتموني .

قال رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً . فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا » ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ . فقال : « إنا لا نعرف من رضي منكم لم يرض . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، لم يختلف منهم أحد غير عبيدة بن حصن فإنه ألى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم ، ثم ردّها بعد ذلك ، وكما رأى رسول الله ﷺ السبّي قبطية قبطية .

العمرة والانصراف إلى المدينة:

وما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الحعرانة أهلَّ معتمراً منها ، فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولي على مكة عتاب ابن أسيد ، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة سنة ٨٨هـ .

قال محمد الغزالى : الله ما أفسح المدى الذي بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ؟

لقد جاء مطارداً يغى الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه ، وأووه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جيئاً من أجله ، وهو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجرًا خائفاً ، لاستقبله مرة أخرى وقد

دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبراءها وجاهليتها فأنهضها ؛ ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيباتها الأولى ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَتَّقَ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢) .^(١) (٩٠)

(١) فقه السيرة ص ٣٠٣ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوات – فتح مكة وحنين والطائف ، وما وقع خلالها – زاد المعاد ج ٢ من ص ١٦٠ إلى ٢٠١ ، وابن هشام ج ٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١ ، وصحيح البخاري أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج ٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢ ، وفتح الباري ج ٨ من ص ٣ إلى ٥٨ .

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود ، ويبعث العمال ، ويبيث الدعاة ، ويكتب من بقى فيه الاستكبار عن الدخول في دين الله ، والاستسلام للأمر الواقع الذي شاهدته العرب . وهاك صورة مصغرة من ذلك :

المصدقون:

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان في أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال الحرم من سنة 9هـ ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل . وهذه هي قائمتهم :

- | | |
|--|--------------------------|
| إلى بني تميم . | (١) عيينة بن حصن |
| إلى أسلم وغفار . | (٢) يزيد بن الحصين |
| إلى سليم ومزنية . | (٣) عباد بن بشر الأشبيلي |
| إلى جهينة . | (٤) رافع بن مكيث |
| إلى بني فزارة . | (٥) عمرو بن العاص |
| إلى بني كلاب . | (٦) الضحاك بن سفيان |
| إلى بني كعب . | (٧) بشير بن سفيان |
| إلى بني ذبيان . | (٨) ابن اللتبية الأزدي |
| إلى صنعا . (وخرج عليه الأسود العنسي وهو
بها). | (٩) المهاجر بن أبي أمية |

- | | |
|---|------------------------|
| إلى حضرموت . | (١٠) زياد بن لبيد |
| إلى طيء وبني أسد . | (١١) عدي بن حاتم |
| إلى بني حنظلة . | (١٢) مالك بن نويرة |
| إلى بني سعد (إلى قسم منهم) . | (١٣) الزبرقان بن بدر |
| إلى بني سعد (إلى قسم منهم) . | (١٤) قيس بن عاصم |
| إلى البحرين . | (١٥) العلاء بن الحضرمي |
| إلى نجران (الجمع الصدقة والجزية كلهم) . | (١٦) علي بن أبي طالب |

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في الحرم سنة ٩ هـ ؟ بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها . نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في الحرم سنة ٩ هـ . وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية ، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً .

السرايا:

وكان بعث المصدقون إلى القبائل ، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا ، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة . وهاك لوحة تلك السرايا :

١ - سرية عيينة بن حصن الفزاري - في الحرم سنة ٩ هـ - إلى بني تميم ، في خمسين فارساً ، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصار ، وسيبها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكتمن النهار ، حتى هجم عليهم في الصحراء ، فولى القوم مدربين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ ، فنادوا : يا محمد اخرج إلينا ، فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم ، ثم

قدموا شاعرهم الزيرقان بن بدر فأنشد مفاحراً ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديبة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطبيه أخطب من خطيبينا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوازهم ، ورد عليهم نسائهم وأبناءهم ^(١) .

٢ - سرية قطبة بن عامر إلى حي من خضم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، في صفر سنة ٩ هـ . خرج قطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثُر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقتل قطبة من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ - سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثت هذه السرية إلى بني كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزّهم المسلمون وقتلوا منهم رجلاً .

٤ - سرية علقة بن مجذ المدخلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ في ثلاثة . بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضدّ أهل مكة . فخاض علقة البحر حتى انتهى إلى جزيرة . فلما سمعوا بمسير المسلمين إلىهم هربوا ^(٢) .

٥ - سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء . يقال له القلس - ليهدمه - في شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرساناً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلّة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبي والنعيم والشاء ، وفي السبي أخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام ، ووُجد المسلمون في

(١) مكذا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في الحرم سنة ٩ هـ . وفيه نظر ظاهر ، فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلام قبلها ، وقد ذكرروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله ﷺ سباباً بني هوازن : أما أنا وبنو تم فلا . وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية .

(٢) فتح الباري ٥٩/٨ .

خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفي الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفي
لرسول الله ﷺ . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدي بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة :
يا رسول الله ، غاب الوافد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بي من خدمة ، فَمَنْ عَلَىٰ ، مَنْ
الله عليك . قال : « من وافقك » ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : « الذي فر من الله
ورسوله » ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال أميس . فلما كان بعد
الغد قالت مثل ذلك ، فَمَنْ عليها ، وكان إلى جنبه رجل – ترى أنه على – فقال لها : « سليه
الحملان – . فسألته ، فأمر لها به .

ورجعت أخت عدي إلى أخيها عدي بالشام ، فلما لقيته قالت عن
رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغباً أو راهباً ، فجاء عدي بغير أمان
ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ما يفرك ؟
أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله » ؟ قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم
قال : « إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله » ؟ قال : لا . قال : « فإن
اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون » . قال : فإني حنيف مسلم . فانبسط وجهه
فرحاً ، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار^(١) .

وفي رواية ابن إسحاق عن عدي : أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه في داره قال له : إيه
يا عدي بن حاتم ، ألم تكن ركوسيا ؟ قال : بلى . قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟
قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يحل لك في دينك . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت
أنهنبي مرسل ، يعرف ما يجعل^(٢) .

وفي رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال : يا عدي أسلم وسلم . فقلت إني من أهل دين .
قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدني مني ؟ قال : نعم ، ألمست من الركوسية

(١) زاد المعاد ٢٠٥/٢ .

(٢) ابن هشام ٥٨١/٢ .

وأنت تأكل مرباع قومك؟ فقلت: بلى قال: فإن هذا لا يحمل لك في دينك . قال: فلم يعد أن
قاموا فتواضعت لها^(١) .

وروى البخاري عن عدي قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة ، ثم
أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل ، فقال: يا عدي ، هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة
فلترى العين ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكتيبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولكن طالت بك
حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولكن طالت بك حياة لترى الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو
فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه - الحديث - وفي آخره: قال عدي : فرأيت
الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكتيبة لا تخاف إلا الله ، وكانت فيمن أفتح كنوز
كسرى بن هرمز ، ولكن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ (يخرج ملء
كفه)^(٢) .

(١) مسنـد الإمام أـحمد .

(٢) صحيح البخاري انظر مشكـاة المصـايـح ٥٢٤/٢ .

غزوة تبوك

في رجب سنة ٥٩ هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل . لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً - كما سيظهر ذلك مما تقدمه في فصل الوفود ، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع - وانتهت المتابعة الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة:

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهي قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي - على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالروم اصطداماً عنيفاً في مؤتة ، ولم تنجع في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريهم وبعيدهم .

ولم يكن قيسار ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيسار ، ومواطأتهم للMuslimين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في

صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيسر بعد معركة مؤتة سنة كاملة ؛ حتى أخذ يهيء الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان:

وكانت الأنبياء ترمي إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسرورهم كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معناد إلا ويظنونه زحف الرومان ، ويظهر ذلك جلياً ما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي ﷺ آلي من نسائه شهراً في هذه السنة (٩ هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له . ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب – وهو يروي هذه القصة – : وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر – وكانوا يسكنان في عوالي المدينة ، يتناوبان إلى النبي ﷺ – ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتنأ صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصاري يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغساني؟ قال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . الحديث^(١) .

وفي لفظ آخر (أنه قال) : وكنا تحدثنا أن آل غسان تتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب باي ضرباً شديداً وقال : أنام هو؟ ففزع ، فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم . فقلت : ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه . الحديث^(٢) .

وهذا يدل على خطورة الموقف . الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان . ويزيد ذلك تأكداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ما رأه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ في كل الميادين ، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ،

(١) صحيح البخاري ٢/٧٣٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٤٣ .

بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق ، برغم هذا كله طرق هؤلاء المنافقون يأملون في تتحقق ما كانوا يخفونه في صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله . ونظراً إلى قرب تتحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر ، في صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسه كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين ، فلا يفطنوا ما يُؤْتَى به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتقطوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفاقائهم في الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه – إلى قوله من الغزوة – لشغله بالجهاز ، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله ، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القبول من الغزو ، بدل أن يصلى فيه .

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغضان:

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذ بلغهم من الأنبياء الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هياً جيشاً عمره أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب ، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء . وهكذا تمثل أمم المسلمين خطر كبير .

زيادة خطورة الموقف:

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظللهم ، ويكرهون الشخص على الحال ، من الزمان الذي هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة ، والطريق وعرة صعبة .

الرسول - ﷺ - يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله . إنه كان يرى أنه لو تواني وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة ؛ كان له أسوأ أثر

على الدعوة الإسلامية ، وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالملاهي التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاسية في حنين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذي يتربصون الدوائر بال المسلمين بخناجرهم من الخلف ، في حين تهجم الرومان بحملة ضاربة ضد المسلمين من الأمام ، وهكذا يتحقق كثير من الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة ... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيداً ، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم ، ولا يهلوهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتوجهوا للقتال ، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم ، وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجل للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على المحلا ، وتحثهم على القتال ورغبتهم رسول الله ﷺ في بذل الصدقات ، وإنفاق كرام الأموال في سبيل الله .

المسلمون يتسابقون إلى التجهيز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعوه إلى قتال الروم إلا وتسابقاً إلى أمثاله ، فقاموا يتوجهون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿لَا أَحِدٌ مَا أَحْمَلُ كُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ نَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنَا أَلَا يَحِدُّوا مَا يُنِفِّقُونَ﴾ (٩٢: ٩) .

كما تسابق المسلمين في إتفاق الأموال وبذل الصدقات . كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام ، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار فتشرها في حجره عليهما ، فكان رسول الله عليهما يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم »^(١) ، ثم تصدق وتصدق ، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله ، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله – وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال ، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسبعين من التمر ، وتتابع الناس بصدقائهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها ؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلالن وقرط وخواتم .

ولم يمسك أحد يده ، ولم يدخل بماله إلا المنافقون ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ إِلَّا جُهْدَهُرٍ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (٧٩: ٩)

الجيش الإسلامي إلى تبوك:

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله عليهما على المدينة محمد بن مسلمة الأنباري ، وقيل سباع بن عرفطة ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب ، وأمره بالإقامة فيه ، وغمض عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله عليهما ، فرده إلى المدينة وقال : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » .

ثم تحرك رسول الله عليهما يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيراً – ثلاثة ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمين في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط – فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزو تجهيزاً كاملاً . بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً وربما أكلوا أوراق

(١) جامع الترمذى . مناقب عثمان بن عفان ٢١١/٢ .

الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا إلى ذبح البعير – مع قلتها – لشربوا ما في كرشه من الماء ، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة .

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر – ديار ثود الذين جابوا الصخر بالواد ، أي وادي القرى – فاستنقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا من مائتها ولا تتوضأوا منه للصلوة . وما كان من عجبن عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً » ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ؛ أن يصييكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين » ، ثم قنع رأسه وأسع بالسير حتى جاز الوادي^(١) .

واشتتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : « إنكم ستأنون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار ، فمن جاءها فلا يمْسِ من مائتها شيئاً حتى آتي » . قال معاذ : فجئنا وقد سبق إليها رجالان ، والعين تبض بشيء من مائتها ، فسألهما رسول الله ﷺ : « هل مسستما من مائتها شيئاً ؟ قالاً : نعم . وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرف من العين قليلاً حتى اجتمع الوشن ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستنقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى هاهنا قد ملء جناناً »^(٢) .

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك – على اختلاف الروايات – قال رسول الله ﷺ : « تهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيء^(٣) .

(١) صحيح البخاري باب نزول النبي ﷺ الحجر ٦٣٧/٢ .

(٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢٤٦/٢ .

(٣) نفس المصدر .

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع التقدم وجمع التأخير كليهما .

الجيش الإسلامي بتبوك:

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فخطب خطبة بلية ، أتى بجموع الكلم ، وحضر على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجرب بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وخلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيدين .

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله و Muhammad النبي رسول الله ليحنّه بن روبة وأهل أيلة ، سففهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعينات وعشرين فارساً ، وقال له : إنك ستتجده بصيد البقر ، فأتاه خالد ، فلما كان من حصنه بمنظر العين ، خرجت البقر ، تحلك بقرونها بباب القصر ، فخرج أكيدر لصيدها – وكانت ليلة مقمرة – فلتقاء خالد من خيله ، فأخذه وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فحقن دمه ، وصالحه على ألفي بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعينات درع ، وأربعينات ربع ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقضاه مع يحنّه على قضية دومة وتبوك وأيلة وتياء .

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتقادها على سادتها الأقدمين قد فات

أوانه ، فانقلب لصالح المسلمين ، وهكذا توسيع حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد علماء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصوريين ، لم ينالوا كيداً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المناقين الفتك بالنبي ﷺ ، وذلك أنه حينها كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن اليمان يسوقها ، وأخذ الناس بيطن الوادي ، فانتهز أولئك المناقون هذه الفرصة . فيينا رسول الله ﷺ وصاحبه يسيران إذ سمعوا وكرة . القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم ملتشمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحاجن كان معه ، فأربعبم الله ، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم ، وأخبر رسول الله ﷺ بأسائهم ، وما هموا به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَهُمْ وَيَوْمَئِذٍ لَّا يَرَوْنَا﴾ .

وما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال : هذه طلة ، وهذا أحد ، جبل يحبنا ونجبه ، وتسامي الناس بقدمه ، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن^(١) :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دع الله داع
وكان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً . أقام منها عشرين يوماً في تبوك . والباقي قضتها في الطريق جائحة وذهوباً . وكانت هذه الغزوة آخر غزوته ﷺ .

المخلفون:

وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها - اختباراً شديداً من الله تعالى ، امتاز به المؤمنون من غيرهم . كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَّ

(١) هنا رأى ابن القم وقد مضى البحث عليه في ص ١٧٢ .

الْمُؤْمِنُونَ عَلَىٰ مَا آتَيْتُهُ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿٣ : ١٧٩﴾ (٣) فقد خرج بهذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادقاً ، حتى صار التخلف أماراً على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم : دعوه ، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه ، فلم يتخلف إلا من جسده العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذباً ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأساً . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر . وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصل في ركتين ، ثم جلس للناس ، فأما المنافقون – وهم بضعة وثمانون رجلاً^(١) – فجاؤوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار ، وطفقوا يحملون له ، فقبل منهم علاناتهم ، وبايدهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين – وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الريبع ، وهلال بن أمية – فاختاروا الصدق ، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تنكرت لهم الأرض ، وضاقت عليهم بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساعهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثمأنزل الله توبتهم ﴿وَعَلَى الْفَلَانَةِ الَّذِينَ خَلُقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَبَّجَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَمْ يَجِدُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَشُوُّبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٩ : ١١٨) .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه وغايته ، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين جسدهم العذر فقد قال تعالى فيهم : **﴿لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْذَرُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهُ وَرَسُولِهِ** ﴿٩١: ٩﴾ الآيات

(١) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار ، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكثروا عدداً كثيراً (انظر فتح الباري ١١٩/٨) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة .

أثر الغزوة :

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وقويتهم على جزيرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الحاصلين والمناقفين الذين كانوا يتربصون الدوائر بال المسلمين ، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالروم ، فقد استكانتوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع ، الذي لم يجدوا عنه مهيداً ولا مناصاً .

ولذلك لم يبق للمناقفين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقاتهم ، وعن الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم ، والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتأمرهم التي بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحا بها افتضاحاً تاماً ، لم يبق في معرفتهم بعدها أي خفاء ، لأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة ؛ بل وما قبلها ، إلا أن تتابع الوفود وتكتاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة^(١) .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج - وهو في السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٥١٥/٢ إلى ٥٣٧ ، وزاد المعد ٢/٣ إلى ١٣ وصحیح البخاری ٦٣٢/٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٢٥٢/١ و ٤١٤ وغيرها وصحیح مسلم مع شرحه للنووى ٢٤٦/٢ . وفتح الباري ١١٠/٨ إلى ١٢٦ وختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي من ص ٣٩١ إلى ٤٠٧ .

ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين والخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

بعض الواقع المهمة في هذه السنة:

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ :

- (١) بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عمير العجلاني وامرأته .
- (٢) رجمت المرأة الغامدية التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة ، رجمت بعد ما فطمته ابنتها .
- (٣) توفي النجاشي أصحمة ، ملك الحبشة ، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب .
- (٤) توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وقال لعثمان : « لو كانت عندي ثلاثة لروجتكها » .
- (٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، فاستغفر له رسول الله ﷺ ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر .

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩٦هـ) بعث رسول الله عليه السلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج ، ليقيم بال المسلمين الناسك .

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض الموثيق ونبذها على سواء ، فبعث رسول الله عليه السلام علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك ، وذلك تمشياً منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال ، فالتفى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال علي : لا ، بل مأمور ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله عليه السلام . ونبذ إلى كل ذي عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ، فأبقى عهدهم إلى مدتكم .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالاً ينادون في الناس : ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب ، وأنها لا تبدىء ولا تعيد بعد هذا العام ^(١) .

(١) صحيح البخاري ١/٢٢٠، ٤٥١، ٦٢٦/٢، ٦٧١، زاد المعاد ٣/٢٥، ٢٦، ابن هشام ٢/٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوته وسرايته ، لا يمكن لنا ولا لأحد من ينظر في أوضاع الحروب وأثارها وخلفياتها – لا يمكن لنا إلا أن نقول : إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا ، وأسدتهم وأعمقهم فراسة وتيقظاً ، إنه صاحب عبرية فذة في هذا الوصف ، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة ، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الطرف ومن الجهة اللذين يقتضيما الحزم والشجاعة والتدمير ، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لفطحة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش ، وتعيينه على المراكيز الاستراتيجية ، واحتلال أفضل الموضع وأوثقها للمجاهاة ، و اختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال ، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ما عرفتها وتعرف الدنيا في القواد . ولم يقع ما وقع في أحد وحدين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش – في حنين – أو من جهة معصيتهم أوامرهم ، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية .

وقد تجلت عبريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين ، فقد ثبت مجابها للعدو ، واستطاع بحكمته الفذة أن ينجيهم في أهدافهم – كما فعل في أحد – أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً – كما في حنين – مع أن مثل هذا التطور الخطير ، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد ، وتركان على أعصابهم أسوأ الأثر ، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم .

هذه هي من ناحية القيادة العسكرية الحالصة . أما من نواح أخرى ، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام ، وإطفاء نار الفتنة ، وكسر شوكة الأعداء في صراع

الإسلام والوثنية ، وإلخاتهم إلى المصالحة ، وتخلية السبيل لنشر الدعوة ، كما استطاع أن يتعرف على الخلصين من أصحابه من هو ييطن التفاق ، ويضمون نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تحطيم الحروب وإدارة دفة القتال ، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمتهم كانوا فيها فاكهين .

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات ، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمسااغل لل المسلمين ، حتى تفصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار ، وهياً السلاح والكراع والعدة والنفقات ، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان ، وأخذ الثأر ، والفوز بالوتر ، وكبت الضعيف ، وتخريب العمran ، وتدمير البنيان ، وهتك حرمات النساء ، والقسوة بالضعف والولائد والصبيان وإهلاك الحرج والنسل ، والعبث والفساد في الأرض – في الجاهلية – إذ صارت هذه الحرب – في الإسلام – جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة ، وأغراض سامية وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ، فقد صارت الحرب جهاداً في تخلص الإنسان من نظام القهـر والعدوان . إن نظام العدالة والنصف ، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف ، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه ، وصارت جهاداً في تخلص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وجعل لنا من لدنك ولينا . واجعل لنا من لدنك نصيراً ، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمرءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقادها ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر الله ، اغزوا ، فلا تغلوا ولا تغدوا ، ولا تقتلوا ، ولا تقتلوا

وليداً .. الحديث . وكان يأمر بالتسير ويقول : يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا^(١) . وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح ، ونهى أشد النبي عن التحريق في النار ، ونهى عن قتل الصبية ، وقتل النساء وضربهن ، ونهى عن النهب حتى قال : إن النبي ليست بأهل من الميّة . ونهى عن إهلاك الحرش والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولا يقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : لا تجهزن على جریح ، ولا تتبعن مدبراً ، ولا تقتلن أسيراً ، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل ، وشدد في النبي عن قتل المعاهدين حتى قال : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً ... إلى غير ذلك من القواعد النبوية التي طهرت المروء من أدران الجاهلية ، حتى جعلتها جهاداً مقدساً^(٢) .

(١) صحيح مسلم ٨٢/٢ ، ٨٣ ، ٨٤/٢ .

(٢) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعد ٦٤/٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والجهاد في الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٢١٦ إلى ٢٦٢ .

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتاً ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كنا بماء مهر الناس ، وكان يمر بنا الركبان فتسألهما : ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ - أي النبي ﷺ - فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أو حي إليه . أو حي الله كذلك ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، فكأنما يقرأ في صدري ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهونبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتمكم والله من عند النبي ﷺ - حقاً . فقال : صلوا صلاة كذلك في حين كذلك ، وصلاة كذلك في حين كذلك ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، ول يؤمكم أكثركم قرآنًا . الحديث^(١) .

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكد ذلك أي تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة ترى في هذين العامين - التاسع والعشر - ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح ، إذا هو يزخر في ثلاثة ألف مقاتل في غزوة تبوك ، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى في حجة الوداع بحراً من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفاً منهم - يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوى له الآفاق ، وترتج له الأرجاء .

(١) صحيح البخاري ٦١٥/٢ ، ٦١٦

الوفود:

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفداً ، ولا يمكن لنا استقصاءها ، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالاً ماله روعة أو أهمية في التاريخ . ول يكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ؛ ولكن هناك قبائل توافت قبله أيضاً :

(١) وفد عبد القيس - كانت هذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان ، يرد المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدو إلينه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كثيرهم الأشجع العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأنا .

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً ، وكان فيهم المحارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه^(١) .

(٢) وفد دوس - كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخير ، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيلي بن عمرو النوسي ، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة ، ثم رجع إلى قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويطعون عليه ، حتى يقس منهم ، ورجع إلى رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : اللهم اهد دوساً . ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفيلي بسبعين أو ثمانين بيتاباً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخير فلحق به .

(٣) رسول فروة بنى عمرو الجذامي - كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان ، عاماً لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعد ما رأى من جлад المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ . ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/٢٣ ، فتح الباري ٨/٨٥ ، ٨٦ .

فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء ، وضربوا عنقه^(١) .

(٤) وفد صداء – جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ . وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثاً من أربعينات المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من البين فيها صداء ، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتكم وأفاداً على من ورائي ، فارددهم الجيش وأنا لكم بقومي ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم ، وبايدهم على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوه ، فقشا عليهم الإسلام ، فوافي رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع .

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى – كان من بيت الشعراء ، ومن أشهر العرب ، وكان يهجو النبي ﷺ ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً يمكثون كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقي من شراء قريش هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً ، وإنما فاجئ إلى نجاتك . ثم جرى بين الأخرين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل في جهينة ، وصلى معه الصبح ، فلما انصرف وأشار عليه الجندي ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال : يا رسول الله . إن كعب بن زهير ، قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتكم به ؟ قال : «نعم» . قال : أنا كعب بن زهير . فوثب عليه رجل من الأنصار يستاذن ضرب عنقه ، فقال : «دعه عنك ، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه» .

وحيثند أنسد كعب قصيده المشهورة التي أولاها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها، لم يفدي، مكبول
قال فيها – وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويدحه – :

(١) زاد المعاد ٤٥/٣ ، تفهم القرآن ١٦٩/٢ .

متيم إثرها، لم يفده، مكبوط
والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
أذنب، ولو كثرت في الأقاويل
أرى وأسع ما لو يسمع الفيل
من الرسول بإذن الله تنويل
في كف ذي نقمات قيله القيل
وقيل : إنك منسوب ومسؤول
في بطن عثر غيل دونه غيل
مهند من سيف الله مسلول

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
نبيت أن رسول الله أوعدي
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة لا
لتأخذني بأقوال الوشاة ولم
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
لظل يرعد، إلا أن يكون له
حتى وضعت يميني ما أنازعه
فلهموا أخوف عندي إذ أكلمه
من ضيغف بضراء الأرض خدره
إن الرسول لنور يستضاء به

ثم مدح المهاجرين من قريش ؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا
بخير ، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه ، قال :
يمشون مشي الجمال الزهر يعصهم ضرب إذا عرد السود التنايل
فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له ، وتدارك ما كان قد فرط منه في
شأنهم ، قال في تلك القصيدة :

في مقرب من صالح الأنصار من سره كرم الحياة فلا ينزل
إن الخيار هم بنو الأخير ورثوا المكارم كابراً عن كابر
(٦) وفد عذرة - قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ . هم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن
النعمان . قال متكللهم حين سئلوا من القوم : نحن بنو عذرة ، آخرة قصي لأمه ، نحن الذين
عضدوا قصيأ ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم
النبي عليه السلام ، وبشرهم بفتح الشام ، ونههم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا
يدبحونها . أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا .

(٧) وفد بلي - قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثة ، وقد سأله رئيسهم
أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله عليه السلام : « نعم ، وكل معروف صنعته إلى
غني أو فقير فهو صدقة » ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : « ثلاثة أيام » ، وسأل عن ضالة

الغم فقال : « هي لك أو لأخيك أو للذئب » ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : « مالك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه ». .

(٨) وفـ ثقـيف - كانت وفـادـتهم في رمضان سنة ٩ هـ . بعد مرجع رسول الله ﷺ من تـبـوك . وقصـة إـسـلامـهم أن رـئـيـسـهـم عـرـوـةـ بـنـ مـسـعـودـ الثـقـفـيـ جاءـ إـلـىـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ بـعـدـ مـرـجـعـهـ من غـزـوةـ الطـائـفـ في ذـيـ الـقـعـدـةـ سـنـةـ ٨ـ هــ قـبـلـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ، فـأـسـلـمـ عـرـوـةـ ، وـرـجـعـ إـلـىـ قـوـمـهـ ، وـدـعـاهـمـ إـلـىـ إـسـلـامـ - وـهـوـ يـظـنـ أـنـهـ يـطـيـعـونـهـ ؛ لـأـنـهـ كـانـ سـيـداـ مـطـاعـاـ فـيـ قـوـمـهـ ، وـكـانـ أـحـبـ إـلـيـهـمـ مـنـ أـبـكـارـهـمـ - فـلـمـ دـعـاهـمـ إـلـىـ إـسـلـامـ رـمـوهـ بـالـنـبـلـ مـنـ كـلـ وـجـهـ حـتـىـ قـتـلـوهـ ، ثـمـ أـقـامـواـ بـعـدـ قـتـلـهـ أـشـهـراـ ، ثـمـ اـتـمـرـواـ بـيـنـهـمـ ، وـرـأـواـ أـنـ لـاـ طـاقـةـ لـهـمـ بـحـربـ مـنـ حـوـلـهـ مـنـ الـعـرـبـ - الـذـينـ كـانـوـاـ قـدـ بـاـيـعـوـاـ وـأـسـلـمـوـاـ - فـأـجـمـعـواـ أـنـ يـرـسـلـوـاـ رـجـلـاـ إـلـىـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ ، فـكـلـمـواـ عـبـدـ يـالـيلـ بـنـ عـمـرـوـ ، وـعـرـضـواـ عـلـيـهـ ذـلـكـ فـأـلـيـ ، وـخـافـ أـنـ يـصـنـعـواـ بـهـ إـذـاـ رـجـعـ مـثـلـ مـاـ صـنـعـواـ بـعـرـوـةـ ، وـقـالـ : لـسـتـ فـاعـلـاـ حـتـىـ تـرـسـلـوـاـ مـعـيـ رـجـالـاـ ، فـبـعـثـواـ مـعـهـ رـجـلـيـنـ مـنـ الـأـحـلـافـ وـثـلـاثـةـ مـنـ بـنـيـ مـالـكـ ، فـصـارـواـ سـتـةـ فـيـهـمـ عـثـيـانـ بـنـ أـبـيـ الـعـاصـ الثـقـفـيـ ، وـكـانـ أـحـدـهـمـ سـنـاـ .

فـلـمـ قـدـمـواـ عـلـىـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ ضـرـبـ عـلـيـهـمـ قـبـةـ فـيـ نـاحـيـةـ الـمـسـجـدـ ، لـكـيـ يـسـمـعـواـ الـقـرـآنـ ، وـبـيـرـواـ النـاسـ إـذـاـ صـلـوـاـ ، وـمـكـثـواـ يـخـتـلـفـونـ إـلـىـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ ، وـهـوـ يـدـعـوهـمـ إـلـىـ إـسـلـامـ ، حـتـىـ سـأـلـ رـئـيـسـهـمـ أـنـ يـكـتـبـ لـهـمـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ قـضـيـةـ صـلـحـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ ثـقـيفـ . يـأـذـنـ لـهـمـ فـيـهاـ بـالـزـنـيـ وـشـرـبـ الـخـمـورـ وـأـكـلـ الـرـبـاـ ، وـيـرـكـ لـهـمـ طـاغـيـتـهـمـ الـلـاتـ ، وـأـنـ يـغـفـيـهـمـ مـنـ الـصـلـةـ ، وـأـنـ لـاـ يـكـسـرـواـ وـشـرـبـ الـخـمـورـ وـأـكـلـ الـرـبـاـ ، وـيـرـكـ لـهـمـ طـاغـيـتـهـمـ الـلـاتـ ، وـأـنـ يـغـفـيـهـمـ مـنـ الـصـلـةـ ، وـأـنـ لـاـ يـكـسـرـواـ أـصـنـامـهـمـ بـأـيـدـيـهـمـ ، فـأـلـيـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ أـنـ يـقـبـلـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ ، فـخـلـوـاـ وـتـشـاـورـوـاـ ، فـلـمـ يـجـدـواـ مـحـيـصـاـ مـعـ الـإـسـلـامـ لـرـسـولـ اللهـ ﷺـ ، فـأـسـلـمـوـاـ وـأـسـلـمـوـاـ ، وـاشـتـرـطـواـ أـنـ يـتـولـيـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ هـدـمـ الـلـاتـ ، وـأـنـ ثـقـيفـ لـاـ يـهـدـمـونـهـ بـأـيـدـيـهـمـ أـبـدـاـ ؛ فـقـبـلـ ذـلـكـ ، وـكـتـبـ لـهـمـ كـتـابـاـ ، وـأـمـرـ عـلـيـهـمـ عـثـيـانـ بـنـ أـبـيـ الـعـاصـ الثـقـفـيـ ، لـأـنـهـ كـانـ أـحـرـصـهـمـ عـلـىـ التـفـقـهـ فـيـ إـسـلـامـ وـتـعـلـمـ الـكـتـابـ الـقـرـآنـ ؛ وـذـلـكـ أـنـ الـوـفـدـ كـانـوـاـ كـلـ يـوـمـ يـغـدوـنـ إـلـىـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ ، وـيـخـلـفـونـ عـثـيـانـ بـنـ أـبـيـ الـعـاصـ فـيـ رـحـاـلـهـمـ ، فـإـذـاـ رـجـعـواـ وـقـالـواـ بـالـهـاجـرـةـ عـمـدـ عـثـيـانـ بـنـ أـبـيـ الـعـاصـ إـلـىـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ ، فـأـسـتـقـرـأـهـ الـقـرـآنـ ، وـسـأـلـهـ عـنـ الـدـيـنـ ، وـإـذـاـ وـجـدـهـ نـائـماـ عـمـدـ إـلـىـ أـبـيـ بـكـرـ لـنـفـسـ الـغـرـضـ ، (وـكـانـ مـنـ أـعـظـمـ النـاسـ بـرـكـةـ لـقـوـمـهـ فـيـ زـمـنـ الـرـدـةـ ، فـإـنـ ثـقـيفـ لـاـ عـزـمـتـ عـلـىـ الرـدـةـ قـالـ

لهم : يا معاشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً ، فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا على الردة ، وثبتوا على الإسلام) .

ورجع الوفد إلى قومه فكتّبوا لهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنى والخمر والرiba وغيرها وإلا يقاتلهم ، فأخذت ثقيف نحوة الجاهلية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة ي يريدون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأله ، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً هدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ، فقام المغيرة بن شعبة ، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتاج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، فوثب المغيرة فقال : بحقكم الله ، إنما هي لکاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسوها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حليها ولباسها ، فبهت ثقيف ، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بخلتها وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه^(١) .

(٩) رسالة ملوك اليمن - وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعم بن عبد كلال ، والنعمان بن قيل ذي رعين ، وهدان ومعافر ، ورسوهم إلى النبي ﷺ مالك بن مرة الرهاوي ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطي فيما العاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية ، وبعث إليهم رجالاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل .

(١٠) وفد هدان - قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سأله ، وأمر عليهم مالك بن المنط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيئوه ، ثم بعث علي بن أبي طالب ، وأمره أن يقفل خالداً ، فجاء علي إلى هدان ، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً ، وكتب علي بيسارة

(١) زاد المعاد ٢٦/٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ابن هشام ٥٣٧/٣ إلى ٥٤٢ .

إسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

(١١) وفد بني فرازة – قدم هذا الوفد سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم في بضعة عشر رجالاً جاؤوا مقررين بالإسلام ، وشكوا جدب بلادهم ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، فرفع يديه واستسقى ، وقال : اللهم اسق بلادك وبهاك ، وانشر رحمتك ، وأحيي بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثاً ، مغيثاً ، مريحاً ، طبقاً ، واسعاً ، عاجلاً ، غير آجل ، نافعاً غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ، ولا غرق ، ولا محن ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء^(١) .

(١٢) وفد نجران – (نجران ، بفتح التون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلات وسبعين قرية ، مسيرة يوم للراكب السريع^(٢) ، وكان يُولف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية) .

وكانَتْ وفَادَةُ أَهْلِ نَجْرَانَ سَنَةَ ٩ هـ ، وقَوْمُ الْوَفَدِ سَتوْنَ رَجُلًا ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مِنَ الْأُشْرَافِ ، فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ كَانَ إِلَيْهِمْ زَعَامَةً أَهْلَ نَجْرَانَ ، أَحْدَهُمُ الْعَاقِبُ ، كَانَتْ إِلَيْهِ الْإِمَارَةُ وَالْحُكْمُ وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ ، وَالثَّانِي السَّيِّدُ ، كَانَتْ تَحْتَ إِشْرَافِهِ الْأُمُورُ الْقَاتِفَةُ وَالْسِيَاسَةُ وَاسْمُهُ الْأَيُّوبُ أَوْ شَرْحَبِيلُ ، وَالثَّالِثُ الْأَسْقُفُ وَكَانَتْ إِلَيْهِ الزَّعَامَةُ الْدِينِيَّةُ ، وَالْقِيَادَةُ الرُّوحَانِيَّةُ ، وَاسْمُهُ أَبُو حَارِثَةُ بْنُ عَلْقَمَةَ .

وَلَمَّا نَزَلَ الْوَفَدُ بِالْمَدِينَةِ ، وَلَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلُوهُمْ وَسَأَلُوهُ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى إِلَيْسَامِ ، وَتَلَاقَهُمُ الْقُرْآنُ فَامْتَنَعُوا ، وَسَأَلُوهُ عَمَّا يَقُولُ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَنَينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْ أَنْدَعْ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَقَنَتَ اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ (٦١ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) .

(١) زاد المعاد ٤٨/٣ .

(٢) فتح الباري ٩٤/٨ .

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى بن مریم في ضوء هذه الآية الكريمة ، وتركهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا في أمرهم ، فأبوا أن يقرروا بما قال في عيسى . فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى ، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له ، وفاطمة تمشي عند ظهره ، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا ، فقال كل من العاقب والسيد للآخر : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلأعنتنا لا نفلح نحن ولا عقينا من بعدهنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم ، فجاؤوا وقالوا : إنا نعطيك ما سألتنا . فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم على ألفي حلة ، ألف في رجب ، ألف في صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وطلبو منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً ، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ؛ ليقبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفسو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلماً بعد ما رجعوا إلى نجران ، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً ؛ ليأتيه بصدقائهم وجزيئهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين^(١) .

(١٣) وفد بني حنيفة – كانت وفادتهم سنة ٩ هـ . وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلة الكذاب^(٢) – وهو مسيلة بن ثامة بن كثير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة – نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار ، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات في مسيلة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل في جميعها أن مسيلة صدر منه الاستكفار والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبي ﷺ أراد استخلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ، فلما رأى أن ذلك لا يجدي فيه نفعاً تفرس فيه الشر .

(١) فتح الباري ٨/٩٤ ، ٩٥ ، زاد المعد ٣٨/٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية وفد نجران ، حتى جمع بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين ، وقد ذكرنا – ملخصاً – ما ترجم عندها في هذا الوفد .

(٢) فتح الباري ٨/٨٧ .

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه أتي بخزائن الأرض ، فوقع في يديه سواران من ذهب ، فكيرا عليه وأهله ، فأوحى إليه أن انفخهما ، فنفخهما ، فذهبها ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستكاف – وقد كان يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته – جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه ، فكلمه فقال له مسيلمة : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعده ، فقال : لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعود أمر الله فيك ، ولكن أدبرت ليعرنك الله ، والله إني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يحييك عنني . ثم انسدف^(١) .

وأخيراً وقع ما تفرض فيه النبي ﷺ ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكرا في أمره ، حتى أدعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، وأحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنهنبي ، وافتتن به قومه فتبعوه ، وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم . وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه : إني أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقربيش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَنْقَبَةُ لِلْمُسَقَّيِينَ﴾^(٢) .

وعن ابن مسعود قال : جاء ابن النواحة ، وابن أثال رسولاً مسيلمة إلى النبي ﷺ ، فقال لهم : أتشهدان أني رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبي ﷺ : آمنت بالله ورسوله . لو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكم^(٣) .

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢ هـ، قتلته وحشى قاتل حمزة . وأما المتني الثاني ، وهو الأسود

(١) انظر صحيح البخاري باب وفدي بن حنيفة ، وباب قصة الأسود العنسي ٦٢٧/٢ ، ٦٢٨ ، ٨٧/٨ وفيتبح الباري إلى ٩٣ .

(٢) زاد المعاد ٣١/٣ ، ٣٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصايح ٣٤٧/٢ .

العنسي الذي كان بالمين ، فقتله فیروز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ يوم وليلة ، فأناه الوحي فأخیر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من المین إلى أبي بکر رضي الله عنه^(۱) .

(۱۴) وفد ابی عامر بن صعصعة – كان فيهم عامر بن الطفیل عدو الله وأربد بن قیس – أخو لبید لأمه – وخالد بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشیاطینهم ، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأmer عامر وأربد ، واتفقا على الفتک بالنبي ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يکلم النبي ﷺ ، ودار أربد خلفه ، واختلط سيفه شبراً ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نیبه ، ودعا عليهما النبي ﷺ ، فلما رجعوا أرسل الله على أربد وجلمه صاعقة فأحرقته ، وأما عامر فنزل على امرأة سلولیة ، فأصيب بعده في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتاً في بيت السلولیة .

وفي صحيح البخاری : أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوک بعطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن في بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، في بيت امرأة من بني فلان ، إیتونی بفرسی . فركب ، فمات على فرسه .

(۱۵) وفد تھیب – قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فرائیم وکان الوفد ثلاثة عشر رجلاً ، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسائلوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللث ، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه علاماً كانوا خلفوه في رحالمهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غنای في قلبي ، فدعاه بذلك ، فكان أقنع الناس ، وثبت في الردة على الإسلام ، وذكر قومه ؛ ووعظهم فشتوا عليه ، والتلقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ۱۰ هـ .

(۱۶) وفد طيء – قدم هذا الوفد وفيهم زید الخیل ، فلما کلموا النبي ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زید : « ما ذکر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زید الخیل فإنه لم يبلغ كل ما فيه » ، وسماه زید الخیر .

* * *

(۱) فتح الباری ۹۲/۸ .

وهكذا تابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبني سعد هذيم من قبضة ، وبني عامر بن قيس ، وبني أسد ، وبهاء ، وخولان ، ومحارب ، وبني الحارث بن كعب ، وغامد ، وبني المتفق ، وسلامان ، وبني عبس ، ومزينة ، ومراد ، وزبيد ، وكندة ، وذى مرة ، وغسان ، وبني عيش ، ونخع – وهو آخر الوفود ، تواجد في منتصف محرم سنة ١١هـ في مائتى رجل – وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩٠هـ ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام ، ووسط السيطرة والغزو على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تتظر إلى المدينة بانتظار التقدير والإجلال ، حتى لم تكن ترى معيلاً عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أنها لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكّن من أنفس هؤلاء باسرهم ؛ لأنّه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب ، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبه ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفَّارًا وَنَفَاقًا وَأَجَدَرُ الْأَيْلَمْوَاحِدُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَسْخَدُ مَا يُنْفِقُ مَغْرِبًا وَيَرْبَضُ بِكُوْدَلَدَ وَإِرْعَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) (٩٧ : ٩٨) وأثنى على آخرين منهم قال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَسْخَدُ مَا يُنْفِقُ فَرِيقٌ عَنِ الدِّرَجَاتِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) (٩ : ٩٩) .

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحرين ؛ فقد كان الإسلام فيهم قوياً ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين^(٤) .

(١) كلمة للحضرى في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١٤٤/١ . وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها ، صحيح البخارى ١/١٣ ، ٦٢٦/٢ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ . وابن هشام ، ٥٠١/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ إلى ٦٠١ ، وزاد المعاد ٣/٢٦ إلى ٦٠ ، وفتح الباري ٨/٨٣ إلى ١٠٣ ورحمة للعلميين ١٨٤/١ إلى ٢١٧ .

نجاح الدعوة وأثرها

و قبل أن نقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ؛ ينبغي لنا أن نلقي نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي هو فذلكة حياته ، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين ، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين .

إنه ﷺ قيل له : ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْءَةُ ۝ فَرِيقٌ أَلَّا فَلِيلًا﴾ الآيات . و ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّرَّةُ ۝ فُرْقَانًا زَرَّ﴾ الآيات ، ققام ، و ظل قائمًا أكثر من عشرين عاماً ، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عباء البشرية كلها ، و عباء العقيدة كلها ، و عباء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عباء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها ، المثقل بآثقال الأرض وجوازها ، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلاها ، حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية ، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة .. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها ، وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنموا وتند جذورها في التربة ، وفروعها في القضاء ، وتظل مساحات أخرى .. ولم يكدر يفرغ من معارك الجزيرة العربية ؛ حتى كانت الروم تعد هذه الأمة الجديدة ، وتهيأ للبطش بها على تخومها الشهالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت ، فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لا ينوي لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني ، و محمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكد ، والمؤمنون يستردون من حوله ظلال الأمن

والراحة ؟ في نصب دائم لا ينقطع ، وفي صير جميل على هذا كله ، وفي قيام الليل ، وفي عبادة لربه ، وترتيل لقرآنها ، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل^(١) .

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً ، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد ، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تحرير له العقول ، فقد دانت لها الجزيرة العربية ، وزالت غيرة الجاهلية عن آفاقها ، وصحت العقول العليلة ، حتى تركت الأصنام ؛ بل كسرت ، وأنخذ الجو برجوع بأصوات التوحيد ، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحيتها الإيمان الجديد ، وانطلق القراء شمالاً وجنوباً ، يتلون آيات الكتاب ، ويقيمون أحکام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتباينة ، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله ، فليس هناك قاهر ومقهور ، وساديات وعيدي ، وحكام ومحكمون ، وظالم ومظلوم ، وإنما الناس كلهم عباد الله ، إخوان متحابون ، ممثلون لأحكامه : أذهب الله عنهم عَبَّيَةَ الجاهلية ونحوتها وتعاظمتها بالآباء ، ولم يق هناك فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، الناس كلهم بني آدم ، وأدم من تراب .

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية ، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية ، وفي مسائلها الأخروية ، فتقلب مجرى الأيام ، وتغير وجه الأرض ، وانعدل خط التاريخ ، وتبدل العقلية .

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل الدعوة - ويتغافل ضميره ، وتأنس روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتحتاجه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلم ، على الرغم من الديانات السماوية ، التي كانت قد أدركها التحرير ، وسرى فيها الضعف ، وقدرت سلطتها على النفوس ، واستحالـت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح .

فلمـا قـامت هـذه الدـعـوة بـدورـها فـي حـيـاة البـشـرـية ؟ خـلـصـت روـحـ البـشـرـ منـ الوـهـمـ والـخـرـافـةـ ، وـمـنـ الـعـبـودـيـةـ وـالـرـقـ ، وـمـنـ الـفـسـادـ وـالـتـعـفـنـ ، وـمـنـ الـقـذـارـةـ وـالـانـحـلـالـ ، وـخـلـصـتـ المـجـتمـعـ الإـنـسـانـيـ

(١) كلمة سيد قطب في ظلال القرآن ٢٩/١٦٨، ١٦٩.

من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانهيار ، ومن فوارق الطبقات ، واستبداد الحكام ، واستذلال الكهان ، وقامت ببناء العالم على أساس من العفة والنظافة ، والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب ؛ لتنمية الحياة ، وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة^(١) .

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأً فوقها العمران ، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

(١) من كلمة سيد قطب في مقدمة ماذا خسر العالم بانخراط المسلمين ص ١٤ .

حجّة الوداع

تُمَتْ أَعْمَالُ الدِّعَوَةِ ، وَإِبْلَاغُ الرِّسَالَةِ ، وَبِنَاءُ مُجَمِّعٍ جَدِيدٍ عَلَى أَسَاسِ إِثْبَاتِ الْأَلْوَهِيَّةِ لِلَّهِ ، وَنَفِيَّاً عَنْ غَيْرِهِ ، وَعَلَى أَسَاسِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ هَافِئًا خَفِيًّا ابْعَثَ فِي قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُشَعِّرُهُ أَنْ مَقَامَهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَوْشَكَ عَلَى النَّهايَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ حِينَ بَعْثَ مَعَاذًا عَلَى الْيَمِنِ سَنَةِ ١٠١هـ قَالَ لِهِ فَيْمَا قَالَ : يَا مَعَاذَ ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَنِي بَعْدَ عَامِي هَذَا ، وَلَعْلَكَ أَنْ تَمْرِ بِمَسْجِدِي هَذَا وَقَبْرِي ، فَبَكَى مَعَاذًا خَشِعًا لِفَرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرِي رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَمَارَ دُعَوَتِهِ ، الَّتِي عَانَى فِي سَبِيلِهَا أَلْوَانًا مِنَ الْمَنَاعِبِ بَضْعَاً وَعَشْرِينَ عَامًا ، فَيَجْتَمِعُ فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ بِأَفْرَادِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَمِثْلِهَا ، فَيَأْخُذُونَ مِنْهُ شَرَائِعَ الدِّينِ وَأَحْكَامَهُ ، وَيَأْخُذُ مِنْهُمُ الشَّهَادَةَ عَلَى أَنَّهُ أَدْىَ الْأَمَانَةَ ، وَبَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنَصَحَّ الْأُمَّةَ .

أَعْلَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَصْدِهِ هَذِهِ الْحَجَّةِ الْمِبْرُورَةِ الْمَشْهُودَةِ ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرَ كَثِيرٌ ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتِمْ بِرِسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) . وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ لِأَرْبِعَ بَقِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ تَهْيَأُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرْحِيلِ^(٢) ، فَتَرْجَلَ وَادْهَنَ وَلَبِسَ إِزارَهُ وَرَدَاعَهُ وَقَلْدَ بَدْنَهُ ، وَانْطَلَقَ بَعْدَ الظَّهَرِ ، حَتَّى بَلَغَ ذَا الْخَلِيفَةِ قَبْلَ أَنْ يَصْلِيَ الْعَصْرَ ، فَصَلَّا هَا رَكْعَتَيْنِ ، وَبَاتَ هَنَاكَ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَتَانِي الْلَّيْلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ : صَلَّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمَبَارِكَ ، وَقَلَّ : عُمْرَةٌ فِي حَجَّةَ^(٣) .

(١) روى ذلك مسلم عن جابر، باب حجّة النّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٩٤/١.

(٢) حقَّ ذَلِكَ ابْنُ حَجْرٍ تَحْقِيقًا أَنِيَّاً ، مَعَ تَصْحِيحٍ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ خَرَجَ خَمْسَ بَقِينَ مِنْ ذِي الْعَدْدَةِ اَنْظَرْ فَتحَ الْبَارِيِّ ١٠٤/٨ .

(٣) رواه البخاري عن عمرٍ ٢٠٧/١ .

و قبل أن يصلى الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طبته عائشة بيدها بذريرة و طيب فيه مسك ، في بدنه و رأسه ، حتى كان و يص الطيب يرى في مفارقته و لحيته ، ثم استدامه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره و رداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه ، و قرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصواء ، فأهل أيضاً ، ثم أهل لما استقلت به على البداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذى طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر و اغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٤٠ هـ – وقد قضى في الطريق ثمان ليال ، وهي المسافة الوسطى – فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، و سعى بين الصفا والمروة ، ولم يحل ، لأنه كان قارنا قد ساق معه المدي ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج

و أمر من لم يكن معه هدي في أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ثم يحلوا حلالاً تماماً ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولو لا أن معي الهدي لأحللت ، فعل من لم يكن معه هدي ، و سعوا وأطاعوا .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة – وهو يوم التروية – توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر – خمس صلوات – ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى آتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطون الوادي ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس ، فقام فيهم خطيباً ، وألقى هذه الخطبة الجامدة :

«أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً^(١) .

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر المحاهلة تحت قدمي موضوع ، ودماء المحاهلة موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث – وكان مسترضاً فيبني سعد فقتله هذيل – وربا المحاهلة موضوع ، وأول ربأ أضع من ربانا ربأ عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

(١) ابن هشام ٢/٦٠٣ .

فاقتوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللت فروجهن بكلمة الله ، ولكن علیهم أن لا يوطعن فرشکم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليکم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيکم ما لئن تضلوا بعده إن اعتصمت به ، كتاب الله^(١) .

أيها الناس ، إنه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربکم ، وصلوا خمسکم ، وصوموا شهرکم ، وأدوا زکاة أموالکم ، طيبة بها أنفسکم ، وتحجرون بيت ربکم ، وأطیعوا ولاة أمرکم ، تدخلوا جنة ربکم^(٢) .

وأنتم تسألون عنی ، فما أنتم فائقون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدیت ونصح .

قال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينکتها إلى الناس « اللهم اشهد » . ثلاث مرات^(٣) .

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف^(٤) .

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقائه الخطبة نزل عليه قوله تعالى ﴿ أَلْيَوْمَ أَكَلَمْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتَمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَةٌ وَرَضِيَتُ لَكُمْ أَلِإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٥ : ٥) وعندما سمعها عمر بکی ، فقيل له : ما يیکيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان^(٥) .

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصل رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، ثم أقام فصل العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقه القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص ، وأردف أسماء ، ودفع حتى أتى المزدلفة ، فصل بها

(١) صحیح مسلم باب حجۃ النبي ﷺ . ٣٩٧/١

(٢) معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجه وابن عساکر ، رحمة للعالمين ٢٦٣/١ .

(٣) مسلم ٣٩٧/١ .

(٤) ابن هشام ٦٠٥/٢ .

(٥) رواه البخاري عن ابن عمر ... انظر رحمة للعالمين ٢٦٥/١ .

المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواد حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وهله ، ووحله ، فلم يزل واقفاً حتى أسرف جداً .

دفع - من المردفة إلى مني - قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلاً ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة - وهي الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجملة الأولى - فرمها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذف رمي من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثة وستين بدنة بيده ، ثم أعطى علياً نحر ما غبر - وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة - وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة بسبعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربوا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمم ، فقال : « انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سفرايتكم لتزعمت معكم » ، فناولوه دلواً فشرب منه^(١) .

وخطب النبي ﷺ يوم النحر -عاشر ذي الحجة - أيضاً حين ارتفع الضحى ، وهو على ببلغة شبهاء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد^(٢) . وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، قال : « إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق السماوات والأرض ، السنةاثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواлиات ، ذو القعدة وذو الحجة والحرم ، ورجب مضـر الذي بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أي شهر هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة » ؟ قلنا : بلى . قال : « أي بلد هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمه بغير اسمه ، قال : « أليست البلدة » ؟ قلنا : بلى . قال : « فـأـيـ »

(١) رواه مسلم عن جابر ، باب حجة النبي ﷺ ٣٩٧/١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أي وقت يخطب يوم النحر ٢٧٠/١ .

يُوْمُ هَذَا ؟ قَلْنَا : اللَّهُ وَرْسُولُهُ أَعْلَمُ . فَسَكَتَ حَتَّىٰ ظَنَّنَا أَنَّهُ سِيمَيْهُ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : « أَلَيْسَ يُوْمُ النَّحْرِ » ؟ قَلْنَا : بَلِي . قَالَ : « إِنَّ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحِرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلْدَكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ». .

« وَسْتَلِقُونَ رَبِّكُمْ ، فَيَسْأَلُوكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضَلَالًا يَضْرُبُ بَعْضَكُمْ رَقَابَ بَعْضٍ ». .

« أَلَا هُلْ بَلَغْتَ » ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ اشْهُدْ . فَلِيلِغُ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ فَرَبُّ مَلَكِ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ »^(١) .

وَفِي رَوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تِلْكَ الْخُطْبَةِ : « أَلَا لَا يَجْنِي جَانٌ إِلَّا عَلَىٰ نَفْسِهِ ، أَلَا لَا يَجْنِي جَانٌ عَلَىٰ وَلَدِهِ ، وَلَا مُولَودٌ عَلَىٰ وَالَّدِهِ ، أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئْسَ أَنْ يَعْدِ فِي بَلْدَكُمْ هَذَا أَبْدًا ، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيهَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَسَيَرْضَىٰ بِهِ »^(٢) .

وَأَقَامَ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ بَعْنَىٰ يَوْمِيِّ الْمَنَاسِكِ وَيَعْلَمُ الشَّرَائِعَ ، وَيَذَكُّرُ اللَّهُ ، وَيَقِيمُ سِنَنَ الْمَهْدِيِّ مِنْ مَلَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَيَمْحُو آثَارَ الشَّرَكِ وَمَعَالِمِهَا ، وَقَدْ خَطَبَ فِي بَعْضِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَيْضًا ، فَقَدْ رُوِيَ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادِ حَسَنٍ عَنْ سَرَاءَ بْنِتِ نَبَّاهَانَ قَالَتْ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الرَّؤُوسِ ، فَقَالَ : « أَلَيْسَ هَذَا أَوْسِطُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ »^(٣) . وَكَانَتْ خَطْبَتِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ مُثْلِّ خَطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ ، وَوَقَعَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةِ عَقبَ نَزْوَلِ سُورَةِ النَّصْرِ .

وَفِي يَوْمِ النَّفْرِ الثَّانِي – الْثَّالِثُ عَشَرُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ – نَفَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَنِيٍّ ، فَنَزَلَ بَحِيفَ بَنْيَ كَنَانَةَ مِنَ الْأَبْطَحِ ، وَأَقَامَ هُنَاكَ بِقِيَةً يَوْمَهُ ذَلِكَ ، وَلِيَلِتَهُ ، وَصَلَّى هُنَاكَ الظَّهَرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعَشَاءُ ، ثُمَّ رَقَدَ رَقْدَةً ، ثُمَّ رَكَبَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَطَافَ بِهِ طَوَافَ الْوَدَاعِ ، وَكَانَ قَدْ أَمْرَ الصَّحَابَةَ أَيْضًا .

وَلَا قَضَى مَنَاسِكَهُ حَتَّىٰ الرَّكَابُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمَطْهُرَةِ ، لَا لِيَأْخُذَ حَظًّا مِنَ الْرَّاحَةِ ، بَلْ

(١) صَحِيحُ البَخَارِيِّ ، بَابُ الْخُطْبَةِ أَيَّامُ مِنِيٍّ ٢٣٤/١ .

(٢) رَوَاهُ التَّرمِذِيُّ ٣٨/٢ ، ١٣٥ وَابْنُ ماجَةَ فِي الْحِجَّةِ ، مَشْكَاةُ الْمَصَابِعِ ١/٢٣٤ .

(٣) أَبُو دَاوُدَ . بَابُ أَيِّ يَوْمٍ يَخْطُبُ بَعْنَىٰ ١/٢٦٩ .

ليستأْنف الكفاح والكَدح لله وفي سبيل الله^(١).

آخر البعوث:

كانت كبراءة دولة الروم قد جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه ، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان والياً على معان من قبل الروم .

ونظراً إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يعني بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود ، حتى لا يحسن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الخوف فحسب .

وتكلم الناس في قائد الجيش لحداثة سنّه ، واستبطأوا في بعثه ، فقال رسول الله ﷺ : إن طعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وائم الله إن كان خليقاً للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلى الله ، وإن هذا من أحب الناس إلى الله^(٢) .

وانتدب الناس يتلفون حول أسامة ، وينتظمون في جيشه ، حتى خرجنوا ونزلوا المحرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث ، حتى يعرفوا ما يقضي الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق^(٣) .

(١) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري كتاب المنسك ج ١ و ٦٣١ / ٢ و صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ وفتح الباري ج ٣ من شرح كتاب المنسك وج ٨ / ١٠٣ إلى ١١٠ وابن هشام ٦٠١ / ٢ إلى ٦٠٥ زاد المعاد ١٩٦ / ١ ، ٢١٨ إلى ٢٤٠ .

(٢) صحيح البخاري . باب بعث النبي ﷺ أسامه ٦١٢ / ٢ .

(٣) المصدر السابق وابن هشام ٦٠٦ / ٢ ، ٥٦٠ .

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع:

لما تكاملت الدعوة ، وسيطر الإسلام على الموقف ، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره عليه ، وتتضح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب ، وتدارسه جيريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : إني لا أدرى لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، وقال وهو عند جمرة العقبة : خذوا عني مناسككم ، فلعلني لا أحج بعد عامي هذا ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، وأنه نعيت إليه نفسه .

وفي أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي عليه إلى أحد ، فصل على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المبر فقال : إني فرطكم ، وإني شهيد عليكم ، وإن الله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإنني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإن الله ما أخاف أن تشركوا بعدي ، ولكنني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها^(١) .

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقع فاستغفر لهم ، وقال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولاً ، الآخرة شر من الأولى . وبشرهم قائلاً : إننا بكم للاحقون .

بداية المرض:

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ - وكان يوم الإثنين - شهد

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ٥٨٥/٢ .

رسول الله ﷺ جنزة في البقيع ، فلما رجع – وهو في الطريق – أخذه صداع في رأسه ، وانقدت الحرارة ، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه .

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوماً ، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوماً .

الأسبوع الأخير:

وثقل برسول الله ﷺ المرض ، فجعل يسأل أزواجه : أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ ففهم من مراده ، فاذن له يكون حيث شاء ، فانتقل إلى عائشة ، يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب ، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها ، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته .

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ ، فكانت تنفس على نفسه ، وتمسحه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام:

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة ، انقدت حرارة العلة في بدنـه ، فاشتد به الوجع وغـمى ، فقال : هرـيقوا عـلـيـ سـبـعـ قـرـبـ منـ آـبـارـ شـتـىـ ، حتىـ أـخـرـجـ إـلـىـ النـاسـ ، فأـعـهـدـ إـلـيـهـمـ ، فأـقـعـدـوـهـ فـيـ خـضـبـ ، وـصـبـوـاـ عـلـيـهـ المـاءـ ، حتىـ طـفـقـ يـقـوـلـ : « حـسـبـكـمـ ، حـسـبـكـمـ » .

وعند ذلك أحـسـ بـخـفـةـ ، فـدـخـلـ الـمـسـجـدـ – وـهـوـ مـعـصـوبـ الرـأـسـ – حتىـ جـلـسـ عـلـىـ المـنـيرـ ، وـخـطـبـ النـاسـ – وـالـنـاسـ مـجـمـعـوـنـ حـوـلـهـ – فـقـالـ :

« لـعـنـةـ اللـهـ عـلـىـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ ، اـتـخـنـوـاـ قـبـورـ أـنـبـيـاـهـمـ مـسـاجـدـ » – وـفـيـ روـاـيـةـ (ـ قـاتـلـ اللـهـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ اـتـخـذـوـاـ قـبـورـ أـنـبـيـاـهـمـ مـسـاجـدـ)ـ (ـ وـقـالـ : لـاـ تـخـنـوـاـ قـبـرـيـ وـثـنـاـ يـعـدـ)ـ (ـ)ـ .

وعرض نفسه للقصاص قاتلاً : « مـنـ كـنـتـ جـلـدـتـ لـهـ ظـهـرـاـ فـهـذـاـ ظـهـرـيـ فـلـيـسـتـقـدـ مـنـهـ ، وـمـنـ كـنـتـ شـتـمـتـ لـهـ عـرـضاـ فـهـذـاـ عـرـضـيـ فـلـيـسـتـقـدـ مـنـهـ » .

ثم نزل فصل الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، وعاد لمقالـتهـ الأولىـ فيـ الشـحنـاءـ وـغـيرـهـ ،

(١) صحيح البخاري ٦٢/١ ، موطا الإمام مالك ص ٣٦ .

(٢) موطا الإمام مالك ص ٦٥ .

قال رجل : إن لي عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يا فضل ، ثم أوصى بالأنصار قائلاً : « أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرسي وعيتي ، وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم فاقبلا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » وفي رواية أنه قال : « إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار ، حتى يكونوا كالملح في الطعام ، فمن ولی منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »^(١) .

ثم قال : « إن عبداً خيره الله أن يؤتى من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » قال أبو سعيد الخدري : فبكي أبو بكر . قال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتى من زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فكان رسول الله ﷺ هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا^(٢) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « إن أمن الناس على في صحبته وما له أبو بكر ، ولو كنت متخدأ خليلاً غير ربي لاختذلت أنا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يقين في المسجد بباب إلا سد ، إلا باب أبي بكر »^(٣) .

قبل أربعة أيام:

و يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتد به الوجع - : « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » - وفي البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر : قد غالب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبيكم كتاب الله . فاختلف أهل البيت و اختلفوا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللعنة والاختلاف قال رسول الله ﷺ : « قوموا عني »^(٤) .

أوصى ذلك اليوم بثلاث : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمرشكين من جزيرة العرب ،

(١) صحيح البخاري ٥٣٦/١ .

(٢) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٥٤٦/٢ .

(٣) متفق عليه . مشكاة المصابيح ٥٤٨/٢ ، صحيح البخاري ٤٢٩ ، ٤٤٩ ، ٢٢/١ ، ٦٣٨/٢ .

(٤) رواه البخاري عن أم الفضل باب مرض النبي ﷺ ٦٣٧/٢ .

وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم ، أما الثالث فنفيه الراوي ، ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنّة ، أو تنفيذ جيش أسامة ، أو هي « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلّي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلّى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب ، فقرأ فيها بالمرسلات عرفا^(١) .

وعند العشاء زاد نقل المرض ، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد . قالت عائشة : فقال النبي ﷺ : « أصلى الناس » ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، وهم يتظرونك . قال : « ضعوا لي ماء في الخضب » . ففعلنا ، فذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : « أصلى الناس » ؟ - ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبي بكر أن يصلّي بالناس ، فصلّى أبو بكر تلك الأيام^(٢) ؛ ١٧ صلاة في حياته ﷺ .

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر ، حتى لا يتشاءم به الناس ، فأبى ، وقال : « إنك صاحب يوسف . مرّوا أبو بكر فليصلّي بالناس » .

قبل يوم أو يومين:

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة ، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلّي بالناس ، فلما رأه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه بأن لا يتأخّر ، قال : « أجلساني إلى جنبه ، فأجلسه إلى يسار أبي بكر ، فكان أبو بكر يقتدي بصلوة رسول الله ﷺ ، ويسمع الناس التكبير^(٣) .

قبل يوم:

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غلمانه ، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب للMuslimين أسلحته ، وفي الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها ،

(١) متفق عليه مشكاة المصايح ١٠٢/١ .

(٢) صحيح البخاري ٩٩/١ .

(٣) صحيح البخاري ٩٨/١ ، ٩٩ .

وكانت درعه عليه السلام مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير .

آخر يوم من الحياة:

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر يوم الإثنين - وأبو بكر يصلّي بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله عليه السلام كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقيبه ؛ ليصل الصف ، وظن أن رسول الله عليه السلام يريد أن يخرج إلى الصلاة ، فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم ، فرحاً برسول الله عليه السلام ، فأشار إليهم بيده رسول الله عليه السلام أن أتوا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخي الستر ^(١) .

ثم لم يأت على رسول الله عليه السلام وقت صلاة أخرى .

ولما ارتفع الضحى ، دعا النبي عليه السلام فاطمة فسارها بشيء فبكى . ثم دعاها ، فسارها بشيء فضحكت ، قالت عائشة ، فسألنا عن ذلك - أي فيما بعد - فقالت : سارني النبي عليه السلام أنه يقبض في وجنه الذي توفي فيه ، فبكى ، ثم سارني فأخبرني أنى أول أهله يتبعه فضحكت ^(٢) .

وبشر النبي عليه السلام فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين ^(٣) .

ورأت فاطمة ما برسول الله عليه السلام من الكرب الشديد الذي يتغشاه ، فقالت : واكب أباه . فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » ^(٤) .

ودعا الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيراً ، ودعا أزواجهم فوعظهم وذكرهن .

وطفق الوجع يشد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخسir حتى كان يقول : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخسir ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من

(١) نفس المصدر ، باب مرض النبي عليه السلام ٦٤٠/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٦٣٨/٢ .

(٣) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والإشارة لم يكن في آخر يوم من حياته بل في آخر أسبوع . رحمة للعالمين ٢٨٢/١ .

(٤) صحيح البخاري ٦٤١/٢ .

ذلك السم «^(١)».

وأوصى الناس ، فقال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، كرر ذلك مراراً^(٢).

الاحتضار:

وبدأ الاحتضار فأسنده عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله على أن رسول الله عليه صلواته توفي في بيته وفي يومي وبيه سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقني وريقه عند موته . دخل عبد الرحمن - بن أبي بكر - وبيه السواك ، وأنا مسندة رسول الله عليه صلواته ، فرأيته ينظر إليها ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناوله ، فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلبيته . فأمره - وفي رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستنأ - وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ، يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكريات » - الحديث -^(٣).

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتيه ، فأصففت إليه عائشة وهو يقول : « مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لي وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى »^(٤).

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثة ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنما الله وإنما إليه راجعون .

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ . وقد تم له صلواته ثلاثة وستون سنة وزادت أربعة أيام .

تفاقم الأحزان على الصحابة:

وتسرب النباء الفادح ، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : ما رأيت يوماً قط

(١) نفس المصدر ٦٣٧/٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) صحيح البخاري . باب مرض النبي عليه صلواته ٦٤٠/٢ .

(٤) نفس المصدر والباب ، وباب آخر ما تكلم النبي عليه صلواته ٦٤١ ، ٦٤٠ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨/٢ .

كان أحسن ولا أضواً من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ^(١) .

ولما ماتت فاطمة : يا أبناه أجاب ربها دعاه . يا أبناه ، من جنة الفردوس مأواه .
يا أبناه ، إلى جبريل نعاه^(٢) .

موقف عمر:

وقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات .
والله ليرجعن رسول الله ﷺ ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات^(٣) .

موقف أبي بكر:

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنج حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ ، وهو مغشى ثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه ، فقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، لا يجمع الله عليك موتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها .

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر . فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت . قال الله : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يُضْرَبَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الْمُشْكِرِينَ﴾ (٢ : ١٤٤) قال ابن عباس : والله لكان

(١) رواه الدارمي . مشكاة المصايح ٥٤٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٦٤١/٢ .

(٣) ابن هشام ٦٥٥/٢ .

الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسع
بشرأ من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبي بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني
رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات^(١) .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض :

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ ، فجرت مناقشات ومحادلات
وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بنى ساعدة ، وأخيراً اتفقوا على خلافة أبي بكر
رضي الله عنه ، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل ، وشغل الناس عن جهاز
رسول الله ﷺ ، حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح ، وبقي جسده المبارك على
فراسه ، مغشى بشوب حيرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه ، وكان القائمون بالغسل
العباس وعلياً ، والفضل وقثم ابني العباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأسامي بن زيد ،
 وأوس بن خولي . فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وأسامي وشقران يصبان الماء ، وعلى
يغسله ، وأوس أستدنه إلى صدره .

ثم كفنهو في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامه^(٢) .
أدرجوه فيها إدراجاً .

واختلفوا في موضع دفنه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبضنبي
إلا دفن حيث يقبض ، فرفع أبو طلحة فراسه الذي ثُوُّفي عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحداً .
ودخل الناس الحجرة أرسالاً عشرة فعشرة ، يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد ،
وصلى عليه أولاً أهل عشيرته ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، وصلت عليه النساء بعد الرجال ، ثم
صلى عليه الصبيان .

(١) صحيح البخاري ٦٤٠/٢ ، ٦٤١ .

(٢) متفق عليه ، صحيح البخاري ١٦٩/١ ، صحيح مسلم ٣٠٦/١ .

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً ، حتى دخلت ليلة الأربعاء ، قالت عائشة : ما علمنا بdeath رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء^(١) .

(١) يختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٤٧١ ، وانظر لتفصيل حلوقه بالرفيق الأعلى : صحيح البخاري ، باب مرض النبي ﷺ وعده أبواب بعده مع فتح الباري وصحيح مسلم ومشكاة المصايح باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٦٤٩/٢ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهو أهل الآخر ص ٣٨ ، ٣٩ ورحمة للعالمين ١/٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعين عامة الأوقات من المصدر الأخير .

البيت النبوى

(١) كان البيت النبوى في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد ، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه ، وهي في الأربعين ، وهي أول من تزوجها من النساء ، ولم يتزوج عليها غيرها ، وكان له منها أبناء وبنات ، أما الأبناء ، فلم يعش منهم أحد ، وأما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى ، وأما فاطمة فتزوجها على بن أبي طالب بين بدر وأحد ، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم .

وعلومنا أن النبي ﷺ كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة ، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة ، منها تسعة مات عنهم ، واثنتان توفيتا في حياته ، إحداهما خديجة ، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة ، واثنتان لم يدخل بهما . وهما هما هن وشيء عنهم .

(٢) سودة بنت زمعة ، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة خديجة بأيام ، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ، فماتت عنها .

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق ، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة ، بعد زواجه بسودة بسنة ، وقبل الهجرة بستين وخمسة أشهر ، تزوجها وهي بنت ست سنين ، وبني بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة ، وهي بنت تسعة سنين ، وكانت بكرأ ولم يتزوج بكرأ غيرها ، وكانت أحب الخلق إليه ، وأفقه نساء الأمة ، وأعلمهن على الإطلاق .

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تأيمت من زوجها خنيس بن حداقة السهمي بين بدر وأحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣ هـ .

(٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، فاستشهد في أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ . ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر .

(٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية ، كانت تحت أبي سلمة ، فمات عنها في جمادى الآخرى سنة ٤ هـ ، فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة .

(٧) زينب بنت جحش بن رباب من بني أسد بن خزيمة ، وهي بنت عممة رسول الله ﷺ ، وكانت تحت زيد بن حارثة – الذي كان يعتبر ابنًا للنبي ﷺ – فطلقها زيد ، فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ **(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَأَ وَجْنَدُهَا)** ، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني – وسنأتي على ذكرها – تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

(٨) جويرية بنت الحارث سيدة بني المصطلق من خزاعة ، كانت في سبي بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبتها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها في شعبان سنة ٦ هـ .

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتدى عبد الله وتنصر ، وتوفي هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧ هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة .

(١٠) صفية بنت حبيبة بن أخطب من بني إسرائيل ، كانت من سبي خير ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خير سنة ٧ هـ .

(١١) ميمونة بنت الحارث ، أخت أم الفضل لبايبة بنت الحارث ، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧ هـ ، في عمرة القضاء ، بعد أن حل منها على الصحيح .

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان
- خديجة زينب أم المساكين - في حياته ، وتوفي هو عن التسع الباقي .

وأما الائتنان اللتان لم ين بها ، فواحدة من بني كلاب ، وأخرى من كندة ، وهي المعروفة
بالجنونية ، وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها .

وأما السراري فالمعروف أنه تسرى باثنين إحداهما مارية القبطية ، أهدتها له المقوقس ،
فأولدها ابنه إبراهيم ، الذي توفى صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ ، في ٢٨/٢٩ من شهر شوال
سنة ١٤٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م . والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية ،
كانت من سبايا قريظة ، فاصطفاها لنفسه ، وقيل : بل هي من أزواجها ﷺ ، اعتقها
قتزوجها . والقول الأول رجحه ابن القيم . وزاد أبو عبيدة اثنين آخرين ، جميلة أصابها في بعض
النبي ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش^(١) .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيداً أن زواجه بهذا العدد الكبير من النساء في
أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاماً من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتضراً على زوجة
واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بعثة في
نفسه قوة عارمة من الشبق ، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكبير من النساء ؛ بل كانت
هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذي يتحققه عامة الزواج .

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاورة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزويجه
ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب ، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان - يشير إلى أنه
يغى من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربع ، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في
الأزمات التي مرت به ، وشاء الله أن يحيازها بسلام .

وكان من تقاليد العرب الاحتراز للمصاورة ، فقد كان الصهر عندهم باباً من أبواب التقرب
بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناولة ومحاربة الأصحاب سبة وعاراً على أنفسهم ، فأراد
رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام ، ويطفئ
حدة بغضاها ، كانت أم سلمة من بني مخزوم - حي أبي جهل وخالد بن الوليد - فلما تزوجها

(١) انظر زاد المعاد ٢٩/١

رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعاً راغباً ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة ، وكذلك لا نرى من قبيلتيبني المصطلق وبني النضرير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية ؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ . ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس .

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبي ﷺ كان مأموراً بتزكية وتنقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئاً من آداب الثقافة والحضارة والتقييد بلوازم المدنية ، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه .

والبادئ التي كانت أساساً لبناء المجتمع الإسلامي ، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تنقيفهن مباشرة مع المراعاة هذه البادئ ، مع أن مسيس الحاجة إلى تنقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفي لهذا الغرض ، فيزكيهن ويربيهن ، ويعلمنهن الشرائع والأحكام ، ويشفقهن بشقاقة الإسلام حتى يعدهن ؛ ل التربية البدويات والحضريات ، العجائز منهن والشابات ، فيكونن مؤنة التبليغ في النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله - ﷺ - المزلية للناس ، خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة ، فإنها روت كثيراً من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متصل ، وهي قاعدة التبني ، وكان للمتبني عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء . وكانت قد تأسّلت تلك القاعدة في القلوب ، بحيث لم يكن محوها سهلاً ، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التي قررها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيراً من المفاسد والفواحش التي جاء الإسلام ؛ ليحروها عن المجتمع .

ولهدم تلك القاعدة أمر الله تعالى رسول ﷺ أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ،

وكانت تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق ، حتى هم زيد بطلاقها ، وذلك في ساعة تأب الأحزاب على رسول الله ﷺ وال المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود ، وما يكون له من الأثر السيء في نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب أن لا يطلق زيد ؛ حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذا الامتحان .

ولا شك أن هذا التردد والانحصار كان لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ ، فعابه الله على ذلك وقال : ﴿فَوَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَنْقَلَ اللَّهُ وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَنَهُ﴾ (٣٧ : ٣٧) .

وأخيراً طلقها زيد ، وتزوجها رسول الله ﷺ في أيام فرض الحصار علىبني قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ، ولم يترك له خياراً ولا مجالاً ، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول : ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَتَكَهَا إِلَيَّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعَيْتَهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَا﴾ (٣٧ : ٣٧) وذلك ليهدم قاعدة النبي فعلاً كما هدمها قوله : ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَايِهِمْ هُوَ قَسْطٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٣٢ : ٥) . ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾ (٤٠ : ٣٢) .

وكم من التقاليد المتلاصلة الجازمة لا يمكن هدمها أو تعديلها ب مجرد القول ، بل لا بد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة ، ويتبين ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية ، كان هناك أولئك المسلمين الذين رأهم عروة بن مسعود الثقي ، لا يقع من النبي ﷺ نحاماً إلا في يد أحدهم ، ورأهم يتباردون إلى وضوئه حتى كادوا يقتلون عليه ، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة ، والذين كانوا فيهم مثل أبو بكر وعمر ، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته – بعد عقد الصلح – أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقم لامثال أمره أحد ، حتى أخذه القلق والاضطراب ، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر ، ولا يكلم أحداً ففعل ، تبادر الصحابة إلى اتباعه في فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جلياً ما هو الفرق بين أثري القول والفعل لعدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة ، وقاموا بدعایات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين ، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ ، ولم يكن يعرف

ال المسلمين حل الزواج بأكثر من أربع نسوة ، وأن زيداً كان يعتبر ابنَ النبي ﷺ ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلفظ الفواحش ، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وকفى ، وعلم الصحابة أن النبي ليس له أثره في الإسلام ، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره ، لأغراضه النبيلة الممتازة .

هذا ، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن ، كما كان في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج ، مع أنه كان في شطوف من العيش لا يطيقه أحد . قال أنس : ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرقاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط^(١) . وقالت عائشة : إن كنا لنتظر إلى الهلال ثلاثة أيام في شهرين ، وما أوقدت في أيّات رسول الله ﷺ نار . فقال لها عروة : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء^(٢) . والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشطف والضيق لم يصدر منها ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة – حسب مقتضى البشرية ، ولذلك سبباً لتشريع الأحكام – فأنزل الله آية التخيير ﴿يَأْتِيهَا الَّتِيْ قُلَّ لِأَرْوَاحِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِبْتَهَا فَتَعَالَيْنَ أَمْتَغْكُنَ وَأَسْرِحْكُنَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾٢٨﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْدَ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُنَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٣ : ٢٨ ، ٢٩) وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وكذلك لم يقع منها ما يقع بين الضرائر مع كثرينه إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى ، وهو الذي ذكره الله في سورة التحرير بقوله ﴿يَأْتِيهَا الَّتِيْ لَمْ يَحْرِمْ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُم﴾ إلى تمام الآية الخامسة .

وأخيراً أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات ، فمن نظر في حياة سكان أوروبا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى ما يقايسون من الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البلایا والقلائل لأنحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن في ذلك لعبرة لأولي الأ بصار .

(١) صحيح البخاري ٩٥٦/٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الصفات والأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز من كمال خلقه وكامل خلقه بما لا يحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره ، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهياج ، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر ، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر – وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق :

قالت أم عبد الحزاعية عن رسول الله ﷺ – وهي تصفه لزوجها ، حين مر بخيتها مهاجراً : ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجْلة ، ولم تزر به صعلة ، وسم قسيم ، في عينيه دَعْج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل ، وفي عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهام من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فضل ، لا نزرة ، ولا هذر ، كان منطقه خرزات نظمٍ يتحدرون ، ربعة ، لا ت quamمه عين من قصر ولا تشتهي من طول ، غصن بين غصين ، فهو أنظر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدرأ ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محسود ، لا عابس ولا مفتد^(١) .

وقال علي بن أبي طالب – وهو ينعت رسول الله ﷺ : لم يكن بالطويل المُعَطَّ ، ولا القصير المتردد ، وكان رَبْعَةٌ من القوم ، ولم يكن بالجَعْدِ القَطِطِ ، ولا بالسَّيْطِ ، وكان جَعْدا

(١) زاد المعد ٤/٢ . الثُّجْلة : ضخامة البدن . الصعلة : صغر الرأس . وسم قسيم : حسن جميل . الدَّعْج : سواد العين . وفي أشفاره وطف : في شعر أجهفانه طول . صحل : بحة وخشونة . سطع : طول . أزج : الحاجب الرقيق في الطول . لا نزرة ولا هذر : أي وسط لا قليل ولا كثير . محفود : الذي يخدمه أصحابه =

رَجْلًا ، ولم يكن بالملْطُومِ ولا بالمُكْلَثِ ، وكان في الوجه تَذْوِيرٌ ، وكان أَيْضًا مُشَرِّبًا ، أَذْعَجَ العَيْنَيْنِ ، أَهْدَبَ الْأَشْفَارَ ، جَلِيلَ الْمُشَاشِ وَالْكَتَنِ ، دَقِيقَ الْمُسْرِبَةِ ، أَجْرَدَ ، شَنَّ الْكَفَنَ وَالْقَدَمَيْنِ ، إِذَا مَشَى تَقْلَعَ كَأْنَما يَمْشِي فِي صَبَبٍ ، وَإِذَا تَفَتَّ التَّفَتَ مَعًا ، بَيْنَ كَتْفَيْهِ خَاتَمُ النَّبَوَةِ ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّنَ ، أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًا ، وَأَجْرَأَ النَّاسَ صَدْرًا ، وَأَصْدَقَ النَّاسَ لِهَجَةً ، وَأَوْفَ النَّاسَ ذَمَّةً ، وَأَلَيْهِمْ عَرِيَّةً ، وَأَكْرَمَهُمْ عَشْرَةً ، مِنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ ، وَمِنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَهُ ، يَقُولُ نَاعِتَهُ : لَمْ أَرْ قَبْلِهِ وَلَا بَعْدَهُ مُثْلَهُ ، عَلَيْهِ^(١) .

وَفِي رَوَايَةِ عَنْهُ : أَنَّهُ كَانَ ضَخْمَ الرَّأْسِ ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ ، طَوِيلَ الْمُسْرِبَةِ ، إِذَا مَشَى تَكْفَأْ تَكْفِيَا كَأْنَما يَنْحُطُ مِنْ صَبَبٍ^(٢) .

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ سَمْرَةَ : كَانَ ضَلْيِعَ الْفَمِ ، أَشْكَلَ الْعَيْنَ ، مَنْهُوسُ الْعَقَبَيْنِ^(٣) .

وَقَالَ أَبُو الطَّفِيلَ : كَانَ أَيْضًا ، مَلِيعَ الْوَجْهِ ، مَقْصَدًا^(٤) .

وَقَالَ أَنْسُ بْنُ مَالِكَ : كَانَ بَسْطَ الْكَفَنِ . وَقَالَ : كَانَ أَزْهَرَ الْلَّوْنَ ، لَيْسَ بِأَيْضَ أَمْهَقَ ، وَلَا آدَمَ ، قَبْضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلَحْيَتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةَ بِيَضَاءَ^(٥) .

= وَيَعْظُمُونَهُ وَيَسْرُعُونَ فِي طَاعَتِهِ . الْمَحْشُودُ : الَّذِي يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ النَّاسُ . وَلَا مَفْنَدًا : لَا يَفْنِدُ أَحَدًا أَيْ بِهِجَنَهُ وَيَسْتَقْلُ عَقْلَهُ بِلِ جَيْلِ الْمَعَاشَةِ حَسْنِ الصَّحَّةِ ، صَاحِبُهُ كَرِيمٌ عَلَيْهِ .

(١) ابْنُ هَشَامٍ ٤٠١ / ٤٠٢ ، وَجَامِعُ التَّرمِذِيِّ مَعْ شَرْحِهِ تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ ٣٠٣ / ٤ ، وَالْمَغْفَطُ : الْمَتَاهِيِّ فِي الطَّوْلِ . الْمَجْدُ : مَلْتَوِي وَمَنْقَبُ الشِّعْرِ . الْقَطْطُ : شَدِيدُ الْجَمْعُودَةِ . السَّبِطُ : الْمَسْتَرِلُ . الْمَطْهُومُ : مَنْتَفَخُ الْوَجْهِ وَقَلْيَلُ الْفَاحِشِ الْسَّمْنِ ، وَقَلْيَلُ التَّحِيفِ الْحَسْمِ . الْمَكْلَمُ : هُوَ اجْتِنَاعُ لَحْمِ الْوَجْهِ بِلَا جَهُومَةَ . أَهْدَبُ الْأَشْفَارَ : طَوِيلُ شَعْرِ الْأَجْفَانِ . جَلِيلُ الْمُشَاشِ : أَيْ عَظِيمُ رُؤُوسِ الْعَظَامِ كَالْمَرْفَقَيْنِ وَالْكَتَنَيْنِ وَالرَّكْبَتَيْنِ . الْكَتَنُ : يَجْتَمِعُ الْكَتَنَيْنِ وَهُوَ الْكَاهِلُ . أَجْرَدُ : هُوَ الَّذِي لَيْسَ عَلَى بَدْنِهِ شَعْرٌ . الْمُسْرِبَةُ : الشِّعْرُ الدَّفِيقُ الَّذِي هُوَ كَأْنَهُ قَضَبٌ مِنَ الصَّدَرِ إِلَى السَّرَّةِ . الشَّنُّ : الْغَلِيلُ الْأَصَابِعِ مِنَ الْكَفَنَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ . الْبَدِيهَةُ : الْمَفَاجَأَةُ .

(٢) نَفْسُ الْمَصْدَرِ الْأَخْيَرُ . الْكَرَادِيسُ : رُؤُوسُ الْعَظَامِ وَقَلْيَلُ هِيَ مَلْتَقِي كُلِّ عَظِيمَيْنِ ضَخْمَيْنِ كَالرَّكْبَتَيْنِ وَالْمَرْفَقَيْنِ . وَالْمَنْكَبَيْنِ أَرَادَ أَنَّهُ ضَخْمَ الْأَعْضَاءِ .

(٣) صَحِيحُ مُسْلِمٍ ٢٥٨ / ٢ ضَلْيِعُ الْفَمِ : عَظِيمُ الْفَمِ . أَشْكَلُ الْعَيْنِ : طَوِيلُ شَقِّ الْعَيْنِ . مَنْهُوسُ الْعَقْبِ : قَلِيلُ الْلَّحْمِ .

(٤) نَفْسُ الْمَصْدَرِ . مَقْصَدًا : هُوَ الَّذِي لَيْسَ بِجَسِيمٍ وَلَا نَحِيفٍ وَلَا طَوِيلٍ وَلَا قَصِيرٍ ..

(٥) صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ ٥٠٢ / ١ . أَزْهَرُ الْلَّوْنَ : أَيْضًا مُشَرِّبٌ بِحَمْرَةِ . الْأَيْضَ أَمْهَقُ : شَدِيدُ الْبَيَاضِ كُلُّهُ الْمَحْضُ . الْآدَمُ : الْأَمْرُ وَالْمَعْنَى : لَيْسَ بِأَسْرَرٍ وَلَا بِأَيْضَ كَرِيمُ الْبَيَاضِ بِلَا أَيْضَ يَأْضَأُ نَيْرًا مُشَرِّبًا .

وقال : إنما كان شيء - أي من الشيب - في صدغيه . وفي رواية : وفي الرأس ^{بَذْنٌ}^(١) .

وقال أبو جحيفة : رأيت بياضاً تحت شفته السفلی : العنفة^(٢) .

وقال عبد الله بن بسر : كان في عنفته شعرات بيض^(٣) .

وقال البراء : كان مربوعاً بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته في حالة حمراء ، لم أر شيئاً قط أحسن منه^(٤) .

وكان يسدل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فرق رأسه بعد^(٥) .

قال البراء : كان أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً^(٦) .

وسئل : أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفي رواية : كان وجهه مستديراً^(٧) .

وقالت الريبع بنت معوذ : لو رأيته رأيت الشمس طالعة^(٨) .

وقال جابر بن سمرة : رأيته في ليلة إضحيان ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حالة حمراء - فإذا هو أحسن عندي من القمر^(٩) .

وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، لأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، لأن الأرض تطوى له ، وإنما

(١) نفس المصدر ، وصحيغ مسلم ٢٥٩/٢ . والنبد : بضم النون وفتح الباء أو بفتح النون وتسكين الباء ومعناها : شعرات متفرقة .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٣) نفس المصدر ١/٥٠٢ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) صحيح البخاري ١/٥٠٣ .

(٦) نفس المصدر ١/٥٠٢ ، وصحيغ مسلم ٢/٢٥٨ .

(٧) صحيح البخاري ١/٥٠٢ ، وصحيغ مسلم ٢/٢٥٩ .

(٨) رواه الدارمي مشكاة المصابيح ٢/٥١٧ .

(٩) رواه الترمذى في الشمائل ص ٢ ، والدارمى ... مشكاة المصابيح ٢/٥١٨ .

لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث^(١)

وقال كعب بن مالك : كان إذا سر استثار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر^(٢) .
وعرق مرة وهو عند عائشة ، فجعلت تبرق أسارير وجهه ، فتمثلت له بقول أبي كبير
المذلي :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برق كبرى العارض المتهلل^(٣)
وكان أبو بكر إذا رأه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدار زايله الظلام^(٤)
وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان :

نُوكْتَ مِنْ شَيْءٍ سَوْيَ الْبَشَرِ كُنْتَ الْمَاضِيَ لِيَلَةَ الْبَدَارِ
ثُمَّ يَقُولُ كَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ^(٥) .

وكان إذا غضب أحمر وجهه ، حتى كأنما فقيء في وجنته حب الرمان^(٦) .
وقال جابر بن سمرة : كان في ساقيه حُمُوشة ، وكان لا يضحك إلا تبسماً ، وكنت إذا
نظرت إليه قلت : أكحل العينين ، وليس بأكحل^(٧) .

قال ابن العباس : كان أفالج الثنيتين ، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه^(٨) .

وأما عنقه فكانه جيد دمية في صفاء الفضة ، وكان في أشفاره غطف ، وفي لحيته كثافة ،
وكان واسع الجبين ، أزوج الحواجب في غير قرن بينهما ، ألقى التعرن ، سهل الخدين ، من لبته إلى

(١) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/٣٠٦ ، مشكاة المصايح ٢/٥١٨.

(٢) صحيح البخارى ١/٥٠٢.

(٣) رحمة للعلميين ٢/١٧٢.

(٤) خلاصة السير ص ٢٠.

(٥) مشكاة المصايح ١/٢٢ ، ورواوه الترمذى في أبواب القدر : باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢/٣٥.

(٦) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/٣٠٦ . والحموشة : أي دقة ولطافة متناسبة لسائر أعضائه.

(٧) رواه الدارمى ... مشكاة المصايح ٢/٥١٨ . والأفالج : الذي بين أسنانه تباعد . والثنايا : أسنان مقدمة الفم .

سرته يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، سواء البطن والصدر ، مسيح الصدر عريضه ، طويل الزند ، رحب الراحة ، سبط القصب ، خمسان الأخمصين ، سائل الأطراف ، إذا زال زال قلعاً ، يخetto تكتيًّا ويشي هوناً^(١) .

وقال أنس : ما مسست جريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ ، ولا شمت ريحًا قط أو عرفًا قط ، وفي رواية : ما شمت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً ، أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ^(٢) .

وقال أبو جحيفة : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهي ، فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك^(٣) .

وقال جابر بن سمرة - وكان صبياً - : مسح خدي فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من حونة عطار^(٤) .

وقال أنس : كان عرقه اللؤلؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب^(٥) .

وقال جابر : لم يسلك طريقاً فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه ، أو قال : من ريح عرقه^(٦) .

وكان بين كفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمام ، يشبه جسده ، وكان عند ناغض كفه اليسرى ، جمعاً عليه خيلان كأمثال التاليل^(٧) .

(١) خلاصة السير ص ١٩ ، ٢٠ . الحيد : العنق . الدمية : الصورة المصورة . الأقني : الذي ارتفع أعلى أنفه واحدوب وسطه وضاق منزراً . والعرينين : الأنف وما صلب منه . سبط القصب : المتد الذي ليس فيه تعقد ولا نتواء ، والقصب يزيد بها سعاديه وساقيه . الأخمص من القدم : الموضع الذي لا يلتصق بالأرض منها عند الوطء ، والخمسان : المبالغ منه أي أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٠٣ ، صحيح مسلم ٢/٢٥٧ .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٠٢ .

(٤) صحيح مسلم ٢/٢٥٦ . جونة عطار : التي يعد فيه الطيب وحرز .

(٥) نفس المصدر .

(٦) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٢/٥١٧ .

(٧) صحيح مسلم ٢/٢٥٩ ، ٢٦٠ . التاليل : هو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها .

كمال النفس ومكارم الأخلاق:

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاعة القول ، وكان من ذلك بال محل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أتى جوامع الكلم ، وخص بـ دائن الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة الbadia وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، قالت عائشة : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرتين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهي حرمة الله فينتقم لله بها^(١) ، وكان أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضاً .

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقدر قدره ، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الربيع المرسلة^(٢) . وقال جابر : ما سئل شيئاً قط فقال : لا^(٣) .

وكان من الشجاعة والنجدية والبأس بالمكان الذي لا يجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنـه الكـمة والأبطـال غير مـرة ، وهو ثابت لا يـرح ، وـمـقبل لا يـدـير ، ولا يتـزـحزـح ، وما شـجـاع إـلا وـقـدـ أحـصـيـتـ لهـ فـرـةـ ، وـحـفـظـتـ عنـهـ جـوـلـةـ سـواـهـ ، قـالـ عـلـيـ : كـنـاـ إـذـاـ حـمـيـ البـأـسـ وـاحـمـرـتـ الـحـدـقـ اـتـقـيـنـاـ بـرـسـوـلـ اللهـ ﷺـ ، فـمـاـ يـكـونـ أـحـدـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـعـدـوـ مـنـهـ^(٤) . قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري ٥٠٣/١ .

(٢) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٣) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٤) انظر الشفاء للقاضي عياض ٨٩/١ ومثل ذلك روى أصحاب الصحيح والسنن .

راجعاً ، وقد سبّهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، في عنقه السيف ، وهو يقول : لم ترّاعوا ، لم ترّاعوا^(١) .

وكان أشد الناس حياء وإغضباء ، قال أبو سعيد الخدري : كان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وإذا كره شيئاً عرف في وجهه^(٢) ، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان لا يسمى رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول : ما بال أقوام يصنعون كذا . وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضي حياء ويغضي من مهابته فلا يكلم إلا حين يتسم
وكان أعدل الناس ، وأعفّهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك
محاوروه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، روى
الترمذى عن علي أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله
تعالى فيهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يَعِيشُونَ بِمَا حَدَّوْنَ﴾^(٣) . (٦ : ٣٣) وسأل
هرقل أبا سفيان ، هل تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقumen للملوك ، وكان
يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويحبب دعوة العبد ، ويجلس في أصحابه كأحدهم ، قالت
عائشة : كان يخصف نعله ، ويحيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته ، وكان بشراً من
البشر يفلّي ثوبه ، ويخلب شاته ، ويخدم نفسه^(٤) .

وكان أوف الناس بالعهود ، وأوصلهم للرحم ، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، أحسن
الناس عشرة وأدباً ، وأبسط الناس خلقاً ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشاً ،
ولا متفحشاً ، ولا لعاناً ، ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يغفو
ويصفح ، وكان لا يدع أحداً يمشي خلفه ، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل

(١) صحيح مسلم ٢٥٢/٢ ، وصحيغ البخاري ٤٠٧/١ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٠٤ .

(٣) مشكاة المصايد ٢/٥٢١ .

(٤) نفس المصدر ٢/٥٢٠ .

ولا ملبس ، وينخدم من خدمه ، ولم يقل خادمه أَفْ قَطُّ ، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ، ويشهد جنائزهم ، ولا يحقر فقيراً لفقره . كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : عَلَيْ ذِبْحَهَا وَقَالَ آخَرٌ : عَلَيْ سَلْخَهَا ، وَقَالَ آخَرٌ : عَلَيْ طَبْخَهَا ، فقال عَلَيْهِ : وَعَلَيْ جَمِيعِ الْحَطَبِ ، فَقَالُوا : نَحْنُ نَكْفِيْكَ . فقال : قد علمت أنكم تكفووني ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه ، وقام وجمع الحطب^(۱) .

ولترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ : قال هند فيما قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكت ، يفتح الكلام وينتهي بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجواب الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقدير ، دمثاً ليس بالمحافي ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، ولم يكن يذم ذوقاً - ما يطعم - ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حق يتتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا يتتصر لها - سماحة - وإذا أشار وأشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قليها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأله الناس عما في الناس ، ويسعد الناس ويصوبه ، ويقع العبيع ويوجهه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لا يغفل خافية أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقص على الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكاناً - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسته نصيحة ؛ حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه حاجته صابرها حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بيسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه

(۱) خلاصة السير ص ۲۲ .

وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق متقاربين ، يتفضلون عنده بالتفوى ، مجلسه مجلس حلم وحياة وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم – لا تخشى فلتاته – يتعاطفون بالتفوى ، يوقرون الكبير ، ويرحمن الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجاذب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداع ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يقتنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاثة : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاثة : لا يذم أحداً ، ولا يعبره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساً ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أو لهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه ، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ^(١) .

قال خارجة بن زيد : كان النبي ﷺ أقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عن تكلم من غير جميل ، كان ضحكه تسبياً ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ولا تقدير ، وكان ضحكت أصحابه عنده التبسم ، توقيراً له واقتداء به^(٢) .

وعلى الحملة فقد كان النبي ﷺ ملبياً بصفات الكمال المنقطعة النظر ، أدبه ربه فأحسن تأدبه ، حتى خاطبه مثنياً عليه فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٦٨ : ٤) وكانت هذه الخلال مما قرب إلى النفوس ، وحبيبه إلى القلوب ، وصيروه قائداً تهوي إليه الأفادة ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء ، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً .

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ولا يسر غوره ، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال ، استضاء بنور ربه ، حتى صار خلقه القرآن ؟

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦ ، وانظر أيضاً شمائل الترمذى .

(٢) نفس المصدر ١/١٠٧ .

اللهم صلّى على محمد وعلى آل محمد ، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد
مجيد .

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد
مجيد .

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية - ١٣٩٦ / ١١ / ١٢

بنارس الهند ١٩٧٦ / ١١ / ٦ م